أي بُنيّ

مقارنة بين ماضينا و حاضرنا

الجزء الرابع

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

ⓒ عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر، ١٤١٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخويطر ، عبدالعزيز بن عبدالله .
أي بني.. مقارنة بين ماضينا وحاضرنا . ـ الرياض.
٤١٦ ص ؛ ١٦ × ٢٣ سم (الجزء الرابع)
ردمك : ٦ – ٠ – ٩٠٤٨ – ٩٩٦٠
١– السعودية – العادات والتقاليد
٢– السعودية – المأثورات الشعبية.
٣– السعودية – الأدب الشعبي
أ– العنوان
ديوي ٣٩٠,٠٩٥٣١ ١٦/٢٣٢١

رقم الإيداع: ١٦/٢٣٢١
ردمك: ٦ – ٠ – ٩٠٤٨ – ٩٩٦٠

الرياض – الطبعة الثانية
١٤٢١هـ – ٢٠٠١م

يطلب من مكتبة العبيكان
الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة
ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥
هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أي بني

مقارنة بين
ماضينا و حاضرنا

الجزء الرابع

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الرياض ـ الطبعة الأولى





مقدمة

في الأجزاء الثلاثة السابقة من «أي بني» سعيت -ما أمكن- أن استوعب إظهار الأمور الرئيسية في حياة مجتمعنا الماضي، وشرحت ما كانت عليه مما أعرفه، وعلّلت ما استطعت تعليله، وحاولت أن أغوص على ما في باطن بعض الظواهر، وقارنت ما كان في الماضي بما صار عليه في الحاضر، وبينت ما قد يكون من اختلاف أو تشابه، وما طرأ من تطور نتيجة الاتصال الخارجي والتقدمِ التقني. وجاء بعض ذلك مطولاً، وبعضه مختصراً، وجاء بعضه عن جميع المناطق، وبعضه عما أعرفه عن بعض المناطق.

ثم وجدت بعد ذلك أنه قد غاب عن ذهني بعض صور وظواهر، أو أنها لم تغب ولكن طبيعتها تجعلها منفردة لا تلتحم مع بعض ما سبق، أو أنها إضافة عنّت لاحقة لما سبق ولم يُتنبّه لها إلا فيما بعد، أو أنها تفصيل رُئِي فيما بعد وجوبه، أو زاوية

برزت أهميتها مع استمرار الاجزاء، وهي كلها -في نظري- صور مضيئة رغم صغرها، أو انزوائها. واشعاعها بعيد الدوائر، واسع الانداياح. شغلت هذه النتف، وهذه الاضافات ذهني، وأخذت أقلب الأمر حيالها، وأجيل النظر فيها، وأبحث عن خير الطرق لسبكها، فوجدت أن أفضل طريق لابرازها، واعطائها حقها، والاستفادة منها، حتى لا يكون هناك نقص فيما قلناه عن الماضي، أن أجعلها ضمن اطار يحويها، وداخل حضن خطةٍ دافئ يحتضنها، فلا تبدو شريدة نافرة، ولاَ سلعة بائرة، ولا ذخيرة ضائعة، واهتديت إلى بعض الأمثال العامية فاخترتها وعاء لها، وعرضتها ضمن ما تحويه، من حكم، وعصيرة تجارب، وصور صادقة، ووجدت في هذا مرتعاً خصباً، بعضه خيره طافح على السطح، وبعضه في القاع ويحتاج إلى غوص وتعمق؛ فالحقت بكل مثل مظهراً أو أكثر، وجاء ذلك استطراداً عفوياً في بعض الأحيان، ليساعد على لمس جوانب عديدة، وما كان بالامكان



لمسها لولا أعمدة المثل ، وركونها عليها ، واعتمادها على صلتها بها .

وبجانب ما تحقق من جمع شتات هذه المتفرقات من الصور ، والمبعثر من الرسوم ، والمتروك من المظاهر ، فإنّ ايراد الأمثلة نفسه كشف أنواعاً مختلفة من جوانب تفكير الناس في ذلك الزمن ، ومسارب أذهانهم ، واتجاه تفكيرهم .

وحدَّدَت هذه الأمثال في بعض جوانبها ما كان شغل الناس الشاغل ، أو ما كان في تفكيرهم على الهامش أو في الحاشية . وأبرَزَتْ بعض المعلومات المهمة عن تاريخ الفترة ، ومدى تأثير الحوادث على تصرفات الناس ، ومعيشتهم . وجاءت أساساً يمكن أن نصله بأسبابه بزمننا ، ونعرف مدى تلون زمننا به ، وتأثيره عليه .

وليست هذه هي المهمة الوحيدة التي أدتها هذه الأمثلة وإنما كان فيها اشارات واضحة عن أخلاق الناس ، وسيرهم ، وعلاقة بعضهم ببعض ، ونوع

هذه العلاقة ، سواء كانت دراسية ، أو زراعية ، أو تجارية ، أو عائلية ، أو كانت بين رئيس ومرؤوس ، أو بين رجل وامرأة ، أو بين عامل ورب عمل ، أو بين أب وابنه ، أو جار وجاره ، وغير ذلك من الروابط والصلات .

وهذا كله ، سواء منه ما جاء في هذا الجزء أو في الأجزاء السابقة، يؤكد ـ خلاف ما توهمه بعض القراء ـ من أني لم أعط الجانب الأخلاقي والمعنوي مايستحقانه من التفاتة في الأجزاء السابقة، مع أن كل بحث سابق، في الحقيقة، كان يلمس جانباً من جوانب الخلق في مظهر من مظاهره، وكان المرمى لكل بحث هو عرض الخلل في حياة الناس حينئذ وطلب تجنبه، وايضاح الصواب وتحسين التمسك به . ومن أهم مظاهر الاهتمام بهذا الجانب ابراز المشقة والعنت التي كان يقابلها آباؤنا وأجدادنا في الزمن الماضي، ثم ما تبع ذلك في زمننا من ارتفاع هذا الشقاء كله أو في معظمه، وحلول الوجد والرخاء بعد العدم والجدب، وزيادة المردود بدل



قلتـــه ، مما أوجب التنبيـــه إلى الشكـر على هذا ، والمحافظة بالشكر على المكسب العظيم الذي ننعم به .

ولم يخل بحث من الأبحاث السابقة من حديث عن الأمانة ، أو الصدق ، أو الوفاء ، أو الكرم ، أو عزة النفس ، أو الــطمــوح ، أو التسـامـح ، أو التواضع ، أو اللين ، أو الرأفة بالصغير والضعيف والمريض ، أو العلم ، أو العقل ، أو رعاية الجار ، أو المودة ، أو الاخاء ، أو الحياء ، أو بر الوالدين ، أو الحلم ، أو الصبر ، أو المشورة ، أو المروءة ، أو كتـــمان السر ، إلا وصف ما عليـــه الآبـاء فيـه ، وتمسكهم به . وتـلى ذلـك بطريق غير مباشر ، أو مباشر أحياناً ، حث الجيل الحاضر من الشباب على السير على هذا المنهاج الحسن .

ومثـل هذا أحـاديث عن بعض الرذائل مثل : الغيبة ، أو النميمة أو التجسس ، أو الظن السّيّء ، أو تتبـع الشبهـات ، أو الكـبر ، أو القسـوة ، أو البخل ، أو التقاعس ، أو الخيانة ، أو الجهل ، أو



الحمق، أو الظلم، أو أذى الجار، أو الغضب، أو الحسد، أو الجزع، أو إفشاء السر، وتنفير الشباب من كل هذا، ومدح الآباء على الحرص على الابتعاد بأبنائهم عن ما يشين من هذا كله.

وهذه الأمور كلها جاءت في تلك الأحاديث مجللة بجلال من السُّتُر الرقيقة، حتى لا يمل القارىء من تكرارها وتردادها، ولا يجفل من إسداء النصيحة، مع محاذرة جلب الملل، وتجنّب أسباب النّفور. وهذان الأمران من الأهداف التي كانت في الذّهن دائماً. ولقد تبين أن تجنب الملل أحد أسباب القبول عند بعض محسني الظن من القراء.

في هذا الجزء ـمثل الأجزاء السابقةـ تركيزٌ على المثل العليا، واظهارٌ لها، وما كانت عليه في تلك المجتمعات. وسوف يبرز عملاقاً من بينها، في هذا الجزء، جانب الكد والكدح في أعمال أهل زمن هذه الأمثال، وحرصهم على الوقت حرصاً يجعلهم ينافسون، في حدود مقدرتهم، آلات اليوم،



ومعـدات العلم الحـديث . هذا إلى ما تخلل هذا الجـزء مما هو ضمن الهدف له ، وهو شرح بعض مظاهـر حياتهم التي لم ترد في الأجزاء الثلاثة من قبـل ، أو وردت ولكنهـا ـكما قلنـاـ احتاجت إلى تفصيل أو إضافة .

والمتمعّن سوف يجد أن هناك تركيزاً على بعض الأمثلة ، وهـذا أمـر ، في حد ذاتـه ، يبـين اهتمام المجتمـع بجانب من الجوانب ؛ فالزراعة ، مثلاً ، استأثرت بعدد غير قليل مما ورد من الأمثلة ، لأن حيـاة النـاس في الحضـارة عمادهـا الـزراعة ، ثم التجارة . والبادية كذلك جزء من اهتمامها ينصب على ما تنبته الأرض وقت الربيع ، أو ما تشح به ، فلا يأتي منها .

هذه لمحـة سريعـة عن هذا الجزء لَمَست بعض الجوانب منه ، وهي مدخل إلى بقية ما جاء فيه مما سيجده القارىء فيه .





تمهيد

أي بنيّ !

دعنا أولاً ـ يا بني ـ نختط في حديثنا منهجاً نأخذ به ، ونسير في حدوده ؛ يحكمنا ولا نحيد عنه ، ما دمنا قد حددنا الهدف ، ونريد أن نصل إليه ؛ ومن المفيد أن يختار الانسان القيد الذي يرتضيه ، حتى لا تتشعب به الطرق ، وتتعدد المسالك ، وتطول الجادة التي أراد أن يسلكها فلا يصل في أقرب وقت ، ولا في أقل جهد ، إلى ما يريد .

في الماضي ـ يا بني ـ كنا نتحدث أنا وأنت ، في استعراض حياة آبائنا وأجدادنا ، حسب ما يعنّ لنا ، ننتقل من روضة إلى روضة ، ومن زهرة إلى زهرة ، لا يقيدنا إلا حبل رفيع ليس فيه إلا « بتّ » : « فتلة » واحدة ، وعنوان واحد ، وهو مسلك ارتضيناه لما نتحدث عنه ، ونخوض فيه ، فنسبر غوره ، ونجوس خلال دياره ، أما فيما ننويه اليوم ، وربما بعض أيام أخر ، بعد اليوم ، فسيكون له عناوين



فرعية متعددة . أما منهجنا الذي ارتضيناه هنا هو أننا نأخذ بعض الأمثال منطلقاً للحديث عن الحياة الماضية ، ومقارنتها بعصرنا الحاضر ، وسنحاول في بعض الحالات اعطاء ملامح من الزمنين ، كما فعلنا في ثلاثة الأجزاء السابقة .

وفي هذا ـ بجانب الميزة التي ذكرناها ـ ميزات أخرى ، أحدها أننا سوف ندخل إلى الجانب الذهني في حياة الجيل الماضي ، ونتعرف على طرق تفكيره ، ونظرته إلى الأمور ، وما يهمه منها ، وما لا يهمه ، ما يشغله مما يفرحه أو يحزنه ، ما يطمئنه أو يقلقه ، ما يحركه أو لا يحركه . سوف نرى ملامح من إيمان النّاس حينئذ وعاداتهم ، وتصرفاتهم أمام ما يقابلهم من عقبات ، وما يعترضهم من ضيق عيش ، وما يعتريهم من أمراض ، وما يمر بهم من دهور وقحط وجدب ، وما ينعم الله به عليهم من أمطار وسيول ، وما تجود به أرضهم من زروع ونخيل وفواكه وخضروات . وما يزاولونه من أعمال وحرف ، وما



هو رائج منها، وما هو راكد. وسوف نفتح نوافذ نرى منها حربهم وسلمهم، ورحلاتهم وإقامتهم.

وسوف نرى تأثير المحيط على تفكيرهم وحركة أذهانهم، ونظرتهم إلى الحياة في محيطهم الزراعي، أو الرعوي، أو التجاري. سواء كانت الحياة في المدينة أو القرية، أو في البادية. وسواء كانت في سهل أو جبل، مجاورة للبحر أو بعيدة عنه. وسوف نرى انتظام مجرى تفكيرهم العام في اطار واحد يحكمه الدين الإسلامي، والعادات العربية الحميدة، والتقاليد الحسنة.

وكثرة الأمثال، وتعددها، يجعل هذا الحقل -يا بني- واسعا، ولا نهاية له. ولهذا سوف نجتزىء -يا بني- أمثلة، تمثل ما قصدناهُ، وترسم ما هدفنا إليه، إلا ما قد يوجبه الاستطراد المريح، أو تؤدي إليه فائدة، أو يقود إليه مغزى. وقد تعودنا، كما لعلك تذكر -يا بني- أن نستطرد، أنا وأنت، فأشملنا بعد أن كنا مشرّقين، وشرّقنا بعد أن كنا مُجنِبين، وغرّبنا بعد أن كنّا مُشمِلين، ولكنّنا لا



نطيل الخروج عن الجادة، بل نعود إليها سريعين، ولم نكن نندم على هذا، بل كنا ـ على ما أظن ـ نحمد هذا الازورار، والخروج والاستطراد، فهو يريحنا من القيد الذي أخذنا أنفسنا به، وارتضيناه منهجاً لنا. فكان خروجنا مثل الاستراحة للمسافر في طريق طويل، يُلقي فيها رحله، ويلتقط نفسه الثائر، ويريح دابّته، وقد يكون فعله هذا على حافّة روضة، أو بجوار غدير.

والأمثال ـ يا بني ـ ميراث، يتسلل من الأب إلى الآبن، يفرح به الوارث، ويستبشر به المتلقي، لأنه مع ما فيه من غنى فكري، فهو يأتيه دون تعب، ودون مؤونة، وبدون مقابل. وفائدته كبرى فيما يقابله في حياته من مواقف، فهذا الميراث يعلمه الحكمة، ويجعل عنده ملكة لصياغة الأمثال، التي تدخله دائرة المفكرين. والمثل ـ يا بني ـ يأتي في أغلب الأحيان بالصدفة، وتحكمه اللحظة. وهذا ـ يا بني ـ يعطيك الأمل في أن تصبح



من المفكــرين الـذين تُلتقط أفكــارهم ، ويستفــاد منها . فاسْعَ إلى هذا بعد أن تتوكل على الله ، وترجو توفيقه ، وتعمل لرضاه .



الأمثال صور من الحياة

أي بني !

« أنت تريد ، وأنا أريد ، والله يفعل ما يريد » .
أنت تريد قصصاً ، وأموراً مسليه ، وتريد أن يبعد عنك ما هو ثقيل من النّصائح ، والحقائق المجرّدة ، وأنا أريد لك شيئاً نافعاً في كل جانب من جوانبه ، لا هزل فيه ، ولا بعد عن الجد ، وينتهي الأمر إلى ما يريده الله ، فأحياناً أغلبك ، وآتي لك بالأمر ثقيلاً كالجبل ، وأحياناً خفيفاً كالريشة ، وأحياناً قاسياً كالصخر ، وأحياناً ليناً كالعجينة ، وأحياناً مرّاً كالعلقم ، وأحياناً حلواً كالشهد ، وأحياناً مظلماً في نظرك كحلكة الليل ، وأحياناً منيراً كرابعة النهار . ، تقبل المزعج منه إرضاء لي ، وتقبل المبهج فرحة به .

والدنيا ـ يا بني ـ هكذا ، لا تأتي دائماً على ما يشتهي المرء ، تأتي على هوانا حيناً ، ونأتي على هواها حيناً آخر ، ولعل لذة الحياة في هذا : استقبال ما لا يُحب ، والسعي لتطويعه إلى ما يُحب ، إخفاق معه



كسب درس ، أو نجاح معه حلاوة نصر . نشاط يعارضه نشاط ، أو نشاط يواكبه ويعضده نشاط . وفي هذا كله حركة ، والحركة بركة ، ولو ركدت الحياة لحدث الموت ، فالحياة في الحركة .

لاحظ ـ يا بني ـ أنني بدأت قولي معك بمثل . والأمثال لها موقع لامع في اللغات والآداب ، فهي مظهر جمال لغوي ، وهي وعاء حكمة ، وهي قمّة في اختصار الأفكار في كلمات معدودة ، لِمعانٍ لا تحدّ ، وهي صلة لغوية بين القرون ، وسجل لتاريخ يرثه اللاحقون عن السابقين ، وديوان لصور لحياة النّاس في كل جوانبها ، فإن كانت البيئة بيئة رعي مثلت الأمثال بيئة الرعي ، وعكست ما هي عليه وما يجرى فيها ، وإن كانت بيئة جبلية فالأمثال تأتي جبلية ، وإن كانت زراعية سيطرت صور الزراعة وأمورها عليها ، وإن كانت ساحلية حكت ما عليه الساحل وأهله ، وإن كانت بيئة صحراوية حكت عن الصحراء وساكنيها وحيوانها ونباتها .



والأمثال تُري حالة قائليها من فقر أو غنى ، أو علم أو جهل ، رزانة أو طيش ، شجاعة أو جبن ، تجعل المتتبع لها يغوص إلى أعماق المجتمع الذي قالها ، أو قيلت عنه ، لأنها لبنة من طينته ، وريشة من جناحه ، ومعدن من منجمه ، وغرفة ماء من نهره ، ونفس من رئته ، ونغمة من صوته ، فيها ما فيه من طبيعة وحياة .

ويحسن ـ يا بني ـ أن نقوم معا بجولة على بعض الأمثال العامية ، التي توضح ما ذكرناه ، وتكشف عن جوانب المجتمع الماضي ، وما كان يدور فيه ، وما يجول بخواطر أهله ، وكيف يقابلون أمورهم ، ويعالجون مشاكلهم ، وما هي نفثات صدورهم . وسترى أنها تكاد تكون جزءاً مما يُعرّف بتاريخهم ، وما مرّ عليهم من فرح أو ترح ، أو سعادة أو شقاء ، سلم أو حرب ، خصب أو قحط ، وتكشف عما كانت عليه أنفسهم ، وهم يلفظون المثل .

وستجد ـ يا بني ـ أننا ونحن نتحدث عن الأمثال ـ قارنًا ـ تصريحاً أو تلميحاً ـ بين الماضي والحاضر ،



وأننا لم نخرج عن الخط الذي رسمناه، ولم نخلف الـوعد الذي على أنفسنا قطعناه. وستجد أنّ هذا الحقـــل -حقـــل الأمثـــال- ممدّ لنـا مدداً لا ينتهي لغـرضنـا، وأن مثل هذا النهج في تتبع الأمثال لو أرخينـا لنفسنـا العنـان فيـه، وأمتعناها بهواها في مجالـه، لجاء منه كتاب متكامل، وليس جزءاً من كتاب. ولكن يجب أن لا ننسى ما وضعناه نصب أعيننـا في منهجنا الذي أرتضيناه، وهو أن نحاذر الملل، ونفرّ منه فرارنا من الأسد.

أبجدي

[١]

يقول أحد الأمثال التي صاغها آباؤنا بوحي من بيئتهم، ونسق حياتهم فيها، مما يعكس إحدى مهنهم:

« مَحَشٍّ مِجـردة[1] »

هذا مثل يضرب لمن له فوائد عديدة، ويقوم مقام عمل عدد من الناس. والمحش والمجردة آلتان، إحداهما وهي المحش للحصد، والأخرى، وهي المجردة، لقطع صغار أغصان الأشجار، أو تهذيبها وتشذيبها[2]، وهما متقاربتان في شكلهما إلا أن المجردة أدق في أسنانها، وأحد في قطعها، ولها تركيب يناسب طبيعة عملها.

والمثل مأخوذ من البيئة حيث كانت الزراعة هي عماد اقتصاد الناس، وفي نطق المثل ما يدل على أنه محّ الاقتصاد وبؤرته، لأن الفلاح سوف يستعمل

(١) الأمثال الشعبية، الجهيمان ٨/ ٣٥ .

(٢) وتختص المجردة باستئصال الشوك من النخيل، والأخذ من الشماريخ، للتخفيف عن القنو.



آلة واحدة لعملين ، ويؤدي بها غرضين جرت العادة أن تؤديه آلتان . وفي هذا اقتصاد وأي اقتصاد ، حسب معنى الكلمة .

وهو يمثل البيئة الفقيرة التي كان أغلب الناس يعيشون فيها ويكتفون بما يُجزى ، لأنهم لا يستطيعون توفير ما يشتهون ، ولا إدراك ما تطمح إليه أنفسهم ، أو ما يتطلع إليه طموحهم ، ولا أن يحققوا كل ما يحتاجون إليه مما هو ضروري لرفع جودة العمل ، فأقل درجات الانجاز تكفيهم ، وأبسط الوسائل تغنيهم عن غيرها مما هو فوق متناول أيديهم .

ولأن المثل يضرب للشخص الذي يسدّ نقصاً لا يسدّه إلّا أكثر من واحد ، فهو يدل على الكفاية المتناهية ، والقوم مولعون بأمثال ذلك ، لأنه يصور حياتهم في تقدير المُجِدّين الذين تقوم عليهم حياة المجتمع .

وهناك مثل يعضد هذا في اتجاهه ، ويؤكد نظرتهم إلى الكفيء المُجِدّ ، وهو من يحمل العبء



بجدارة ، يقولون :

« فلان حقّ قرقوشٍ منظره »

أي أن المضروب له يؤدي عدداً من الأعمال . «والحِقّ» هنا علبة تضع فيها المرأة زينتها ، أو طيبها أو عطرها ، و«تُدَلِّهُ» بها ابنها ، أي تشغله وتسليه ، بالاصوات التي يحدثها تحريك الحِقّ ، وحركة ما بداخله ، وتستعمله المرأة أيضاً مرآة ، تتطلع إلى وجهها فيه . فهذه العدة الصغيرة قامت مقام ثلاث آلات .

وإذا كان المثل الأول من الحقل الزراعي ، ويلمس حياة الناس حينئذ عندما كانوا يعتمدون على الآلات البدائية ، واستعمالها يعكس حياة الشظف في العيش ، والعناء والكد لتأمين الرزق ، فإن المثل الثاني يمثل الحياة داخل المنزل ، ويُري صورة مما كانت عليه حالة البيت والمرأة فيه ، ومستوى المعيشة التي كانت تعيشها .

والمحش والمجردة لهما أهمِيَّة خاصة لدى الفلاح



في ضوء ما شرحناه ـ يا بُنيّ ـ لأنه لا يفتأ يأتي بهما مرة أخرى في مثل آخر من محيطه ، وفي حدود استعماله لهما فيقول :

« **ما حشّ المحش وجابت المجردة**[1] »

(جابت : أي جاءت به) .

وهو مثل كما نرى يدل على الاحاطة والشمول . فهو يعني كل ما حُصد أو جُنِي من لين وقاسٍ ، أو هو الغلة بأنواعها .

ولا تعجب ـ يا بني ـ أن يلتفت صائغوا المثل إلى الأداة التي تجمع عدة أعمال ، وتقوم بما تقوم به عدة آلات ، فخيال الشعراء هو الذي يوجب العدد ، عندما يقول أحدهم : «ويجمع الله العالم في واحد» . حقيقة إن هذا هو الخيال المجنح ، أوحت به المغالاة في المدح ، واختلف فيه مقوموه ، فمن معجب بالخيال وسعته ، ومن ماج له لأنه تعدى الحدود المقبولة في المدح .

---

(١) الجهيمان ٧/ ٥٤ .

وقبل أن نختم كلامنا عن المِحَشّ والمجردة، نود أن نُنبّه - يا بنيّ - إلى أخت لهما ثالثة هي «الحاسونة»، وتختلفَ عنهما في أن لها يداً أطول منهما منحنية، تمكن الفلاح من قصّ ما بَعُدَ عنه، وعَسُر الوصول إليه، أو دخل في مكان يصعب قطع ما يراد قطعه منه.



[٣]

والحـديث عن الزراعة ، وما كان يجري فيها ، وما كانت عليه صورتها ، يمكن أن تؤخذ كاملة من الأمثال . وقد أتمكن -يا بني- من اعطائك فكرة عن بعض الجوانب منها باختيار بعض الأمثال التي تأتي من قلب الزراعة ، وبيئة النبات ، أو تحوم حول حماها .

يقولون في أحد أمثالهم :

« **إحصـد هـوا غمّـر ماش**[1] »

(ماش : أي ما شيء أو لا شيء) .

هذا مثل يضرب - يا بني - لمن يبذل جهداً ضائعاً لا يأتي بنتيجة . وكلمة : «إحصد» ترتبط بالزراعة في ذهن القائل لهذا المثل ؛ فالمثل على هذا منتزع من بيئـة زراعيـة ، سواء كان ذلـك في مزرعة ، أو في تبعيل سقياه من المطر الموسمي ، أو في روضة من

(١) العبودي ، الأمثال العامية في نجد ، ١/ ٦٠ .



رياض الصحراء في الربيع . وما دام الحصاد هواء ، فما هناك حمل يحمل على الدابة كالمعتاد في حمل الاثقال . والمثل يَضرب كبد الحقيقة ، فمن يسير في فراغ فإنه لا يصل إلى غاية ، ومن يصوب سهامه إلى الفضاء الخالي فإنها لا تأتيه بطير ؛ فهو مثل صادق على من تعبه ضائع ، وجهده مهدر ؛ فالهواء لا شيء في وزنه ، فإذا كان هو مَا حصد ، فليس هناك غمر أو حمل يُحمل . وإنما جهد مهدر ، وتعب غير مخلوف ، وغاية لا يوصل إليها ، والهدف مهدوم .

فهو لهذا مثل صائب في صورته ، ومنتزع من البيئة ، ويعرفون مدلوله ، ويقدرون وقعه ، وتأثيره .

ولا تعجب - يا بني - من اهتمامهم بالوقت والجهد ، فهم أناس قد خبروا الحياة ، ذاقوا مُرّها وحلوها ، السار منها والمؤلم ، النافع والضار ، ووجدوا في نهاية الأمر أن العمل الذي يأتي بنتيجة ، ويعود بالنفع على الفرد والمجتمع ، هَو



الذي يعوض عن الجهد والتعب، وهو الذي يدفع قيمة ما ينفق من العمر فيه، وساعات العمر هي أغلى ما يمكن أن يقدره الانسان، لأن حصيلته تنفع إما دنيا حسنة، أو آخرة حميدة.

وكـانت امكاناتهم المادية في أي مهنة تصدوا لها محدودة، ومقدرتهم محكومة بهذه الامكانات، ولهذا فالمردود في أغلب الاحيان يكون شحيحاً، ويقتصر على ما يقيت، ويغطي الاحتياج الضروري، ولا يفكـرون البتـة في الأمور غير الضرورية، بل إن الأمـور الضروريـة عنـدهم لها أولـويـات يترتّب الحصول عليها على تنظيم قاس يأخذون به أنفسهم.

لهذا تحس في هذا المثل بمرارة يشعرون بها تجاه من لا يحصـد شيئـاً يفيده في هذه الحياة القاسية، ولا يَجني ما يسـاعـده على تحمـل ثقلهـا الرازح، ومجـاهـدة عبئهـا المضني، ولا ينـاله من جهده إلا التعب الـذي لا يعـوض، والعناء الضائع. ولأن

حالة إضاعة الجهد والوقت أمر نادر عندهم جاؤا به مثلاً، ويوحي بشبهة الاستحالة.

حياتهم ـ يا بني ـ كانت نمطاً فريداً من الدأب والنشاط، وتوخي المصلحة. ولم يكن أحدهم ينظر لمصلحته وحده؛ وإنما كان يحسب حساب الآخرين، لأن أغلب الأمور تتم عن طريق مجهود الجماعة. ورغم أنه يقوم بذلك مختاراً طائعاً، إلا أنه يدرك أنّه ينشىء بمشاركة آخرين دَينا عليهم، يؤدّونهُ له عندما تأتي حاجته إلى أيد متعددة قوية تحمل معه العبء، الذي ينوء به ظهره، وليس لديه من المال ما يقابل به استئجار عمال، لأن النقود شحيحة، والمجتمع وَجَد ـ في ظل اقتصادهم القائم ـ أنه أفضل لهم أن يتعاونوا، في أوقات المواسم. وكانت خطة محمودة تستوعب الأيدي العاملة المتوفرة في المجتمع. وكانوا قنوعين يقبل الفقير منهم أن يعمل بأكل يوم، وقد لا يزيد الأمر عن وجبة واحدة في أغلب الأحيان، ومعها منة كبرى، وحمد لله وشكر له على ما تفضل به.



لهذا يجب أن ينظر لهذا المثل بعمق، ويجب أن يغـوص سامعـه على ما في أعماق بحاره من صور صادقة دقيقة، وبدون الالمام بها لا يفهم ابن اليوم زمانهم، أو يتصور حياتهم.

[٣]

ومثل آخر مأخوذ من الزراعة، ومن حقل فيه نخل منضود:

« بشر النخل بفلاح جديد[١] »

ونبت هذا المثل من بيئته، ويكاد يحدّد المناطق التي جاء منها، وهي المناطق التي يغرس فيها النخل، فيزهو وينتج، وهي مناطق معروفة في الجزيرة، وطبيعة الأرض الصالحة لمثل هذا النبات تحددها.

والنخلة، وما يدور حولها، أخذ من أمثال القوم شيئاً كثيراً، ولا عجب، فالنخلة عزيزة عليهم، وهي عمتنا وعمتهم - كما جاء في الحديث الشريف - وكانت مصدر رزق وكسب للفلاح، ورزق وكسب لعائلته، ومصدر غذاء متكامل مفضل لهم ولغيرهم من أفراد المجتمع. والنخلة رأسمال زراعي متميز جداً في زمن مضى، فمن يزرع حباً

---

(١) العبودي ١/ ٢٦٥ .



ولا يغرس نخلاً لا يعد مزارعاً أو فلاحاً ؛ فالأرض قد تكـون أرض «تبـطيـخ» أي تزرع فقط خضرة الصيف وفاكهته ، من بطيخ وغيره ، كالقثاء والخيار والحبحب والخـربـز والـطماطم والبيدجان الأسود والقـرع . ولكنّ هذا كلّه مؤقت . وقد تزرع هذه الأرض هذه السنة ، ولا تزرع السنة الثانية . أما إذا كان هناك نخل مغروس فالمزرعة ثابتة ودائمة ، وعطاؤها متواصل ، ومعروف مقدار غلته بالدقة أو بالتقريب .

والفـلاح المزمن في مزرعة من المزارع قد يملّ فيتراخى ، أو يصبح عمله رتيباً مثل ما هو معروف عن طبيعـة الانسـان في كل أمر يطول مكثه فيه ، ويستمـر في مزاولته مدة طويلة ، فيتوقف الابداع عنده ، وينعدم التجديد ، فإذا ما وكل أمر النخل إلى فلاح جديد ، فإن الأمر يختلف . يأتي المزارع الجديد نشيطاً ، مقبلاً على العمل برغبة وهمة ، مستعداً لبذل الجهـد . وقـد ألبس صاحب المثـل النخـل لباس الانسان ؛ فهو يريد أن يبشره ليفرح بالفلاح الجديد



الذي سيوليه عناية يستحقها، وأنها تختلف عما تعود عليه من الفلاح السابق.

وهو مثل يسعف المتمثل به، ليعبر به عن أمر كان خاملاً فدبّ فيه النشاط الذي يتوقع له بعد مدة أن يفتر؛ فقائله ينبه بهذه العبارة الموجزة إلى أنه على المتابع ألا يُصدم إذا تغيّر النشاط هذا إلى تهاون، وهذا الاقبال إلى فتور.

وأنت ـ يا بني ـ خبير بالمثل، فأنت تقبل على الشيء إقبالاً ملحوظاً، تنسى معه أي أمر آخر، وتبدي نشاطاً قبل أن تحتازه، ولا تستريح حتى يكون في يدك، ثم هي أيام أو ساعات فتصد عنه، وتتركه يندب حظه معك؛ لأنك تعلقت بأمر آخر، وشغفت بشيء جديد رأيته عند أحد، أو سمعت به، أو هو تطوير لآلة عندك، مما يدخل كثيراً على الآلات في هذه الأيام. وهذا المثل ينطبق عليك، ولا تحتاج في وصفك إلى أن تنجرَ مثلاً جديداً، أو تنحتَ قولاً حكيماً.



[٤]

والأمثال - يا بني عن النخلة كثيرة، لأهميتها، وتقدير الناس لها، وتعلقهم بها، لجودها معهم، ولادراكهم لمصلحتهم فيها ومن الأمثلة عنها قولهم:

« **مثل النّخلة العوجا بطاطها في غير حوضها**(١) »

وهو مثل يشرح نفسه، ويُضرب لمن يستفيد من القريب، ولا ينفع إلا البعيد، وفي هذا المثل تشعر بالحرقة تلهب قلب قائله - يا بني - فهو يُسقي النخلة، ويُسمدها، ويتعب عليها في تشذيبها وتكريبها، وتلقيحها وتشويفها (تشويكها) وتعديلها، وفي النهاية عندما تأتي الثمرة يقع - خير النّخلة، في أرض الجيران، بسبب ميلان النّخلة لاعوجاجها. ألا يدفع هذا صاحبها إلى الأسى والحسرة؟

وقد يربي الأهل ابنهم - يا بني - أو ابنتهم، ويعلمونها حتى تكبر هي أو أخوها، فيتزوجان، فلا

---

(١) الجهيمان ٨/ ٢٤ .

يرى والداهما منهما نفعاً، ويكون النفع لمن تزوجوا منهم، هل تظن أن المثل ينطبق على مثل هؤلاء؟

وحديثهم عن النخلة يكاد لا يحصى[1]: من أمثال وحكم وقصص، وليس هذا مجال حصرها، أو الاتيان بنماذج منها. وما يمكن قوله هنا هو أنهم لتعلّقهم بها، وبثمرتها دخلت حياتهم طولاً وعرضاً، ولو سمعتهم يعددون نفعها، ونفع ثمرتها، لسمعت غزلاً يطرب. هم لا يلامون - يا بنِي - فالنّخلة، كما سبق أن حدثتك[2]، كان لا يُستغنى عن أي جزء منها. كل شيء فيها صالح عندهم لشيء يناسبه، فمنها ما يفيد في البناء، ومنها ما يفيد للوقود، ومنها ما ينفع للجلوس عليه، ومنها ما يستعمل للكنس والتنظيف، ومنها ما كان يحل محل المكيّف، ومنها ما يستعمل حِبالاً، ومنها ما يفيد جسوراً فوق مجاري المياه. واسأل الأطفال - يا بني -

---

(١) من أمثالهم عن التمر والنوى: «ناس يأكلو التمر، وناس يترامو بنواه»، السباعي، الأمثال الشعبيّة في مدن الحجاز، ٨٩.

(٢) أي بني ٢/ ١٣.



عن جُمّارهـا، واسأل الطيور وما تتركه من «نقادة» عليها. أما ثمرتها فللإنسان غذاء كامل ورئيسي، ويلمزون إلى التمر بأنه «مسامير الركب» لأنه يشد أزرهم في عملهم. والحيـوان - يا بني - له حصـة وافية في نوى التمر. ما قد لا تقبله من المتحمسين للتمر قولهم: إن المصاب بالسكر لا يضره التمر مثل غيره من الحلويات، وهي دعوى عليك أن تحذّر من قبولها من معه «مرض السّكّري».

وحتى الصّغار - يا بني - للنخلة عندهم مقام، وإذا كان اعـزازهـا، ومعـرفة قدرها تجعل الكبار ينحتون منها مثلاً، فمن هم في مثل سنك في الماضي كان لهم مثـلٌ حول النخلة وطولها: إذا تخـاصـم اثنان، أحدهما قصير والآخر طويل، قال الطويلٍ للقصـير: «كـل قصير نقمة» فيقول القصير، رداً عليه: «يا نخلة رابغ»[1]. ولعل نخلة رابغ هذه «عيـدانـة» قد طالت، ولم تعد تجود بما يناسب ما يصرف عليها، أو ما يساوي المكان الذي هي عليه،

(١) «أطول من نخلة رابغ»، دياب، الأمثال العامةي، ١٠٢ .



وصعودها فيه من الخطر ما فيه، هذا زيادة على لعب الريح بها يمنة ويسرة كأنها «نخلة في مهبّ الريح»! لهذا يرى من قال هذا القـول أنّه تشفّى من زميله الطويل. هذا سلاح أعطيك إياه - يا بني - ان جاءك من هو أقصر منـك، أو أطول منك، فعندك لكل واحد منهما ما ترد به عليه.



[٥]

ومن أمثالهم التي تتصل بالزراعة وحيوانها المثل الآتي :

« **تجرّ رشاك ، وتدهن عشاك**[١] »

هذا مثل ينجد المتمثل به عندما يريد أن يعدد فوائد شيء من الأشياء ، وقائله استقاه من بيئته ، ومن استعماله لأدواتها ووسائلها ، ومنها البقرة ، وهي عضد للفلاح ، يسني عليها ، فتمتح له الماء من البئر ، تجر الرشاء الذي يُنزل «الغرب» أو يُخرجه ، آتيةً ذاهبة في «المنحاة» ، وفوق هذا كما يقول المثل تعطيه الحليب الذي فيه غذاؤه ، ومنه الزبدة ، التي هي مصدر سمنه الذي يودم به طعامه .

وهذا المثل يسير على نسق القول الذي مرّ قبله في جمع الفوائد في أداة واحدة ، وهو مظهر من مظاهر البيئة في البحث عن وسائل تحقيق الاقتصاد ، والحرص عليه وتقديره ، والابتعاد عن

---

(١) العبودي ١/ ٣٠١ .

التبـذيـر، وتجنب ما يؤدي إليـه، لأن رقـة حالهم وضعف امكاناتهم، تتطلب ذاك، ولا تتحمل هذا، فجاءت أمثالهم صورة صادقة لما عليه دخيلتهم، ولما يحكمهم من طباعٍ قوالبها ظروفهم.

وحياة الفلاح ـ يا بني ـ محدودة بزرعه، وبسقي أرضـه، وحيـوانـاتـه وآلاته، والبقرة حيوان يقوم بالحـرث والمتـح، ويعطي بعض الغذاء، ولهذا لا عجب أن كانت أقرب شيء إلى ذهنه، ليصوغ فيها أمثـاله، و «أم العوف» تستحق ذلك كما استحقته النّخلة «العمّة» قبلها.

ولك أن تدرك ـ يا بني ـ مدى أهمية البقرة عند الفـلاح، خاصـة إذا كانت موقـوفـة على السواني والحرث، عندما تسمع المثل الذي يقول:

« بقـرة آل فـلان لـم تجـد وقتـاً لتلـد »

فهي من السـواني إلى الحـراثة ومن الحراثة إلى السـواني، فلم تجد وقتاً تستريح فيه، لتتمكن من ولادة حملهـا، وهـو مثـل يصـدق حتى على نساء



الفـلاح في الماضي، فإحداهن تعمل ليل نهار، لا تسـتريح ، فالمرأة كانت استثماراً مربحاً، وربما أن هذا كان أحد أسباب كثرة تعداد الزوجات في بعض البيئات الريفية.

أي بـني !

ماذا يمكنٍ فلاح اليوم أن يقول لو أراد أن يصنع من بيئتـه مثلاً يتناسب معها، مثل فلاح الماضي، ويوحي بالقيام بعدة أعمال عن طريق آلة واحدة؟ لا أظن أن هذا يعسر عليه. تصور حقلاً حديثاً يذهب مدّ البصر، يحتاج إلى حرث وزرع وحصد وتلبين تبن ما يحصد. لا أظن الأمر يحوج إلى تصور بعيد، فالآلة التي تقوم بهذا متوافرة في كثير من الحقول، ولم توجد لأنها أرخص أو أقل مؤونة في المدى الطويل فقط، ولكن لأنها توفـر مكاناً في التخزين أيضاً، فهي آلة واحدة، ولها قطع غيار يركب منها ما حان وقته، فيركّب المحراث على الآلة لتحرث، ثم يزال ليركّب ما يقـوم بالبـذر، ثم ينحى ليركّب ما يقوم بالحصد والتلبين معاً. ما عليك إلا أن تعرف اسم



الشركة الصانعة أو الآلة فتقول مثل آلة كذا تحرث وتبذر وتحصد وتُلَبِّن، وتسوق المثل على ما تريد من حالة ينطبق عليهاَ هذا.

والبقرة في البيت مثلها في المزرعة مهمة، ولا يقتنيهـا إلا الأثرياء، وهم قلة في الماضي. والبقرة سعرها عال، وتغذيتها غالية، وتحتاج إلى مكان أو مكانين، أحدهما مسقوف، والآخر غير مسقوف، فالمسقـوف يستفاد منه في الصيف لها، لتستظل به عن الشمس، وفي الشتاء لتنام فيه في الليل.

ومقابل السعر العالي، والغذاء مرتفع القيمة، فإنّه يأتي منها مردود يستحق ما صرف عليها، وَوُفر لها. فهي تلد وتتكاثر، وهي تعطي حليباً، يصنع منه اللبن، وتستخرج الزبدة، ومن فوائدها ما يأتي منها من سماد، يفرح الفلاح به، ويقبل على تسقط مظانّه في البيوت، ويشتريه، إما بمال أو بمقابل عيني.

وأسـوأ جزء في حيـاة البقرة في الماضي، داخل البيوت هو عندما «تُعطِي» أي تطلب الثور، فخوارها



مزعج، ويأتي متواصلاً، وإذا صادف وبدأت نوبة الخوار في أول الليـل، فأعـان الله أصحـابهـا هم وجيرانهم، فلن يهدأ بالهم، ولن يقر قرارهم، ولن تغمض جفـونهم، حتى الصبـاح. حينئـذ يسارع أصحـابهـا بأخـذها للثور، ولو لم يأخذوها لتبرع جيرانهم بأخذها. وفي كل بلد - يا بني - ثور موقوف «لتَشبيَـةِ» الأبقـار، أي ليلقحها. وغالباً ما يكون ملحقاً بإحدى المزارع، لإمكان تغذيته بما تيسر من غلة المزرعة. والذي سبّله فعل هذا ابتغاء الثواب، وأشهد - يا بني - أن عمله هذا فيه خير كثير، ولو عانيت مرة واحدة من خوار بقرة «مُعطٍ» لوافقتني على ما قلت.

وليس الثـور هو الذكر الوحيد في الحيوانات، الذي يوقف سبيلاً لغرض التلقيح، فهناك التيس، ولعلك قد سمعت في مكه عن «تيس القرارة»، فهو أشهر شخصية حيوانية في مكة شرفها الله، ومكة في المـاضي كانت أسـواقهـا وشـوارعهـا وأزقتهـا تعـج بالأغنام، ولهذا فالتيس له دور مهم في تلقيح هذه



الأغنام. ولهذا التيس، زيادة عن أي تيس، رائحة كريهة، تصرع الطير في أجواء السماء، ولعل الأغنام تشم رائحتـه من الحـارات البعيدة. وسُمّى تيس القرارة لوجوده في «حارة القرارة»، وهو حي معروف مكة.

أبجي

[٦]

وللفلاح القديم مثل آخر يأخذه من بيئته، ينقل فيه بايجازٍ ودقةٍ رأيَه في أحد جوانب الحياة:

« صكّتـــه الجيـــلان[١] »

و «صكّته» أي ضربته بقوة، و «الجيلان» جمع «جـال»، وهو جانب البئر، وإذا وقع شخص في البئر فانه يضربه جانب ثم يسلمه إلى جانب آخر، وهكـذا تتنـاولـه الجيلان حتى يصل إلى قاع البئر مهشماً. وكم وقع هذا لأناس! وهؤلاء الناس إما أن يكـونـوا أرادوا أن يقفـزوا في البئـر فخـانتهم أقـدامهم، فزلت بهم فسقـطوا، فتولتهم جوانب البئـر، أو أن أحـدهم كان يقـوم بخدمة ما لعدة السواني، فزلت قدمه فسقط في البئر.

وهو مثل يضرب لمن تتقاذفه الحياة بعنف، فلا يخرج من أذى إلا إلى أذى، ولا تتركه عسرة إلا إلى أخرى مثلها، ولا يحيف به زمان إلا انتقل منه إلى

---
(١) العبودي ٢/ ٧٣٢ .



حيف زمن آخر. فالمثل وصف دقيق لهذه الحالات، ومنبعه من بيئة الفلاح، وهو صورة صادقة، يعبر تعبيراً دقيقاً مما أخذ منه، ولِما أخذ له.

والمثل يعطي صورة من الماضي قد لا تكون موجودة الآن، وإن وجدت في بعض القرى النائية فهي إلى زوال. تُرى ما هو المثل الذي يمكن أن يبتدعه فلاح اليوم من آلاته التي تُخرج له الماء! والبئر الحديثة لا يرى منها إلا فوهتها الضيقة المستورة. لعله يجد في دوران آلتها، أو في صوتها المكتوم، ما يعبر به عن مصائب الزمان المتوالية. تُرَى هل يقاوم المثل القديم الزمن ويبقى، حتى لو أصبح بالنسبة لأبناء الغد لغزاً إلا لمن يتتبع منهم التراث، والمثل جيء به ليفصح لا ليلغز، فإذا ألغز واسْتَبْهَمَ مات.

وحياة الفلاح في الماضي تعتريها المصائب والنكبات، لأن أغلب الفلاحين يصارف مزرعته عن طريق الدَّين، يأخذه قبل بدء البذر والغرس، ويسدده من حصد المحصول، أو طرح الثمرة.



والـدائن متنبّـه يقظ يتـابـع مراحـل نمـو الـزرع والنبات، فإذا جاء وقت السداد، وقد يكون عينا، أو نسبـة من المحصول، تجده في المزرعة يراقب، ويُثمّن ويقدر، ومنـظره عنـد الفلاح منظر مزعج ومؤلم، فالفلاح لا يستطيع أن يستفيد بأقل القليل من كده وكـدحـه، إلا بعد أن يوفّي الدائن دينه. ويبرز الهمّ بأبشع صورة عندما يقل المحصول عن قيمـة الدَّين، لمرض أصاب الزرع، أو عواصف اجتاحته، أو لسبب عارض طرأ. هذا يجعل الدّين يتضاعف مع السنوات، وقد يضطر هذا الفلاح إلى بيع مزرعته، وقد لا تفي بالمطلوب. فهو من «جال» دائن إلى «جال» دائن آخر. ومن «جال» مصيبة تحلّ بزرعه إلى «جال» مصيبة أخرى.

وهمـومـه أحيـاناً تأتي من أمور غير هذا، وقد لا تبدو في أول الأمر مهمّة، ولكنّها في نهاية الأمر، خاصة إذا أسلمته مصيبة إلى أخرى، تكون كارثة تقضي عليه، قضاء جيلان البئر على من سقط فيها؛ فقد تموت الأبقار أو الجمال، وقد تنضب الآبار على



غير ما هو متوقع. وقد يداهمه سيل جارف، يجتث ما يمر به، ويكتسح ما يأتي في طريقه.

على هذا - يا بني - يأتي المثل صادقاً فيما قيل من أجله.



[٧]

وللفلاح مثل آخر من بيئته، نسجه من محيطه، من شيء يراه كل يوم:

« دخل الذرة[1] »

حقل الذرة من بيئة الفلاح، والذرة نبات يطول، ويمكن للمرء أن يجد فيه ملاذاً ومخبأ، خاصة إذا كان مطارداً. وقد سمعت ـ يا بني ـ أن الجرائم الريفية تكثر في مصر في وقت ارتفاع أقصاب الذرة وسموقها، يكثر أخذ الثأر، والقضاء على المنافسين. وينزل ليلاً من الجبل من كان مختبئاً فيه من المجرمين، ليضرب ضربته في النّهار، منطلقاً من وسط الذّرة، ولا يعود إلى الجبل إلا بعد أن يستره الليل.

أرأيت ـ يا بني ـ كيف يقلب الاجرام وسائل الخير إلى أدوات شر، والشر لا يأتي منه إلا الشر، فالذرة نعمة أنعم الله بها على الفلاح، وعلى من يشتري منه. وفي بعض المناطق الخصبة في بلادنا،

(١) العبودي ٢/ ٥٠٥ .



خاصة في الجنوب تحصد الذرة ثلاث مرات في السنـة، مما يجعلها مبروكة على الفلاح، وتستحق تعبه وتعوض جهده.

والمثل - يا بني - يعني الذّلّة والخوف، والتراجع عن أمر لا يحسن التراجع فيه في أصول الشجاعة، ولكن الحكمة، ووزن الأمور بميزان العقل تحتّمه. يجد من يقدم على «دخول الذرة» أن المكسب من الـتراجـع أوفى من الاقدام على العمل، ومناطحة الخـطر، وأن السلامة في التراجع، فلا تأخذ المرء العزة بالاثم، ولا يدفعه الحماس، فيقدم على عمل ضرره أكـبر من نفعه، ويمكنك أن تتصور النفع والضرر في مثل هذا المثل ومرماه في مثل آخر، مما يجلو الأمر أكثر.

يقول المثل الثاني :

« **الذلّـة بَـهْ طـولة عمـر[1]** »

(أي الخوف والنكوص فيهما اطالة للعمر).

(١) هناك مثل يقول: «من ذلّ سلم»، الألمعي، الأمثال الشعبية في المنـطقـة الجنوبية، ٢٣٨، وفي بعض اللهجات: «من خاف سلم».



أرأيت - يا بني - هو لم يتأخر ويتقهقر إلا ليطول عمره، ولعله يفكر في فرصة أخرى ينقَضُّ فيها على غريمه، فينال مطلوبه، دون أن ينهي حياته هو، أو لعل المكسب يأتي بطريق آخر دون هذه النتيجة. المهم أنه قرر وتأكد أن تقهقره يطيل عمره، وهذا مكسب. ولم يغتر بحماس المحمّسين له، الذين يقفون أمامه في الظل، ويوقفونه في الشمس، وفي العراء، ويكونون - أو بعضهم - من أول الشامتين به عندما يقدم على العمل الظاهر الفائدة، الباطن الضرر، وهؤلاء المحمسون له - ورجلهم في الماء، ورجله في النار - يتلذذون بألمه، وتعرضه للأذى، فإذا انتهت المتعة أداروا ظهورهم له، وتركوه لشقائه، وحينئذ يأتي مثل آخر يقول:

«راحت السّكرة وجات الفَكْرة[1]»

والسّكرة يوجبها الحماس العاطفي، وتطيشها الكلمات الجوفاء العامة، وهي أمور تغطي على

(١) السباعي ٣٥، وفي بعض اللهجات: «... وجت الفكره».



صفاء العقل، مثل ما يغطي الغبار صفاء البلور، وإذا احتجب العقل تساوى الانسان والحيوان، بل قد يكـون الانسان أسوأ تصرفاً من الحيوان، لأن للحيـوان فطرة قويـة، جعلهـا الله فيـه لتحميـه، والانســان هذّب الله فطرتـه بالعقـل، فإذا غاب العقل، ـ والفطرة مضعفة من قبل ـ وقع المحذور.

وعندما تهدأ العاصفة،ـ والغضب عاطفة، وقد قيل فيه ـ:

« **الغضب ريح تهب على سراج العقل فتطفئه** »

ينـدم الانســان ولات حين ندامة، والأسى لا يفيد، وكما يقول مثل آخر:

« **إذا قطعت راسٍ بالجهل وش لون تركبه** »

أي كيـف تعيده إلى مكانه، أي إذا قطعت رأساً دون أن تتحرى أنه يستحق القتل، ودون أن تتثبت مما اتهمتــه أنت أو غيرك به، ثم تبـين لك خطل رأيك، وخطأ فعلك، فما هي الفائدة حينئذ:

« **لقد وقعـت الفـأس بالـرأس** »



ولم يعد بامكانك أن :

« **تعيد عقارب الساعة** »

وأن تعيد الرأس إلى كتفيها، والروح إلى الجسد البارد، فإذا ما عضضت أصبع الندم، أو عضضت اليد كلها، فأنت لا تزيد عن أن تؤكد أن السّكرة راحت، وحلت محلها الفكرة، مع الألم والحسرة.

لهذا ـ يا بني ـ أمر الدّينُ الغاضبَ أن يقوم فيتوضأ، قبل أن ينساق وراء غضبه، والوضوءُ شافٍ ومُجرَّب، فأنت بقيامك وبوضوئك عزلت الغضب عَزْلاً تامّاً، وركنته في ركن قصي، وسلسلته بسلاسل من فولاذ، وربطته برباط متين، وحبسته في ركن مكين، وأول خطوة اتخذتها عندما فكرت في اتباع الدِّين، هي انصراف من الدنيا إلى الدِّين، وهي خطوة تباركها النية، ويُرْبِيها حسن القصد، ثم أشركت جوارحك فيما عزمت عليه، وهذا يساعد الذهن على الانصراف عن التفكير فيما هو فيه إلى خدمة هذه الجوارح، وما ستقوم به من



عمل، ثم ابتدأت القسم الثاني، وهو أهم الأقسام حتى الآن، فأنت تبدأ ملامسة الماء الذي يطفىء النار، ثم تعممه على الأجزاء المهمة من الجسم، فما تنتهي إلا وقد تخلصت من سورة الغضب، وثورة المكابرة، وتغلبت على نفسك، لأن الماء جاء عليك ببرد وسلام، وأنزل بك الهدوء والسكينة، فإذا وفقك الله بعد هذا، وزدت فصليت ركعتين، فقد تعود إلى خصمك، ولا تكتفي بمسامحته، وإنما تحسن إليه، فتكسب دينا ودنيا، في الدرجات العليا منهما. هل سمعت بدواء يعفيك من المرض، ويجلب لك العافية، ويريك طريق الجنة؟ هذا هو الدواء لمثل هذا الداء.

ولهذا فلا عجب ـ يا بني ـ أن يكون في أذهانهم، وعلى ألسنتهم حديث عن الخوف، وبشاعته، وما يكمن وراءه من رعب، مبني على صور ضياع الأموال والأنفس، وحديث عن الحياة وطولها، والرغبة في إبقائها بأي طريق، حتى لو كان بطريق لا يرفع شأن صاحبه، حتى لو كان طلب الحياة عن

طريق الذلّة والخنوع، فألمها مؤقت، ولا تعدم أن تجد عاذراً، أو من سبق أن أحرقت يده نار الشجاعة التي في غير محلها، أما الموت فهو فقد لأمر غَالٍ، وهو ليس فقداً مؤقتاً، يعود المرء منه بعد أن تتغير الأحوال.

هذه هي رسالة الأمثال ـ يا بني ـ تعطيك في عدم قولها، وفي ما صمتت عنه أكثر مما قالته في كلماتها وفي نطقها. عليك أن تلبس، عندما تسمع مثلاً من هذه الأمثال، ثياب الغوص، وتنزل إلى الأعماق، وتجوب بحارها يمنة ويسرة، حتى تعرف مالا يحيط به إلا الملحّ المصمم المتتبع.

والمثل: «دخل الذرة» يقال في الأمر العظيم، وفي الأمر الحقير، يقال عن قائد تقاعس عن الهجوم، أو تاجر تراجع عن صفقة تجارية، أو جار نكس عن معاقبة جار على أمر لم يرتضه، أو أب لتلميذ كان ينوي محاسبة المدرسة عن شيء يخص ابنه، وجد أن المكسب ألا يفعل، أو أي شخص أقدم على عمل، وتراجع عنه لحكمة، أو خوفاً منه،

ومن عواقبه، فنكص، وآثر أن يتراجع، ويصبر على الملامة في عودته عما صرح بالاقدام عليه. وقد يقال في هزل بين اثنين، كأن يطلب أحدهما من الثاني أن يقبل الرّهان، فلا يقبل بعد أن بدا منه عزم على ذلك. وبهذا يتّهم بأنه دخل الذّرة.

والخوف أو الذلة في زمن مضى - يا بني - لم يكن غريباً على مجتمع اتّسم بالحروب والغزوات والغارات والنهب والسلب والاعتداء على الحقوق. والفئات فيه يتراوح عددها من كبير أو صغير، وفي مواقع تحصينها أو عدمه. فهذا قوي، وهذا ضعيف، وهذا له عصبة، وهذا ليس له نصير، فيجور هذا، ويجار على هذا.



[٨]

ومن الأمثال المستقاة من بيئة الفلاح، أو هو أقرب إليها:

«دلو ماء ودلو طين[1]»

مثل من البيئة القديمة للفلاح، ويتصل بناحية من النواحي المهمة في حياته، وهي البئر والدلاء، وما يخرج من البئر من ماء، وما قد يخالطه من طين، إذا كانت البئر في أول بدء خروج الماء منها، وهي تحفر، أو إذا انسكب فيها السيل المتجمع، أو تعرض «طيها» لانهيار، أو لأي سبب عارض تسبب في نزول الطين فيها.

وهو مثل لمن يأتي منه الطيب والقبيح، أو يتوقع منه الحسن والرديء، ففلان ـ مثلاً ـ يتحدث، وفي بعض كلامه رزانة، وفي بعضه خفّة وعجلة، أو يخلط الصّدق بالكذب، أو يساعد ويعرقل، أو يعطي حيناً ويمنّ ويبخل حيناً آخر، أو يقبل

---

(١) العبودي ٢/ ٥١٦.

أحيـاناً، ويدبر أحياناً أخرى. هذا يوصف عمله بأنه دلو ماء ودلو طين(١).

وفي هذه الحيـاة - يا بني - سوف تقـابـل أناساً كثـيرين تتـذكـر عنـد تصرفهم هذا المثل، ومدى انطباقه على أفعالهم، بل أن الحياة نفسها دلو ماء ودلو طين، تقبل أحياناً وتدبر أحياناً، تعطي وقتاً وتمنـــع آخـر، تبتسم مرة وتعبس أخـرى، تشرق شمسهـا على شخص ثم تغيب عنـه، وقـد تعـود فتشرق، وقد تشرق وتغرب عدة مرات في حياة شخص.

والمثل يعطي صورة قديمة لم يبق للجيل الحالي منها إلا تصورها، فقليل منهم سوف يرى دلو ماء ودلو طين حقيقي، فالصورة أصبحت نادرة، لا ترى إلا في حفـر الآبـار الآليـة العميقة، وهذه سوف لا يُرى فيهـا دلـو، وإنما انبوب يصب ماء مختلطاً

(١) هنـاك مقـالات لي ظهـرت في جريـدة الـرياض تباعاً عام ١٣٩٠هـ تحت عنوان «دلو ماء ودلو طين»، طبعت في كتاب عنوانه: «من حطب الليل»، طبعة ١٣٩٨هـ. وتكوّن الجزء الأخير منه.



بالـطين، ورؤيتهم لهذه وأمثالها ليست من الكثرة بحيث تمكنهم أن ينحتـوا منها مثلاً، يكون صورة أدبية لما يريدون أن يعبروا عنه. من يعرف ! فقد يأتي من يستقي من صوتٍ الآلة ما يدل على الشيء وخـلافه كأن يقول مثلاً : مثل ما طور الماء الذي يقطّع ، بمعنى أنه يعمل ثم يفصل للحظة قصيرة، وهو عيب مثل الماء إذا تلاه طين.

لا شك أن ما يرمي إليه المثل أمر يلمسه الناس في حياتهم، فالحياة، والناس مثلها، لا تثبت على حال، وظـروفها متنوعة، تجعل ثباتها غير ممكن، والناس فيها دائرون، وبها متأثرون، يزاد على هذا أن الناس ليسوا على وتيرة واحدة في تصرفاتهم، فهم عرضة للتقلب، نتيجة لما يمر بهم في حياتهم، أو ما تمليه عليه طبيعتهم، وما ورثوه من خلق وصفات.

ولا أظن أن جيلاً من الأجيـال يخلو من صـورة التغير، ولعل الناس في أزمان مختلفة عبروا عن هذا تعبـيرات رسمت فكرهم ومحيطهم فيما نطقوا به، وأجدادنا قالوا هذا المثل، ومادته من محيطهم، ومما



يراه كل واحد منهم، مفيداً للتعبير عمن يأتي منه الشيء وضده، والأمر ونقيضه. فان رأيت يوما منظراً لبئر في مكان ما، ينزح ماؤها، فيخرج منه مرة ماء، ومرة طين، فتذكر بعض من تعرفه ممن كلامه «مخادش»، أي متعرج، يذهب يميناً ثم يساراً ! .



[٩]

« الذيب بالقليب[1] »

وهو مثل يقال للتنبية بأن الأمر على خلاف ما ظن السامع، أو على غير ما يظن. ومعنى هذا أن الأمر اختلف إلى غير ما يحب المخاطَب، أو يتوقع، أو أن هناك مفاجأة لم تكن في الحسبان، هي غير ما كان سيحدث من تصرف منتظر. وقد يكون المثل للتحذير، وما يقتضيه الموقف من عدم السير في خطة كانت موضوعة، لأنه طرأ ما يجعلها تخفق لو سير في الأمر.

وإذا كانت البئر ـ وهي مصدر حياة الفلاح بما فيها من ماء ـ خاصة إذا جَمَّتْ، وجمعت ما يحتاجه لزراعته، قد أضيف إليها ما يعكر صفوها، وينقص فائدتها، وهو وجود حيوان متوحش فيها خطير، مثل الذئب، فالأمر يحتاج إلى اتخاذ خطوات غير عادية، فبدلاً من تحريك السواني، وإدلاء

(١) العبودي ٢/ ٥٥٠ .

الـدلاء، ينصرف الفـلاح، ومن يأتي لمسـاعدته، للقضاء على هذا الحادث المفاجىء، فتخرج البنادق من مكـامنهـا، ويلعلع صوتهـا في وسط الليـل أو آخـره، فيقضي على سكـونـه، ويقضّ مضـاجـع الانسان والحيوان، يفزع هذا، ويجفل هذا، وتطير العصافير من البئر قبل الأوان. أما الفلاح، وأمثاله من جيرانه فهذا الأمر ليس غريباً عليهم، وإن كان الـرمي يلفت نظر من لم يعلم ولم يشارك، ويجلب الفضـوليـين، وسرعـان ما يصبـح الأمـر حديث المجالس، فيروى بطرق متعددة، وبصورة مختلفة، فيها المغالَى فيه، وفيها الموسع، وفيها المنمق والمزاد، وقد تدخل الخرافة في وصف حجم الذئب، أو في مقاومته، أو في شجاعة المتصدين له، أو في طريقة القضـاء عليه. انه حدث عظيم حرك ساكن هذا المجتمـع الـرتيب في أعـماله، المستقر في أحواله، فالمرأة وجدت فيه مادة للحديث، والرجال وجدوه مدداً لسمـرهم، والأطفـال جاءهم من حيث لم يحتسبوا، فلعب خيالهم فيه ما شاء له أن يلعب،

وحتى يأتي بديل لهذا يحلّ محلّه، أو يبهت أثره، فهو شغل الجميع الشاغل.

والذئب عادة يحوف المزارع غير المسورة، أو التي سورها قصير، أو فيه «منقز» أو منفذ، وجُد فيه أصلاً، أو جاء بفعل الزمن، أو أحدثه السيل، أو وجد لهدف مؤقت، فيأتي الذئب ليأكل ما تطرّف من الحيوان، أو ليشرب، خاصة في الصيف، حيث الحرّ شديد، ولا ربيع، ولا أغنام تملأ الصحاري، وقد لا يكون من الحذر بحيث يتفادى الوقوع في البئر فملاسة الأحجار، وصعوبة الوصول إلى مناقع الماء في «لزا» البئر، وهو المكان الذي تصب فيه «الغروب»، وهي دلاء السواني، تكون سبباً في وقوعه في البئر[1]. وفي هذه الحال غالباً ما تكون حركته غير العادية في البئر مما ينبه الفلاح عندما يأتي

(١) ترى لو كانت عيونه بسعت الثور، هل كان يقع في البئر: هناك مثل في الجنوب يقول:
«قال: شانك الثور لا يطيح في البير. قال: عيونه أكبر من عيوني». الألمعي ١٦٧.

ليبدأ يومه، إما بالوضوء للصلاة، أو للاعداد لبدء السواني لمتح الماء كالمعتاد عند إقبال يوم جديد، أو عندما يأتي في الليل لتفقد بعض أمور الزراعة.

ومن الصور التي تحدث أحياناً أن يقترب الذئب من حظيرة الحيوانات فتجفل منه، فتحدث حركة وضوضاءً، فينهق الحمار، ويصيح الديك، ويكأكىء الدجاج، وتنبح الكلاب، فيفزع من في المزرعة يطاردونه، ويضيع عليه المخرج، فيأخذ يمينا ويساراً، وحيثما اتجه يجد نفسه مقابلاً لمطارد، فيحدونه على البئر، فيقع في الفخ، وتضيّق عليه المطارة، فإن سلم من رصاص البنادق،لم يسلم من الوقوع في البئر، ثم ينتهي أمره هناك.

يموت الذئب من جراء سقطته في البئر، أو يقتله رصاص مطارديْه. وإذا لم يكن ماء البئر غزيراً فسيصبغ دمه البئر وينجسه، فيتحرج بعض الناس من الاستفادة من ماء البئر يوماً أو يومين إلى أن ينزح الماء ويطهر، ولكن نادراً ما يكون الماء قليلاً فيتأثر، لأنه في الغالب يكون الماء طوال الليل قد جم



وكثـر، فلا يؤثـر دم الذئب فيه، فلا يكون هناك مشكلة، وينتهي الأمر بذكرى تتردد في المجتمع كما قلنا حتى تبهت، ويغطي على هذه الحادثة غيرُها مما هو أجدّ منها، ولا يحييها في الذهن، وفي المجالس، إلا حدوث مثلها في هذه البئر، أو في بئر أخرى في تلك الناحية.

والذي يجعل الذئب - يا بني - متواجداً في هذا الجـوار - إضافة إلى ما ذكرته لك - أنه يعيش غير بعيـد، لأن المزارع على أطراف المدن أو القرى، وليس هنـاك سيـارات وضجيـج، وطـرق عامـرة بالآلات ذاهبـة آيبة، كما هي اليوم. الذئاب اليوم ابتعـدت - يا بني - لأن وسـائـل المـدنيّة الحـديثة أزعجتهـا ولاحقتها، أين سرعة الذئب من سرعة السيـارة الجيب، وأين يفر الذئب من رصاصة أُمّ خمس، أو أُمّ غيرها مما جد من السلاح. تجده الآن بعيــداً عن المـدن في الجبـال، حيث يجد المـأوى والمخبأ، وحيث يجد ماء متجمعاً في ملاقف الجبال وقللها. تنبّه إذا وجدت جبلاً منعزلاً بعيداً، وفيه



غار مهجور، فقد يكون الذئب يقضي قيلولته فيه، كما كنت تريد أن تقضي قيلولتك، وتنبّه إلى ملاوذ «العرمة» قرب مدينة الرياض، ففيها ذئاب شرسة، وضباع مثلها.



[١٠]

ونأتي إلى مثل للمزارع أيضاً يقول :

« عشـان الـورد ينسـقي العلّيـق(١) »

العليق نبات متطفل، يسمى في نجد «الخرمة» أو «الخرماء»، ينبت شيطانياً ـ كما يقول العامة ـ بين النّبـات، يتسلق عليـه، ويلتف حوله. يأكل خير الأرض، ويشارك النبات ماءه وغذاءه، ولا يستفيد منـه الحيـوان الفـائـدة الكاملة، فرغم أنه يأكله، ويقبل عليه، إلا أنه ليس بالكثرة التي تفيده. وقد يفيد العليق النبات فائدة محدودة عندما يلتف حول ساقِهِ، فيحميـه من حرارة الجو، ومن شدة البرد، ولكن الفلاح الذي زرع الورد، والماء عنده قليل، لا يريـد أن يصرف جزءاً منـه على ما لا يفيـد، ولا يريـد أن تضيع قوة الأرض في نبات متطفل، خيره وما فيه من مردود أقل من خير الورد كثيراً.

لهذا جاء المثـل وفيـه رائحـة الحسرة لمن يكـرم

(١) السباعي ٥٣ .



شخصاً لا يستحق الاكرام من أجل آخر يستحق ذلـك، ويقدم على عمل لا يرضاه، لأنه يقف في الطريق إلى أمر يرضاه. والحياة مليئة بالمواقف التي يقـدم عليهـا الانسـان لأنها الوسيلة لأمر آخر هو الهدف، فيتحمل المرء من أجلها ما يجرعه المر أحياناً.

وهذا المثل مأخوذ ـ كما نرى ـ من بيئة الفلاح، ويعتمـد على خمسـة عناصر، منها نباتان، وعنصر ثالث، والعنصر الثالث هو «التربة» التى لا يراد لها أن تستهلك بما لا يفيد. و «عنصر رابع» هو «الماء» الـذي لا يراد له أن يضاع فيما لا يفيد. والعنصر الخامس الذي يبذله المزارع هو الجهد. وهذا المثل يعكس ما كانت عليه حياة الفلاح من رقة، نتيجة لضعف امكاناته، وبدائية آلاته، وما يقتضيه ذلك من جهد في سبيل استخراج رزقه بها وعن طريقها.

أمـا جهـد الفـلاح وأمر العليق اليوم فلم يعد مشكلة، لأن البئر آلية، وعميقة «ارتوازية»، تخرج



له من الماء ما يكفيه بمجهود أقل، وبمال أكثر، ولا عليه إلا إعمال آلة رفع الماء التي تعمل على الكهرباء أو الوقود، ولها مهندس يقوم بصيانتها، ويدعى لها عند الحاجة، والمزارع بامكاناته الجيدة يستطيع أن يوفر هذا، وعنده في الغالب اما بئر احتياطية، أو خزان احتياطي. أما العليق وأمثاله من النبات الطفيلي، فلدى المزارع له من المواد الكيماوية ما يقضي عليه، ويريحه من همه.

أما فلاح الأمس فليس لديه شيء من هذه الأمور المريحة، فحفر البئر جهاد، وطي جوانبها عناء، وعدة السواني قاصمة الظهر، ودواب السواني تأكل ما وراءه وما دونه، وقد يكون حصل عليها بالدّين - وهذا هو الغالب - وصيانة عدة السواني لا تنقطع، فهي عمل متواصل. وحيوان السواني عرضة للتعب، والاجهاد، والمرض، والموت.

لهذا قفز إلى ذهن الفلاح ما يعانيه من ذاك النبات المتطفل الذي يسرق منه بعض جهده وهو يرى، ولا يستطيع أن يعترض، بل يستسلم طائعاً



مختاراً، ثم يتنفس هذا المثل الحكيم، الذي سوف يتخلل العصور منحدراً إلينا، ومنا إلى أبنائنا، حتى يأتي غيره ليحل محله، أو يغلبه مثل آخر وهو قريب منه. وقد يسير على قضيب قطار متجه وجهة مختلفة بعض الشيء، وإن كانا في النهاية يلتقيان: ألم يسق العليق لأجل عين الورد؟

والمثل الذي ليس بعيداً عنا هو المثل الذي يقول:

« لأجل عين تكرم مدينة[1] »

وهو مثل معبّر عما قيل من أجله، وهذا مثل يتفق في مؤداه مع المثل السابق، ويزيد في أن المراعَى صغير بالنسبة لمن أعطي الرعاية لأجله، وهذا المثل أقرب إلى ألسنة الناس، يعبرون به عن المواقف التي تمر بهم عما يقتضي قوله.

وإذا كان المثل الأول يمثل الفلاح، ومأخوذ من محيطه وهي المزرعة، فهذا المثل يمثل ساكن المدينة،

(١) هناك مثل يقول: «في حب عين تكرم ميّه»، الألمعي ١٦٢.



وغُرفَ المثل من نبعها. وهناك عُنْصرَا المثلِ جمادٌ، أما عنصراه هنا فليسا كذلك. وكم لعب الحبَ دوراً في هذا المثل. وتحمّل المحب لأجل عين حبيبته أنواع المشاق والمضايقات. ولولا أن الحب ـ يا بني ـ طاغية لا يفرق بين فقير وغني، وبين شقيّ وخليّ، لقلنا إن الفلاح ليس عنده وقت للحب والعشق والغرام، لأن وقته يأخذ بناصيته طوال الوقت، فلا يدع له فرصة لأن يبحث عما يهواه قلبه، وإن ابن المدينة أقرب إلى الوقوع في شرك العيون، ومراعاتها، ولكنا لا نستطيع أن نجزم أن هذه هي القاعدة، ولكن ما نستطيع أن نؤكده كما رأيت، أن كل مثل جاء بذهن صاحبه، مأخوذ من بيئته، لأنه أقرب له من غيره.

والعليق لا يمر بالذهن دون أن يفكرنا ببعض الناس الذين لا يستطيعون أن يعتمدوا على أنفسهم، أو ينفردوا بها دون أن يرتكزوا في نفعها إلى أحد، وهؤلاء ـ يا بني ـ كثير، وأنت ترثي



لحالهم، لأنهم مثل الذي وضع نفسه في الرق مختاراً طائعاً. ولعل للتربية ـ يا بني ـ دخل في هذا، فالوالدان يحتاجان إلى أن يتنبها لمثل هذا الأمر، ويعودا ابنهما الاعتماد على النفس من الصغر. وقد يحتاج الأمر إلى إعطاء الطفل القياد في التصرف، ومراقبته عن بعد، حتى لا يحدث له ضرر من جراء زيادة الثقة بالنفس قبل النضج اللازم لمثل هذه المرحلة. وتعويد الطفل الثقة بالنفس تجعله أكثر نفعاً لمجتمعه عندما يكبر، لأنه يصبح من أصحاب الأولويات. يكون بادئاً للشيء، لا تابعاً فيه. وتجعله يأخذ وحي الثقة والاقدام من اقراره في داخل نفسه، وفي قرارتها، بما يتصف به من ميزات، ولا يحتقر ما قد يكون الله حباه به، مما حرم منه غيره، فيستفيد مما فيه من صفات، مهما قلّت، أتم استفادة، ويستغلها أكمل استغلال.

أما مَنْ عَدِم الثقة بنفسه، وأصبح ذيلاً لمن هو أقوى منه شخصية، فإنه يُضيع على نفسه شيئاً كثيراً. فإذا كان الله قد أعطاه بالوراثة أو الدراسة



صفة يفوق بها غيره، فإنها تصبح كالتبر في الترب، لا فائدة منها، وقد تضمحل مع الزمن، فلا يناله إلا الحسرة.

[١١]

هنـاك مثـل جميـل، يكثر ترداده، لكثرة وقوع الحالات التي يحتاج الناس فيها إلى المثل، فإذا تأخر انســان عن موعد الأكل، وجاء إلى مكان المائدة، ووقف مشدوهاً، يسائل نفسه هل انتهى الناس من الأكل، أو لم يبدؤا بعد، يقول له الحاضرون :

« طـارت الطيـور بـأرزاقهـا[1] »

وإذا جاء طالب التسجيل في مدرسة ما، أو كلية ما، ووجد باب القبول قد قفل، فيمكن أن يقول له طالب آخر ممن حصلٍ على رزقه وسجل : طارت الـطيور بأرزاقها . وإذاً هو مثل يُعبّر عن أن المرء تأخر عما كان يجب عليه أن يبادر في حضوره أو اقتنائه .

وهــو مثـل من بيئـة الفـلاح، فالـطيـور تأتي «فروقا»، وتقع على مرزقها، وبسرعة تلتقط الحب أو غيره، ثم تطير ومعهـا رزقها، فلا تُبقى لغيرها

(١) العبودي ٢/ ٧٦٤ .



شيئاً، والذين راقبوا مزارع الحبوب، خاصة بعد الحصاد، عندما تتساقط حبيبات القمح أو الذرة أو الشعير أو الدخن، أو بعد حراثة الأرض وقلبها، يرون كيف تأتي الطيور دفعة واحدة، فتقع وتلتقط ما تجد بسرعة، ثم تنهض. وهذا منظر يتكرر، واعتاد الفلاح على رؤيته وتوقعه. ولا تكتمل مناظر المزرعة بدونه.

ومنظر الطير هذا يمثل مصدراً ثرا للفلاح يستقي منه أمثاله، فلا يكفيه هذا، وإنما يأتي بآخر فيقول:

« الطيور على أشباهها تقع[1] »

أو يقول:

« فلان مثل الكحالي والأمّية[2] »

والكحالي هو ذكر العصفور والأمّية هي أنثاه،

---

(١) هذا مثل عربي فصيح، والاستشهاد به كثير.

(٢) هناك بيت عامي يتمثل به في تغيّر الحال في المجتمع الجديد، يرد فيه لَفْظَا الكحالي والأمية:

دِنيـاً على كلِّ الخـلايـق قِلّبيّـه
حِتَّى الإميّـه يشتكى منها الكحالي



وتعرف إن كنت فلاحاً أو متصلاً بالمزارع، أو من الـذين راقبـوا حركـة العصفـور في بيـوت الطين القديمة ما يدل عليه المثل.

ولهـذا المثل قصة: يقولون إن الكحالي أناني، ويحب نفسه كثيراً، وفي الصيف، عندما يشتد الحر، يخدع «الأمّية»، ويقول لها عند النوم بالليل: ادخلي داخـــل العش حتى أحميـك من الهـوام الـطوافـة الخـطرة، وهـو يريد أن يتمتع ببرودة الجو خارج العش، ويدعها تنصلي بحرارة بيتها في الداخل.

وفي الشتاء عندما يشتد البرد يقول لها عند النوم في الليـل: دعيني أدخل في داخل العش، لأن الهوام تلجـأ إلى الـداخل طلباً للدفـء، فلو وجدَتْك في الداخل لالهبتك بلدغها ولسعها، فاجعليني أتحمل هذا عنك، وأبقَيْ أنت خارج العش الذي لا يريده أحد من الهوام في الشتاء.

ويقول مثل آخر صادق:

« ما طـار طـير وارتفـع إلا كمـا طـار وقـع »



وهكـذا تُستَقى أمثال ـ ذات مناح مختلفة ـ من الطيور، وأكلها، وحركتها.

ومثل آخـر يقول :

« **طـير باليـد ولا عشـرة فـوق الشـجرة**[1] »

وهو يحمل حكمة بالغة، ولهذا فهو عالمي، تقرؤه في كل لغة.

ولـو تمّعنت ـ يا بني ـ في بعض هذه الأمثـال لوجـدت أنها تحمـل العـظة، وعصـارة التجربة، ووجـدت أنها درس كامـل لمن أصغى، وطَلَبَ الحكمة والمنفعة والفائدة.

خذ مثلاً ـ يا بني ـ قول: الطيور على أشباهها تقع. قلّ أن تجد طيراً من الطيور مع غير جنسه، وهـذا أمر يتماشى مع قوانين الطبيعة التي أوجدها الله، لتنـظِيم بقاء هذا الكون، ولتضمن عمرانه. فالتماثل يؤكد الحماية والاطمئنان على الرزق، وعلى

(١) «جراده في اليد، ولا عشره طائرَه»، السباعي ٢٥.
«جراده في يدي ولا عشر نوافر»، الألمعي ٥٩.

الحياة. وليس هذا في الطيور فقط، ولكنّه في الناس أيضاً[1]، وفي الحيوانات، فتجد كل جنس يلتئم مع جنسه، وينجذب إليه، وكما قيل «شبيه الشيء، منجذب إليه». فالكبار مع الكبار والصغار مع الصغار من الناس، والتجار مع التجار، والمزارعون مع المزارعين، أما الحيوانات - يا بني - فما عليك إلا أن تفتح التلفزيون وترى بعض «الأفلام» التي تُرى مظاهر الطبيعة. خذ مثلاً أفريقيا، وما يُعرضُ عنها من «أفلام»، تجد الغزلان مع الغزلان، والمها مع المها، والأسود مع الأسود، والفيلة مع الفيلة، ووحيد القرن مع وحيد القرن، والضباع مع الضباع، والذئاب مع الذئاب، وابن آوى مع ابن آوى، والزراف مع الزراف وهكذا.

وهذا المنحى من التفكير أعطى اهتماماً خاصاً بالانسان، لأنه أكرم من على وجه الأرض، واستفاد من هذا الاتجاه في التحزب والتجمع، وأقرب ما

(١) يقول المثل: يا اللي زينا تعالوا عندنا». السباعي ٩٩، و «كل سن يضحك لسنه»، الألمعي ١٧٧.



يمكن أن أذكره لك القول الذي يتردد على الألسنة :

« كل قرين بالمقارن يقتدي »

وهو مثل صادق .

وخذ المثل الثاني الذي مرّ بنا ، إنه يمثل الحياة وطبيعتها ، فكل طائر يطير، ويرتفع في الهواء ، لابد له أن ينزل . وهذا مثل صادق في كل أمور الحياة ؛ ما اعتلى بنيان إلا انهدم، ولا سمقت شجرة إلا ذوت في يوم من الأيام ، ولا اعتلى إنسان إلا نزل ولو بالموت ، وانتهاءِ مدة حياته ، فهو مثل جازم، لا يحتمل الاستثناء . ومن قاله قاله عن بديهة يعرفها كل أحد . وقد تقول إن هذا القول من السهل الممتنع . وهو يقال أحياناً للعظة والتنبيه إلى أمر قد يكون قارب أن يجعل صاحبه المرتفع مغتراً ، فالمثل يذكره بما قد يكون غائباً عن ذهنه .

[١٣]

ومن بيئة الفلاح يأتي المثل :

« مبذور على غير نجم[١] »

ويضرب للشيء يأتي بأقل من النتيجة المطلوبة، أو لا يأتي بنتيجة أبداً، ومعروف أن للغرس وقتاً معيناً، وللبذر وقتاً. بل إن لكل نوع من الشجر وقتاً للغرس، ولكل نوع من الحبوب وقتاً. والأوقات عند المزارعين في الماضي تحدد بالنجوم. فهي الأداة الدقيقة التي لا تخلف. ويحرص الفلاح أن يكون زرعه أو غرسه في الوقت الملائم لهذا الزرع أو ذاك الغرس، وإلا فإنه يموت، إن كان غرساً، أو لا ينبت إن كان زرعاً، أو قد ينبت الغرس أو الزرع «حاسراً» كسيحاً، ويأتي نموه غير طبيعي، ويصبح مثل الانسان المريض[٢].

ورغم أن الفلاح يعرف هذا، فقد يجازف لسبب

(١) الجهيمان ٧/ ٢٥٩ .

(٢) لعل المثل الآتي يشارك في المعنى: «أحسن البدع، يكفيك شر المردود»، الألمعي ١٩ .



أو آخـر، كأن يكـون الفـرق في الـوقت قصيراً، فيضــطر إلى الغــرس في غير الـوقت، أو البـذر متـأخراً، مؤملاً أن الفرق في المدة لن يؤثر كثيراً، ولكنه بالتجربة يجد أنه بهذا يغالط نفسه، وأن عليه أن يحافظ على نجم كلٍ زرع، ويبقى أن ندعو له أن يكون من يديّنه جاهزاً وقت طلوع النجم.

وقـد لا تكـون آفـة الزراعة أو الغرس في غيرٍ الوقت في ضعفه أو عدم طلوعه، ولكن في أن جزءاً من نموه يأتي في غير وقته، فيكون عرضة للعوامل الطبيعية، كأن يأتي التزهير وقت الأمطار أو وقت موسم هبوب الرياح، فيسقط الزهر، ويضيع جزء كبير منه، يفقده الفلاح ويخسره، هذا إذا لم يسقط كله. وقد تشتد الشمس لدخول الصيف في وقتٍ الزرع أو الغرس في حاجة إلى جو معتدل إن لم يكن يميل إلى البرودة. هذا التصور في حد ذاته يفزع الفلاح، ولهذا فهو يحاذره ما أمكنه ذلك.

مثل هذا الأمر يوجد عند الفلاح ملكة متميزة تسـاعده على دقة تنظيم أعماله وحياته، وتؤثر على

تفكيره فتجعله سلبياً منظماً. فينظر إلى الأمور كلها بهذا المنظار، فينطبق عليه في أموره جميعاً النصيحة الثمينة التي تقال لكل من يراد له الخير، وأنت منهم ـ يا بني ـ «لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد». لأنه لا أحد يضمن الغد أبدا، فهو في يد الله سبحانه وتعالى. قد يموت الانسان، وقد يمرض، وقد يعوقه عائق.

والحمد لله ـ يا بني ـ أنك رأيت بعينك، ومررت بتجربة تجعلك تؤمن بهذا القول، فطالما نصحتك بأن تنهي واجباتك بعد انتهاء دروس يوم الأربعاء، وأن تستغل يوم الخميس لاكمالها، وللمذاكرة بدلا من الراحة بقية يوم الأربعاء، وطوال يوم الخميس، اعتماداً على أن تقوم بالواجب وحله والمذاكرة يوم الجمعة. وقد أصبت بزكام يوم الجمعة أكثر من مرة، وأدركت أن كلامي صحيح. ومع هذا تجاذبك نفسك، والنفس أمارة بالسوء، فتؤخر عملك إلى يوم الجمعة، وأرجو أن يستر الله عليك، فلا تصاب بزكام مرة أخرى.



والفلاح ـ يا بني ـ يسعده أن يكون كل أمر يتم في وقته، إلا أن الأمر ليس دائماً في يده، وليس هو سيد نفسه في كل أمر يخصه، فالجو أحياناً يحكمه حكماً قاسياً، والدائن أحياناً يحكمه حكماً أقسى. وقد يقف في طريق رغبته في تنفيذ أمرٍ ظرفٌ يجعله يطأطىء رأسه، ويستسلم، وليس له أن يقول إلا حسبي الله ونعم الوكيل.

والطقس في يد الله وحده يصرفه كيف يشاء، وما على الفلاح إلا أن يلائم بين رغبته وطبيعة الجو، ويوائم بين ظرفه، وما عليه بيئته. ويحتال أحياناً. ألا تراه يحصد ثمرة «القوطة» «الطماطم» «البندورة» «البدنجان الأحمر» قبل الوقت، ويدفنها في صفة التبن، لتحمرّ بالتدريج، حتى يستطيع أن يبيعها في الشتاء حين تقل المنافسة بثمن أغلى. و «أجدّ» من هذا و «أحدث» البيوت المحمية، أو البيوت الزجاجية، التي تسمح له أن يكيّفها بالجو الذي يريده، ويزرع فيها من الخضروات والفواكه ما



يشاء في أي وقت يشاء، لا يعنيه من الجو خارجها أمر، ولا يشغل ذهنه شاغل.

ولكن هذا فلاح اليوم، وليس فلاح أمس المسكين. وإذا تركنا الجو جانباً، ونظرنا للدائن فهو من الذكاء بحيث يستغل قدرته، وضعف الفلاح، فيساوم مساومة كلها في صالحه، وليس للفلاح إلا أن يخضع، وقد يجفل من مبلغ ربح «المداينة»، ويتردد، ويؤمل أن يكون تردده سبباً في لين الدائن. وقد يلجأ إلى التلميح بأنه سوف يبحث عن دائن آخر، ولكن الدائن الأول يعرف السوق جيداً، ومن فيه، ويعرف جيداً الدائنين الآخرين، وأنهم مثله، فهو مطمئن أن فلاحه سوف يعود إليه، والدائن يردد داخل نفسه المثل الذي يقول:

« درب الكلب على الجزار[1] »

أحياناً هذه المناورة، وهذا الرواح والمجيء، والأخذ والعطاء في الشروط، وفي مقدار الربح،

(١) «طريق الكلب على الجزار»، الألمعي ١٣٥ .



يجعـل وقت البذر المحدد يمرّ، فلا يحظى المزارع بأخـذ الـدين إلا بعـد أن يمـر الوقت، فيجازف ويزرع في غير نجمِ ذلك الزرعِ ، ويحل به المحذور.

وقـد يأتي سيل عظيم، أو برد قارس، فيؤجل الفلاح بذر زرعه، أملاً في أن يكون ضرر التأخير أقـل مما لو زرع الآن، والعـائق القـائم أمـامه بالمـرصـاد. وعـوامـل الطبيعة، وإن أمكن التنبؤ ببعضها لظهور بوادره، إلا أن هذا غير مضمون، ولا يمكن الاعتـماد عليه، والمجازفة في هذا كبيرة بالنسبـة لهذا المسكـين، الذي وراءه أفواه مفتوحة جوعى، ودائنون يسيرون خلفه بأسواط.

وللفلاح مصدر همّ آخر، إذ قد لا يكون الفلاح صاحب أرض، فيـذهب يبحث عن أرض بكـر، مُراحةٍ، ليزرع فيها في موسم من المواسم، فيجد المنافسة تشحذ سكين الأسعار، ويجد الدَّلاَل والتردد من صاحب الأرض، والـذي قد يكـون صاحب



أراضٍ ، فلا يهمه أَجَّر أرضه لهذا الموسم ، أو تركها تشمس ، لتكون مرغوبة أكثر في موسم قادم ، وليس رزق أهله وأولاده ونفسه فيها ، حتى يتكالب على تأجيرها أو بيعها .

ومنظر الفلاح يثير على العموم في نفس الدائن رغبة جامحة من الجشع والطمع ، لأنه منظر ضحية رأت السكين تسنّ ، والمدية تشحذ ، فأتت طائعة لتذبح ، ويسلخ جلدها . ألا يذكرك هذا ـ يا بني ـ بالمثل الذي يقول :

« يبحث عن حتفه بظلفه »

ولكنه بحث عن حتف مخفف ـ هذا إذا كان في الحتوف ما هو مخفف ، وما هو مثقّل ـ عن حتف مميت . رضي الفلاح بالدين القاسي عن الجوع القاتل . وعليه رحمة الله[1] .

(١) «دیانك سيدك حتى ترضيه



[١٣]

« متمرة مع القمع(١) »

هذا مثل ينطوي على علمٍ، وعلم دقيق، فالبسرة تبدأ تُتَمِّر من أسفلها تدريجياً، حتى يصل الأتمار إلى أعلاها عند القمع، ولله في هذا حكمة، فلو بدأ الأتمار من القمع، وهذا هو الذي يمسكها بالشمراخ، لوقعت من الثقل، فلا يكتمل اتمارها.
وعليه فلن يكون في يد الناس تمر، وإنما بسر، بعضه لا يمكن الاستفادة منه، لأن بعض أنواع التمر بسره مرّ، والناس يريدون أن يجنوه من القنو، لا أن يجمعوه من الأرض، من حوض النخلة، المشبع بالسماد والمملوء بالتراب.

فالأتمار مع القمع أمر غير طبيعي، وخلاف المعتاد، وقد وجد الفلاح في هذا مثلاً يضربه لكل أمر يأتي على غير طبيعته، أو ضد طبيعته، أو خلافها.

---

(١) الجهيمان ٧/ ٢٦٢.

وإذا كانت النخلة ـ كما هو معروف ـ مهمة للفلاح، وتعتبر رأس ماله الأول، فهذا لأنها تعطيه التمر، وهذا هو الغذاء الرئيسي المطلوب في زمن مضى، ولا غرو أن يكون كل أمر في النخلة أو التمرة محط اهتمامه، وموقع نظره، وأسّ ملاحظته الدقيقة، لهذا جاء بهذا المثل الحاوي على علم كبير، قد لا يفطن له إلا الفلاح، أو من له علم بالنبات.

والشجر والزرع يعطي المزارع تجارب، وعن طريق هذه التجارب يتحسن الإنبات، وتزهر الثمرة. وبعض الشجر يحتاج إلى عناية غير اعتيادية، ولا تتوفر هذه العناية إلا بعد التجربة الطويلة الدقيقة. فهناك مثلاً شجرة لا تثمر كما يثمر الشجر، ولا بد لها لتثمر أن تضرب بآلة حادة على لحائها فوق ساقها، وتسمى هذه الشجرة في نجد «بنبرة» وفي الحجاز «مُخّيطة»، لها ثمر أصغر من فاكهة البخارى أو البرقوق الصغير، وداخلها لزج، والمثل يقول:

«**مثل البنبره ما تحمل إلا مندرة**[1]»

(١) الجهيمان ٧/ ٢٨٠ .



وبعض النـاس مثلهـا، لا يأتي خيره إلا بعـد معـاسرة لا مياسرة معها، وما لديه لا يحصل عليه أحد بسهولة، ولابد من حيلة أو مماحكة أو مطاردة.

وقد وجد الفلاح في بيئته ما يعبر به عن مثل هذا الشخص، ولم يحتج أن يأخذ مثله من بيئة أخرى، بل انّه أعاره إلى أصحاب بيئات أخرى مثلنا.

في المجتمـع صور كثيرة تحتاج إلى «تنديز» من نوع أو آخـر، أليس مدح بعض الشعـراء لبعض البخــلاء تنديزاً. القِ بالـك - يا بني - من اليوم فصاعداً حولك، وسيمر بك حالات كثيرة ينطبق عليها هذا المثل. بل لعل مدح الكريم يدخل ضمن هذا، فلولا المدح لما جاد الممدوح على الشاعر بما جاد به. ومدح عن مدح يختلف، فهذا يأتي ببعض المال، وهذا يجيد ويأتيه بمال أكثر. الأمر أمر «تنديز» وأمـر «منـدّز»، ودرجـة «التنـديز» تلعب دوراً في مقدار ما «يُنْدِزه» الممدوح، وتطرحه شجرته.

ونعود مرة أخرى - يا بني - إلى المثل الأول «متمرة مع القمـع» إذا أردت أن تتصـور مدى خطأ هذه

الصورة، لأنها مخالفة لقانون الأثمار للنخلة، فتذكر بعض النســاء الــلاتي يحملن في المبيض بدلاً من الـرحم. ومقدار الفزع الذي يصيب المرأة وذويها والطبيب المشرف أو المعالج.

ولابـد أن لدى الفلاح أموراً كثيرة تأتي خلاف الـطبيعـة، أو مغايرة للمتوقع، فتضايقه، وتربك تخطيـطه، وهـذا المثـل يُرِي رد فعـل مجتمعه لهذا الأمر. وقد اختار هذه الصورة ليعبر عن بعض قلقه في هذا المجال، وهي صورة بارزة واضحة، أتى بها مكبرة كما يفعل راسم الكاريكاتور.

ولكن ـ يا بني ـ لا تأخذ هذه حجة، إذا رأيت المناهج في احدى المراحل الدارسية تبدأ في التاريخ مثلاً بالعصر الجاهلي، ثم عهد الخلفاء الراشدين، ثم عصر الأمويين، ومن بعدهم عصر العباسيين، ثم الـدويـلات الإسلامية، ثم المماليك، ثم عهد العثمانيين، ثم عصرنا الحاضر. وتقول إنها «متمرة مع القمع». وكان يجب أن نبدأ بعصرنا هذا، ثم نعـود إلى الـوراء تدريجيـاً حتى نصـل إلى العصر



الجـاهـلي. ان فعلت هذا فستجد من يقول لك: أنت الـذي تجعلهـا بهذا «تتمر مع القمع»، ولك حجة، وله حجة، وحجتك قوية، وحجته قوية. ولن تخرج أنت وهو بطائل، فقد أتعبت هذه مَنْ قَبلَكم من التربويين، ولن تريحكم أنتم. فالأفضل الإذعان للتجربة القائمة، يأتي جيل، فيجد في هذه طرافة فيطبقها، فيملها، ثم يجرب ما هو خلافها حتى يملها. هذه هي الحياة ـ يا بني ـ.

[١٤]

أي بـني !

للمزارع والمزرعة قديماً صورة يرسمها المثل الآتي:

« **ناصر يُقَهْوِيه وأنا يزَنِّدني المِسوقه**[١] »

ناصر مثل مَن قيل فيه المثل، لابد أنهما انتقلا إلى رحمة الله، ولابد أنهما في مجتمعهما كانا معروفين، والمشتكي مثلهما انتقل إلى رحمة الله، ولابد أن الحادثة التي شُكي منها لطرافتها لفتت أنظار السامعين، فوجدوا أنها تصلح مثلاً، لأنها نفثة صدرية حارة، أحرقت بأَساها وتشكّيها سامعيها، فبقيت الجملة لنا دليلاً علَى فعل حصل في الماضي، واستحق أن يخلّد، ويخترق العصور، ويمكن للباحث المدقق أن يحدد وقت نطق هذا المثل بالتقريب، إذا ما قرنه بوجود القهوة في مجتمعنا، أما «المسوقة» فلعلّها من زمان غابر، ولا تفيد الباحث شيئاً فَي تحديد الزمن.

---

(١) الجهيمان ٧/ ٢٩٥ .



جملة فيها من الأسى والحرقة ما يكاد يلهب الاذن عنـد سماعهـا لها، وتعبـير يصور الغبن، ويستدر العـطف على هذا المسكـين الذي جاء مع ناصر، فاعتُني بنـاصر، وبُجّـل وكُرّم، وتُرك هو للشقاء والكد والتعب. ولنتصور الوَقت شتاء، بعد صلاة الفجـر، وقبل طلوع الشمس، أو عند طلوعها، فهذا أُخذ إلى مكان دافىء، وقوبلت خَرمته للقهوة بما يطفئها، ومعها لمعدته بطانة لهذا الشراب المحبب من تمر أو خبز أو عصيد أو حنيني أو ما منّ الله به عليهم، وهـذا ناولـه صاحب المـزرعـة العصـا «المسوقة» ليبدأ يوماً مجهداً من شروق الشمس إلى غروبها، لا يقطعه إلا صلاة، أو اراحة للدواب، أو أكل شيء يسير، «يسكت عصافير المعدة».

فالمثـل صورة لعـدم العـدل بين اثنين كان من المتوقع أن يُساوَى بينهما ما داما قد جاءا معاً، وبدلاً من ذلك جاء الجور والتعسف واضحاً، فالذي لا يعمل، ولا يؤدّي جهداً، هو الذي تُصب له القهوة ويكرم، ويُدخل ليستريح في ناديها، والآخر يُعطَى



العصا التي تساق بها حيوانات السواني، مع ما يتبع ذلك من جهد وتعب، وسيذهب هذا «العامل» ويجيء في المنحاة مرتفعاً ومنحدراً، مع هذه الحيوانات، يحثّها، ويغنّي لها، ويتأكد أنها في كل خطوة تسير على ما يرام. ترَى هذا العامل وقد ضاق بعصاه: فمرة هي إلى جنبه، ومرة هي على كتفيه، وقد أسند عليها يديه مرتفعة، وكأنه يريدها أن تشد ظهره الذي أتعبه ذرع المنحاة طالعاً أو نازلاً، حافياً لا يحمي قدمه حذاء من برد أو أوساخ، وعلى جسمه أسمال تكاد لا تعرف بأنها ثياب، ولعل أجرته لا تتعدى تميرات يقمن صلبه، عند منتصف النهار.

اسمع ـ يا بني ـ قصة أحد هؤلاء، ذهب أحد أصحاب المزارع إلى السوق يبحث عن عمّال، وكان يريد خمسة، وكانوا عادة يتجمعون بعد صلاة الفجر عند أحد مساجد المدينة، فلم يجد أحداً، فلمحه رجل متقدم في السن، وقال له: كأني بك تبحث عن عامل؟ قال: نعم أريد خمسة، قال له: استأجرني وسأقوم بعملهم جميعاً، فاستحيا منه،



واستأجره. وجاء إلى بيت المزرعة، وكانت ربة البيت قد أعدت عصيدة لخمسة، فقدّمها له الرجل، فأكلها كلها، ثم طُلب إلى الحقل، وقام فعلاً بعمل خمسة حفراً وسقياً وغيرهما، وفي المساء قدّم له صاحب المزرعة عشاء الخمسة، لأنه أخفى عن أهله أنه عامل واحد، فأكله كله، واستمر الأمر على ذلك ثلاثة أيام حتى أكمل العمل. وبعد آخر طعام التفت العامل إلى صاحب العمل، وقال له: لعلك - يا عمي - قد لاحظت عليّ في أكل هذا الطعام كله، فوالله أن لي شهراً لم أذق وجبة مطبوخة، ما هي إلا تميرات في هذا اليوم أو ذاك تبقيني حياً.

هذه - يا بني - صورة من صور هؤلاء العمال، ولك أن تقيس النفثة الملتهبة التي قالها صاحب ناصر على هذه الصورة التي ذكرتها لك. وهي صورة كانت تتكرر، ولم تكن غريبة، وهذا الرجل الذي شرحنا قصته أكل بعد أن عمل، تُرى ما هي حال أهله!

ونعود إلى المثل مرة أخرى ونجد أن عدم العدل بين اثنين لا يحتاج الفلاح أن يستعير له مَثَلَه من أحد آخر، بل يأخذه من محيطه، فيرسم صورة صادقة لما يمكن أن يكون عليه الجور والظلم، وقد جاء صاحب المثل بالصورة واضحة ومريرة، وعلى لسان مهضوم الحق في هذا المثل الذي يكاد يكون قصة متكاملة الجوانب.

وهذا المثل ـ يا بني ـ قد لا يكون واضحاً لابن اليوم الذي لم ير السواني إلا في المتاحف، ولم ير «العامل» الذي يبدأ عمله عند صلاة الفجر إلى أن تغرب الشمس، ما عدا راحة قصيرة للأكل والصلاة أو في القيلولة لا رحمةً به وإنما رحمة بالحيوانات التي سوف تتلف ان لم تُرح. ولا يعرف أجازة ولا أجرة يومية، وأكله القليل هو أجرته. وليس له معاش تقاعدي، ولا مكافأة نهاية الخدمة، ولا بدل ضرر، ولا بدل علاج.

أتعرف ـ يا بني ـ أنه لا يُكسى إلا ثوبا واحدا مرة واحدة في السنة في عيد الفطر غالباً، ثوب يَكسى



عورته فقط ويغطيها، لا يدفئه؛ ينام فيه، ويعمل فيـه، ويجلس فيـه، وقـد لا يكـون جديـداً، بل مستعمـلاً في أكثـر الأحيان إلا إذا كان «دوتا» أو «مريكاني» وهي أخشن الثياب، وسيدهُ الفلاح قد لا يكون في هذا خيراً منه، وقد لا تعلم - يا بني - أنه في يوم العيد يعمل العامل أكثر النهار، لأن الزرع لا يعرف الراحة، وسَقْيه لابد أن يتم في وقته.

وقد لا تدري - يا بني - وكيف تدري؟ أن للعامل أغـاني يهزج بها ويرددها ذاهباً آتياً، طالعاً نازلاً، تساعده على تحمل المشقة، تؤنس وحدته، وتطرب حيواناته، وتسلي المستمع البعيد، حارثاً أو ساقياً، أو رائسـاً أو حاصداً، أو باذراً، أو تسلي امرأة في بيت طين في آخر البستان تغسل ثياباً أنهك كتفها ضرب الكابون، ودَلْك الأوساخ. وأغانيه لا تخلو من لمسة دينية فيها طلب العون من الله على تحمل المشقة، ولهذه الأغاني نغمة خاصة معروفة، تتماشى مع سير الحيـوان، ومع موسيقى «المحّال» وصرير الحبـال، التي يجعلها جفاف بعضِ أجزاء دواليب



السواني التي يدور عليها المحور، تصرخ صرخات منتظمة، وانتظامها ورتابتها تجعلها أقرب إلى الموسيقى المكررة، ولها في قلوب الناس قبول، وهي تأتي من بعيد كالصدى الحالم، وهي مما يلذ سماعه، لا ينافسها إلا أغاني «الختّامة» الذين يحرثون الأرض ليلاً، ويغنون أغاني لها وقع جميل في سكون الليل.



[١٥]

أَي بـنيّ !

الزراعة في القديم يواكبها الإقراض والمداينة، كما سبق أن قلنا، خاصة الزراعة الموسمية، وهي عنصر مهم من عناصر حياة الناس فلاحين ومولين، أحد أمثلتهم، في هذا، المثل الآتي:

« ما الشّـرهـه على اللّي يبعّـل بالسّـطوح
الشّـرهـة عـلى اللّـي يـدَيّنـه[1] »

والتبعيل هو أن تزرع على ماء المطر، تختار مكاناً خصباً في وقت معين من المواسم التي تكون الأمطار فيهـا متـوالية، ترتوي على أثرها الأرض، وتختزن فيهـا المـاء، فيـزرع القمح غالباً في البرية. وهي زراعة غير ثابتة، وأهلها غير منتظمين فيها، فهم ينتهـزون الفـرصة، فيستدينون ليفلحوا الأرض، ويـزرعـوهـا، ومؤونتهم في الانفاق عليها قليلة، لا تعدو توفير البذور، وتهيئة الأرض، وزرعها، ثم

(١) الجهيمان ٧/ ٧٧ .

حصدها بعد أن تستوي على سوقها، وما يتبع ذلك من خطوات تتتالى من درس، وتنقية، وخزن أو تكييس، وتحميل إلى الأسواق لبيعها، وتسديد الديون، وتصفية الربح، وهو الفرق بين ما صرف وما سدد للدائنين.

فلنتصور أن شخصاً طلب ديناً من آخر، على أثر توالي الأمطار، لِيُبَعِّلَ في سطح بيته، حيث لا تربة خصبة، ولا ماء لزمته الأرض واختزنته، فالزرع حينئذ على أرض صلبة ليست زراعية، فيضيع المال على الدائن والمدين، من الملوم إذا كان المستدين مجنوناً، أو أخرقَ؟ والدائن يعرف سلفاً نية المستدين في زرع أرض لا تنبت، أليس من أهدر ماله هو الملوم؟ هذا ما رمى إليه المثل، وهو من الوضوح والدقة والصدق بحيث ينطبق انطباقاً كاملاً على حالة كل من رمى ماله في البحر، وهو يعرف أنه ضائع. لقد أهداه الفلاح الذي قال المثل حكمة صائبة.



هذا ضاع ماله، وهذا ضاع جهده، وركبه الدين، وأصبح الموقف مضحكاً. إنها صورة دقيقة، رسمها رجال الماضي على لوحة بيئتهم البسيطة، وعبارة بليغة نطق بها أحدهم معبراً عما شعر به، وحكمة بالغة تركها للأجيال تعتبر بها. أما اليوم ـ يا بني ـ فالبنك الذي يعطي القرض لا يجعل للملامة طريقاً إليه، ولا يجازف بالأموال المودعة لديه، بل يتحرى عن الأرض، وعما سيزرع فيها، وعن المستدين وعقله وتصرفه، وقدرته على التعامل مع أمرٍ مثل الأمر الذي جاء يتصدى له، ويتأكد من تناسب الدين مع المشروع، ونجاح سيره ضمن مراحله. ويرهن مقابل ما يُعطي ما يفترض أنه يفي بالسداد فيما لو اختل ميزان العمل، وعجز المدين عن السير في مشروعه كما خطط له، مما عاق نجاحه، وعاد عليه بخسارة بدل الربح، واخفاق بدل النجاح. وأحياناً يطلب كفيلاً غارماً مليئاً يأخذ عليه مما يحفظ حقه ما يتأكد أنه مجز أو يزيد. ومع هذا ـ يا بني ـ فتحدث مشاكل مع هؤلاء المستدينين



مما لا يعفي البنـك من اللوم، لأن الذين يعقدون الصفقـة بشر، ويعقدونها مع بشر، والبشر عرضة للزلل المتعمد أو غير المتعمد. ترى لو أراد أحد أبناء اليـوم أن يضرب مثلاً فيه لوم على خطأ يتكرر مع وضوحه ماذا سيقول؟.

وإذا كان المثل من بيئة الفلاح، فهذا لا يعني أنه لا ينطبق على البيئات الأخرى، أو لا يصلح لزمننا. انـه صالـح لكـل زمـان يوجد فيه أناس يهدرون أمـوالهم وأعـمالهم وهم يعلمـون أنهم يضعونها في مواضـــع الضيـاع والاهـدار. دعني أضرب مثـلا يصلح لك، وأنتم طلاب في المـدارس. لو عرف بينكم طالب يستعير الدفاتر أو الكتب، فيضيعها، أو لا يردها، أو يؤخر ردها، وأنتم تعلمون هذا، وسبق أن قاسيتم منه، ومررتم بتجارب مرة، ومع هذا فأحدكم أعاره دفتراً مهماً فيه ملخصات وحلول قبـل الامتحان بيوم أو يومين، فلم يَعد إليه دفتره ليـذاكر للامتحان. من الملوم الطالب الذي عُرف بالاهمال، وإضاعة ما يستعيره، أو الذي أعاره رغم معرفته بعيبه؟



تاجر «جملة» يعرف تاجراً «للقطاعي»، وأنه لم ينجح في عمل أقدم عليه، أو كثير التنقل من بضاعة إلى بضاعة دون نجاح، أو رجل لا يسدد ما عليه لتجّار الجملة. ورغم هذا يعطيه، فمن الملوم عندما لا يعود إلى تاجر الجملة حقه؟. وقس على هذا كثيراً من الحالات التي يقدم أصحابها على أمر بادٍ خلله، ومع هذا يثقون في خلاف ما يعرفون عنه أنه سوف يحصل.

لو فكرت قليلاً - يا بني - لوجدت شيئاً من الطمع يشوب الأمر، ولوجدت أن هذا الطمع أعمى البصائر، أو خدّر الاعصاب، فصغّر الضرر في العين، وكبرّ النفع، وغطّى هذا على هذا. وانساق الشخص للأمر الخطأ عن طريق منحدر، لم يقاوم ضعيف الارادة، قوة الطمع وما فيها من بريق، أعمى عينه، وأعشى فؤاده.

ولم يُر - يا بني - شخص يهدر ماله، إلا شخص مثل هذا، كما قلنا، أعماه الطمع، وقاده الجشع. أو شخص مثل شارب الدخان يعرف ضرره على



نفسه، وعلى أهله، وعلى جيبه، وعلى اقتصاد وطنه، ومع هذا يقدم عليه. وشارب الدخان وضع عنقه في سجن هذه العادة - يا بني - عندما كان صغيراً غير ناضج، فلما كبر وجد أن هذا السجن له باب واحد دخل منه، ثم بنى على الباب جدار، فلم يعد هناك منفذ إلا رحمة من الله تتداركه، فتفتح له نافذة ضيقة، يخرج منها بعناء إلى رحابة أرض الله الواسعة.

لهذا - يا بني - يحرص الآباء على ابعاد أبنائهم عن رفقاء السوء الذين يسوغون لهم أعمالاً غير ناضجة، تتماشى مع عقولهم الفجه، غير الناضجة، ويحرصون على مراقبتهم، وتبصيرهم، إلى أن ينضجوا، فيتركوهم، اعتماداً على أنهم بلغوا الرشد، وشبوا عن الطوق، وأصبحوا يعرفون ما يضر وما ينفع، وما يجوز وما لا يجوز.

ولا تنس ما سبق أن حدثتك عنه عن مدى تأثير الزميل المماثل لزميله في السن، والوقت الطويل الذي يقضيه معه، واستعداد أحدهما للتأثر بزميله



في هذه الفـترة؛ لأن الفكرة السيئة تعْرض صدفة فتستغل، فتجد قبولاً. أما تعليمات الأهَل فهي تأتي بصورة نصيحة، والنصيحة ثقيلة، خاصة إذا لم يُختر الوقت المناسب لالقائها. ومما يزيد تأثير الزميل في زميله تكـرار الفكـرة في أوقـات مختلفة، وبصور متنوعة، ومدمن القرع للباب يوشك أن يلج.

أعـرف شخصاً كاد أن يقع في عادة التدخين، ولكنه بلطف من الله نجا. والقصة تريك كيف يجد ابليس الفرصة فيهتبلها، قال:

كنـا مسـافـرين من مكة إلى القصيم في سيارة «لـوري». وكـان معنـا رجـل كبير السن محترماً، وتكريماً له وتبجيلاً، تنازل معاون السائق عن مكانه بجـانب السـائق، وتـركـه له، وصعـد إلى أعـلى السيـارة، فوق «الغـمارة»، أي المكـان الذي فوق السـائق، وكنت معه في ذلك المكان، وقد أعددنا مكاناً وثيراً، بما فرشناه من فرش نومنا، وخلفنا بقية الركاب في «صندوق» السيارة. وكان الوقت بارداً بعض الشيء. وبعـد أن صلينـا الفجـر، ركبنـا

السيارة، على أمل أن نمشي مقدار ساعة قبل أن نقف للراحة والافطار. ومع برودة الجو في ذلك الوقت المبكر من الصباح، واندفاع السيارة، ومقابلة الهواء اللاسع للركاب، شعرنا بوطأة البرد، وكانت فائدة الأغطية ضئيلة، حينئذ سارع «المعاون» فأخرج سيجارة دخان وأشعلها، وأخذ منها نفساً عميقاً، وأظهر أنها أدفأته أكثر مما أدفأته جميع الأغطيه التي تدثرنا بها. وقال هذا بطريقة مؤثرة وتوحي بالثقة والاقناع. لابد ـ يا بني ـ أن ابليس أعاره صوته وعقله في هذه اللحظة ليظهر بذلك المظهر المؤثر! ويقول راوي القصة: في تلك اللحظة تمثل لي والدي رحمهُ الله رحمة واسعة، وجعله في عليين. والدي الذي لم يدخن سيجارة واحدة في حياته، وكان يكره التدخين، ويحث على تركه. وغضب مرة على شخص عرض على آخر سيجارة، فقال له الآخر: انني لا أدخن هذا النوع. فقال له العارض مغوياً له: جرب هذا النوع، فقد يعجبك. فنفر فيهما والدي، رغم مركزهما الاجتماعي، وقال



للعـارض: هل ما تعـرضه تفاحة. إن ما تعرضه سماً، فخجل العارض.

تمّثـل لي والـدي في تلك اللحظة التي بدأ فيها الضعف يدب فيّ، أمـام البـرد، ودوائـه السهـل المتيسر. تمّثل لي، وهو ينظر إليّ بخيبة أمل، وأنا لم أعهـده إلا كما يقـول التعبـير العـامي «يشـبرني ويبوعني»، وينتظر اليوم الذي أنتهى فيه من المرحلة الثانوية، وألتحق بالجامعة. وكان كثير المفاخرة بي أمام زملائه وأصدقائه، إن حضرت، أو إن غبت، وبدأ الصراع بيني و بين إبليس، هو بنفثه وسحره، وأنا بتخيل والدي، وحبه لي، وحبي له، وسعيه إلى ما يريحني وينفعني ويـرفعني، وأنـا إلى ردي جميله باقرار عينه بابنه وما يرجو له، ويود له.

وأدركني الله برحمته، وقلت له: إن الذين خلفك في الصندوق سوف يتأذون من الدخان لأن الهواء يلقيه إليهم، وويل لك من عمك السائق إن شكوا إليه. فنبهته إلى ما كان غافلاً عنه، وأضعت عليه خرمـة كاذبـة، ضلّله إبليس وصورها لـه مدفئة،



وهي في الحقيقة محرقة لصدره، خاصة وأن الغذاء في تلك الأيام لم يكن متوازناً، ولم تكن عناصر الغذاء الصحي متوافرة فيه.

من هذه القصة التي رواها الراوي عن تجربة مرّ بها، تدرك كيف تستغل الظروف، ويكون لها التأثير الذي لا يقاومه إلا شيء أقوى من الظرف هذا.

لو كان والد صاحب القصة - يا بني - مدخناً، هل كان ابنه - يا بني - يعطيه اعتباراً في مثل هذا الموقف؟ الله سبحانه هو الهادي. ولكن عند التدبر يظهر لك - يا بني - في ضوء القصة التي ذكرناها، مدى مسؤولية الأب المدخن في وقوع ابنه في براثن عادة التدخين المخيفة؛ لأن الأب في عين ابنه في منزلة عالية، تستحق أن تقلد، وأن تؤخذ نموذجاً يحتذيه الابن؛ لأن الابن في سن معينة من نشأته يرى كل عمل يأتي به والده مظهراً من مظاهر الرجولة، ولا يرى عيب والده عيباً، وإنما يلبسه ثوباً براقاً يجعله فضيلة.



لهذا ـ يا بني ـ رمي عبء اثم ابن المدخن، إذا دخن، على والـده، في الحقيقة ليس اثم التدخين فقط، ولكن اثم كل عيب في الوالد بامكانه الابتعاد عنه أو الاقلاع منه، حتى لا يكون مجال اغراء لابنه ولغير ابنه ممن يقتدون به، أو يرون فيه مثالا لهم، خاصة إذا كان له مقام في المجتمع. والله الواقي من الشرور.

أيْ بُنَيّ

[٦٦]

أَي بُـنَيَّ !

نتنقـل إلى مثـل آخر، فنأخذ جانباً صغيراً من المزرعة، نجد أن الفلاح يخزن فيه التبن، والتبن غذاء للحيوان، وللناس فيه مآرب أخرى. منها أنه يستعمل في تلبين لبنات بناء البيوت؛ ليقوي الطين إذا خلط معـه، أو يستعمـل حشـواً للمسـاند أو الفرش، أو لسرج الحيوانات خيلاً أو حميراً؛ فهو يلعب دوراً مهماً في حياة الناس حينئذ، مثل كثير من انتـاج البيئـة الـذي يستغل في سد حاجة الناس. والنخلة في هذا تعتبر مثالية؛ لأن كثيراً من متطلبات الحياة عند الناس مصدرها النخلة؟ فليفها حبال، وخـوصهـا خصف ومـراوح وسفـر للأكـل، بل وأحـذيـة أحياناً، وقنوانها، بعد أخذ التمر منها، حبال ومكانس، وجذعها أبواب وجسور حدائق، والعسيب بعد نزع الخوص منه يستعمل «جذامير» جمع «جذمار» يأتي وقاء للطين يوضع في البناء على سطوح المنـازل، ويحـرك به التنـور، ويضرب به



المعلم الكسولُ الطالبَ المهمل من بعيد، وهو جالس، والرمح «الجذمار» لطوله يريح المعلم من القيام والقعود، وهو لك وأمثالك - يا بني - لاخراج المفارخ من أعشاشها، وهي صغار الطير، «حواقل» جمع «حوقله» وهي من العصافير ما لم ينبت ريشه، «ومطايير» جمع «مطيار»، وهو ما نبت ريشه، وأوشك أن يطير، ويفارق العش. ولأخراج المطيار مع عشه بعد برمه بالرمح أو الجذمار لذة لا يعرفها إلا من جربها من الصغار، وأحسن أوقاتها وقت القيلولة، ربما لأن الشياطين تنشط في ذلك الوقت، لأن الصغار في مأمن من متابعة أهليهم، ومعاقبتهم لهم؛ لأن الأهل في نوم عميق في هذه القيلولة، التي قد يكون حرها «يشوي الطير في السماء».

وقد أبعدنا قليلاً - يا بني - عن المثل وعن الفلاح، ولعل لوالدك في هذا هوى، فقد غلبته ذكريات الصبا، فانساق معها وانساب. فنعود إلى الفلاح فنقول إن مصدر التبن الذي نتحدث عنه هو الفلاح الذي يزرع القمح، فيأتي التبن من

أقصابه، ويحرص الفلاح، لخفّة التبن أن يضعه في صُفّه، أو مكان منزوٍ حتى لا تبعثره الرياح، وتطيّره الأهـوية، وحتى لا تفسده رطوبة المياه والأمطار.
لهذا «فصُفَّـة» التبن ـ على تفـاهة التبن ورخصه ـ مهمة، ومشهورة، ومعروفة، وهي جزء من المزرعة لا يهمل ولا ينسى، وهي للصغار ملهى وملعب، وللهوام أحياناً مخبؤ خطر. ومع هذا فالتبن أرخص شيء في المزرعة، ولعله أرخص شيءٍ في غيرها من متـطلبـات ذلـك المجتمع. و«الصُفَّة» لهذا ليست حصينة، وبابها في الغالب لا يغلق، وإذا أغلق لا يوضع عليه قفل، وفي الغالب لا يكو لصُفَّة التبن باب بتـاتـا، ويكفي أن لها جدرانا وسقفا، ولهذا عندما يقول المثل:

« **ما عنده إلا مفاتيح صفة التبي**[1] »

(أو مفاتيح التبن).

فهو يعني أن الانسان المتحدث عنه غير مهم،

---

(١) الجهيمان ٧/ ٩٥ .



وليس في يده شيء، وهذا منتهى التحقير والاستهانة، أو تقليل شأن الخطر الذي ربما ظُنَّ أن بامكان أحد أن يحدثه.

وفي جنوب المملكة لهذا المثل مرادف هو:

« **ما معه إلا مفاتيح الحثا**[1] »

ومع تفاهة التبن ورخصه فقد يرفع الله من قيمته أحياناً إلى درجات تجعل الخبر عنه كالخرافة. ألا يبلغ المهر في زماننا مئات الآلاف بما يتبع المهر من حفلات وولائم؟ أما في زمن مضى فكان مهر أحد الأشخاص مدَّ نوى من نوى التمر، أي لم يبلغ صاعاً ولا نصيفه. ومهر آخر كان ـ وهو ما يهمنا هنا ـ عدل من التبن. هل سمعت؟ عدل من التبن! أي فردتان مما يحمل على ظهر البعير أو الحمار، يستطيع رجل واحد حملها. هذا ما رواه هلال بن سلمان السياط أحد كبار السن في منطقة الجوف، رواه في حلقة من حلقتين في جريدة الجزيرة[2].

(١) الألمعي ٢١٨، (الحثا: قشور الحنطة والسفير) الألمعي ٢١.
(٢) عدد الجمعة، ٦٨٩٦، ٦ صفر ١٤١٢هـ.



والتبن لم يوح للفلاح بهذا المثل فقط، ولكنه أوحى له بأمثلة أخرى أقربها، ولعله من أصدقها قوله:

« ماء تحت تبن »

يريد بهذا أن الأمر مختف لا يُرى، في حين أنه قد وصل، وقريب ممن يتوقع منه أن يحاذره. وهذا يوحي بخطورة الموقف؛ لأن الغفلة حينئذ والاطمئنان مدعاة للهلاك.

وقد تفاجأ - يا بني - مرة أخرى، بعد ما سمعت عن التبن، وكيف صار مهراً، إذا قلت لك أن هذه المادة التافهة «التبن» قد توضع على مكان من أعز الاعضاء في جسم الانسان، ومع هذا فوضعها في هذا المكان لا يرفع من قدرها، ولا يعطيها أهمية أكثر مما تستحق، ولا يعلي شأنها، وهذا ما يؤكده المثل الذي يقول:

« مثل التبنه على الجحام »

فالجفن إذا «جحم» أي ورم وانتفخ، وضعوا



فوقه تبنة، ويعتقدون أنها تمتص الجحام، ومع هذا فكثير يقرون أنه لا يقوم التبن بهذه المهمة، بدليل أنهم صاغوا هذا المثل. ولم يكتفوا بهذا المثل لهذا الأمر، بل أكدوه بمثل آخر وهو قولهم:

« دواء جمعة »

أي أنه لا يفيد. ولعل جمعة هذا رجل يدّعي الطب، والمعرفة به، وهو لا يعرف شيئاً، ولعل الناس أدركوا هذا عندما رأوا أن طبه لا يفيدهم. ولا أظن ـ يا بني ـ أن المقصود با «لجمعة» هنا يوم الجمعة، فيوم الجمعة مثل غيره من الأيام، ولا تأثير له على الدواء. وأرجو ألا تأخذك نوبة من نوبات الجدل، التي هي للجدل فقط فتقول: قد يكون المقصود يوم الجمعة، لأن الدواء المعطى يحتاج للراحة، والمريض لا يرتاح حسب أمر الطبيب، ولكنه يصر على صلاة الجمعة، فيجهد نفسه، ويضيع مفعول الدواء. فإن فعلت فسوف ألجأ إلى الصمت، وأهز رأسي هزة لا تدري أهي موافقة على ما قلت أو مخالفة. وهذا أسلم من الدخول في

نقاش بيزنطي. أتدري ما هو النقاش البيزنطي؟ لعله مما يفيدك أن تعرف، لأن هذه الكلمة تتردد على ألسنة الناس، وأصبحت مثل المثل، أو هي مثل. ولكن قليلاً من الناس يعرفها:

كانت جيوش السلطان العثماني محمد الفاتح تحاصر بيزنطة القديمة (القسطنطينية) وكان مجمع الأساقفة منعقداً في أجيا صوفيا حول: كم هو - على وجه التحقيق وبالآلاف - عدد الملائكة الذين يستطيعون الوقوف على رأس دبوس واحد. وسقطت المدينة تماماً في يد محمد الفاتح والأساقفة مشغولون بهذا الجدل، ومن ذلك اليوم سمي كل جدل عقيم جدلاً بيزنطياً. ويمكنك - يا بني - أن ترجع إلى كتاب الدكتور عبدالسلام العجيلي «جيل الدربكه» وهو أقرب الكتب إلى ما تحب قراءته[1]، لتجد هذا هناك. وأحلتك لهذا الكتاب أيضاً، لأنه ممتع، وسوف تستفيد منه، ولا تمل متابعة قراءته إلى نهايته، كما هي عادة كتب الدكتور عبدالسلام.

---

(١) ص ٨٣.



وهكـذا ـ يا بني ـ أصبح أمامك أربعة أمثلة، تستـطيـع الاستفادة منها لمثل الحالات التي وردت عنها، وهي كما ترى تصور بيئات مختلفة. وتعطي صوراً متعددة، ترمي إلى إعطاء فكر يدل على تجربة وتبصر. ولن تعدم أن ترى مدعياً يوما من الأيام، تدرك في قرارة نفسك، وأنت تراه يوحي بالاهتمام بنفسه، ونفخها أكثر مما تستحق، وتعرف أن شحمه ورم. حينئذ استرجع المثل في ذهنك، واربط بين صورة قديمه سجلت في كتب التراث وصورة حية تراها أمامك تَمْثُل، وصاحبها لا يدري عما يدور في نفسك، ولو عرف لاحتقر موقفه.

ومثل هذا الشخص ـ يا بني ـ يمثل واحدة من العقـد النفسيـة عند بعض الناس. فبعض الناس يشعـر بالنقص في حيـاتـه، فيكمله بالتـظاهـر والادعـاء، والمـرء ـ إذا كان طبيعياً ـ يقنع بما هو عليه، وكل ميسر لما خلق له، ولا يعقل أن يكون في الانسان كل صفة حسنة في غيره، وكل ميزة يتمتع بها سواه، وكل مقدرة يعرضها صاحب كل مهنة.



والمرء محدود باستعداده الطبيعي، وما يتعلّمه، وما يصل إليه عن طريق ملكة اكتسبها من هذه وتلك.

والعقد النفسية كثيرة - يا بني - يكاد لا يحدها حد، ولا يحصيها حصر، وسوف أقتصر هنا في اعطائك فكرة عنها على جانب واحد من جوانبها. وهذا جانب يُري كيف تلعب عقدة الفقر عند الانسان الفقير عندما يكبر ويغتني.

تدبر - يا بني - أمر بعض الناس، واستقرىء حالهم وتصرفهم تجاه ماضيهم، ستجد أنهم يختلفون في الشعور تجاه هذا الماضي، فإذا كان بسيطاً متواضعاً، وكان أحدهم لهذا فقيراً، فالناس تجاه هذا الماضي أحد رجلين، أحدهما يخجل من هذا الماضي، ويحاول تفادي الحديث عنه، أو كشف طبيعته، وما كان عليه، ويحاول أن يجعله في زاوية مظلمة من تاريخ حياته، متفنناً في التعمية عنه، ومتقناً لتغطيته، ومحاولاً تفادي سقوط أي اشعاع عليه، مما قد يكشف بعض جوانبه، أو يدل عليه؛

لأنه الآن في حال يُسْرٍ تام، ورسم له الناس صورة الغَني التي لا يريد لها أن تخدش، أو وجهها أن يشوه بكَلَفِ تاريخ فقرٍ كان في حياته سابقاً. وما ذاك إلا لأن ذاك الزمن ترك ندوباً في نفسه بقيت تتراءى له مكبرة مجهمة، فأحدثت عنده عقدة موثقة محكمة الربط، مسددة الاصابة، مؤلمة الملمس والذّكرى. يشعر أن ذلك الماضي خزي ينقص قدره في زمنه هذا، وينزل مقامه بين الناس. وما ذلك إلا لما توحيه له نفسه المريضة.

ويخالف هذا النوع رجل آخر من الناس، رجل يحلو له في ظل نعمة الله الجديدة التي أكرمه الله بها، وطرأت على حياته، أن يسهب في الحديث عما كان فيه من فقر في ماضيه، وعوز في صغره، وما عاناه من شظف عيش وادقاع، وما مرّ به من جوع وعري. ويُفصّل حوادث الألم التي مر بها، وقاسى منها، ويصف الكُرَبَ التي طحنته حينذاك. وكيف تحمّلها صابراً. وبلَذّة متزايدة يلج إلى الحديث عن الماضي، وينتهي منه، ويعود إليه بمتعة، وينتهي



بالمقارنة عما كان عليه، إلى ما صار إليه؛ واصفاً الخير الذي ينعم به الآن، والمتعة التي عوضه الله إياها، ويقص ذلك ويصفه بنغمة الحامد الشاكر على أن الله دلّه على طريق الصعود، وساعده على ارتقائه، وهيأ له خطة النجاح، وسهل له تطبيقها. ولا يتردد أحياناً أن يعزو شحذ همته وصبره ومثابرته وقدرته على التغلب على تلك الفترة وصعوبتها ومحنتها إلى بعض الأفراد الذين كان لهم فضل على تسهيل بعض الصعوبات في طريقه. هذا الرجل - يا بني - نفسيته بقيت بريئة من العقد، وصفحتها لم تخدش، ولم يترك ما مر بها من أحداث ومآسٍ أي ندوب أو تشويه. نفسيته بقيت صافية سليمة، لو اطلعت عليها لوجدتها مثل مرآة البلّور، ناصعة لامعة، ينظرون إليها فيستقون منها القوة، وتمدهم بما يثبتهم على هذا المنهج السليم. هي لهم نهر عذب، يطفىء بمائه الزلال ظمأ الحياة إذا ما تعرضتهم في حياتهم صحراء قاحلة.



هذا مثل واحد - يا بني - ويكفيك لما قصدنا تبيانه، عندما تتدبر أمور الحياة، وتستنطق أمثال هذه الأمثال، وتستنبط منها دفينها.



[١٧]

أَي بُـنَيّ !

وهنـاك مثـل من أمثلة المـزارعـين لا يخلو من السخرية في التعبير، يقول:

« **ما فاتك من الزرع إلا سبله**[١] » (أي سنبله)

أي أنــه فاتــه كل شيء، لأن محّ الـزّرع هو السّنبـل، وهـو الحصيلة المبتغاة من زراعته، وهو وعاء حب القمح، أو الحب أيّاً كان، فإذا فاته هذا وضاع جوهره، ضاع عليه كل شيء. ولم يبق بيده شيء إذا لم يبق إلا التبن في يده، وهو أحقر ما في الزرع، حتى أنه يؤتى به للمشاتمة بين المتخاصمين المتلاحين، فيقول أحدهما للآخر: «يا تبن». وهذه تكفي لقبس النار بينهما، وإشعال حريقٍ الله أعلم بماذا يطفأ، وأي خسارة تكون قد لحقت إذا أطفىء.

---

(١) الجهيمان ٧/ ١٠١ .



وهـذا المثـل السـاخر يذكرنا ـ يا بني ـ بحادثة حصلت منـذ أعـوام في مكة المكرمة، وهي تخص جيـلاً سابقـاً. وكـل أفـراد هذه القصـة ـ حسب علمي ـ انتقلوا إلى رحمـة الله تعالى. مكة ـ شرفها الله ـ كما تعـرف قبـل دخول الكهرباء، والوسائل الحـديثة، كانت مساكنها حارّة جداً في النهار وفي الليل. وفي النّهار ليس للناس مناص من البقاء في بيـوتهم إذا لم تضـطرهم أعمالهم للخروج. أما في الليل فتجد بعض الرجال يذهب إلى المقاهي على أطراف مكة، يسمرون أول الليل، ثم ينامون على كراسيها، التي تمكنهم من ذلك، بقيّة الليل، ويهيء صاحب المقهى من الفرش ما يريحهم، ويستيقظون مبكـرين في الصبـاح، ويعـودون إلى بيـوتهم، يفطرون، ثم يذهبون إلى أعمالهم.

وكان هناك عدد من موظفي وزارة المالية اعتادوا أن يخرجوا في بعض الليالي إلى العدل، تحت جبل النور، يطبخون عشاءهم، ويسمعون «جرامفونا» جلبوه معهم هو واسطواناته خفية، وأمنوا الرقيب

في هذه البرية لإنه لم يكن مسموحاً به حينئذ. وخرجوا في إحدى الليالي، حسب عادتهم في ذلك. وكانت وسيلتهم في الوصول إلى هذا المكان البعيد عن العمران حينئذ سيارة «حوض» كبيرة اسمها «بوسنق» - ولعلها ألمانية -، أحضرتهم وعادت. وكان رئيس الموظفين، وآخرون معه، يحضرون متأخرين، ويتوقعون عندما يصلون بعد صلاة العشاء، بعد أن يكونوا أكملوا أعمالهم في وزارة المالية، أن يجدوا الطعام جاهزاً. وحدث أنّهم في أحد الأيام لّما وصلوا إلى العدل، وأنزلتهم السّيارة، هم وما معهم من المؤونة في المكان المعتاد، تركتهم وعادت إلى مكة، لتأتي في اليوم التالي صباحاً لارجاعهم، فاكتشفوا بعد مغادرتها أن هناك من بين المؤونة ما هو ناقص، ولا يكمل الطبخ إلاّ به.

ولما جاء الرئيس ومن معه بعد العِشاء بسيارة صغيرة سأل الرئيسُ الموظفَ الموكلَ إليه أمر العَشَاء، وتهيئته، عما إذا كان الأكل قد هُيّيء، وأنّه جاهز، فرد عليه الموظف بأنه جاهز، ولم يبق إلاّ الماء



والحطب. يعني أنّهم لم يفعلوا شيئاً حتى الآن، ولن يفعلوا إلا أَن تداركهم سائق السيارة الصغيرة، وعاد إلى مكة وأحضر الماء والحطب وهو ما قد نسوه. وأصبحت كلمة هذا الموظف مثلاً يقال للشيء ينقصه أهم ما فيه. ولا أدري - يا بني - هل انتظروا حتى جاء الماء والحطب، أو أرسلوا السيارة لتحضر لهم «شُرَيكاً» (نوع من الخبز) وجبنة و«حلاوة طحينية»، أو فولاً، أو «مُطَبّقاً». وهو عشاء مقبول ومرحب به إلا ممن كان يتوقع لحماً وأرزاً.

لقد حلّت البركة - يا بني - في المثل الذي سقناه: «ما فاتك من الزرع إلا السَّبَل». لأنه أدخلنا مكة المكرمة، وذكّرنا بأمر يخص مكة، وما كانت عليه في الماضي، في بعض جوانب الحياة فيها، وتحدثنا عن الأكل اكلِه ولحمِه وشُريكِه وجبنه وفوله ومطبّقه، وما نالك منه شيء إلا السماع عنه!!

ورغم - يا بني - أن هذا المثل فيه سنابل كثيرة، فيه اللحم والرز، إلا أن سنبلهُ لا يكمل إلا ببعض

العناصر المهمة للاستفادة منه. وفي الحياة أمثلة كثيرة من هذا النوع، وعليك أن تتثبت عندما تستعد لأمر تريد منه نتيجة كاملة. وتتأكد أن عناصره كلها متوافرة. فإذا أردت أن تقوم برحلة، فاكتب قائمة بما تحتاج إليه، وما هو ضروري لا يستغنى عنه، ولا تكتبها في لحظة القيام بالرحلة، فهذا لا يفيدك، لأنك لن تذكر منه كل شيء ضروري، ولكن أضف يومياً، أو كلما تذكرت، ما تحتاج إليه، واستعمالك اليومي للشيء يذكرك بما تحتاجه وقت السفر. وهذا يجعلك تتمتع بسفرك أو رحلتك. وإلا تعرضت لما تعرض له صاحب الحطب الناقص والماء المفقود[1].

كل أمر مهم يحتاج - يا بني - إلى أن يقيد ويكتب، ولا يعتمد فيه على الذاكرة، لأنّ الذاكرة عرضة للنسيان، وعرضة لأنْ تَخْلِط بين الأمور، وتُداخِل بعضها مع بعض. لهذا حث الله سبحانه

(١) هناك مثل حكيم في الجنوب يقول:
«عد خَطبك وماك، ورزقك على مولاك»، الألمعي ١٤٧.



وتعـالى في القرآن على المكاتبة في الدَّين، وجعلها الأمر الأول في قيد الدَّين وحفظه، وإبعاد أسباب الخصام بين المتعاملين.

ومن الأمـور المهمة التي تصلح أن تُعطَى مثلاً الكتيّبُ الذي يحمله الطيارون معهم عند قيادتهم لطائراتهم، فهذا الكتيب قائمة طويلة، فيها جميع الخطوات التي يحتاجها الطيار لقيادة الطائرة. يبدأ في قراءتها خطوة خطوة، وكلما اتخذ الخطوة وأنهاها وضـع علامـة تدل على إنهائهـا، ثم ينتقل إلى ما يليها، حتى يُكمِّل جميع الخطوات بانتظام. وسبب هذا الاهتـمام بالطيارة، لأن الخطأ فيها قاتل، ولا يقتل الطيار وحده، وإنما مئات معه. و سبب آخر هو أن بعضها يحتاج إلى الترتيب، وسبب ثالث هو أن الخـطوات كثـيرة. وهناك قائمة أخرى يراعيها ويراجعها الطيار عند النزول لا تقل عدداً أو أهمية عن تلك المخصصة للصعود.

وكثير من الناس ـ يا بني ـ يفوته من مشروعه كل شيء جوهري، ولا يبقى له إلا الغشاء، أو لا يناله

من ركضه إلا التعب. وبعض الناس - يا بني - يمر بهذه الحياة بسنينها الطويلة، ولا يكون له منها شيء. فاته منها سنبلها، وفي السنبل الخير العميم. فحياته تعد صحراء مقفرة، وبيداء جرداء، وهذا لأنه لم يحرص على أن يزرع فيها البذرة الصالحة، أو لم يهيء التربة الخصبة أو لم يخترها. فجاء سعيه بدون نتيجة، وجهده ضاع سدى.

لهذا نصح الحكماء باستغلال الوقت، وبذل الجهد فيما ينفع، وهي نصيحة من مجرب، عرك الحياة، وسبر غورها، وعرف داخلها وخارجها. وألم بمجرى الأمور، وما يأتي منها بالفائدة، ويدفع الضرر، وما يضيع الوقت والجهد. والنصيحة ثقيلة - يا بني - لأنها تطالب بالسير خلاف ما تأمر به النفس الأمارة بالسوء، فهي - أي النصيحة - تأتي خلافاً للرغبة، ولهذا تجد أمامها مقاومة. والناصح مع هذا يكرر ويلح، ويكفيه أن يُقبَل جزء من نصحه.



[١٨]

أي بُــنَيّ !

« ما العمر بقتّه يحصد ويبرض[١] »

صدق القـائـل، وأحسن في هذا التعبير، لقد أصاب كبد الحقيقة. حتى القطط التي يقال عنها أن لها سبعة أرواح، يثبت لنا بعد أن كبرنا وتنورنا، أنه ليس لها إلا روحٍ واحدة، وإذا خرجت هذه الروح ماتت. فهي أيضاً ليست مثل القتّة تحصد وتبرض.

والقت أو البرسيم ـ كما قال المثل ـ نبات يحصد ويبرض، أي يعود للنمو من جديد؛ ليحصد مرات ومرات، وكلما حصد زاد قوة في نموه مرة أخرى. فهو خير مثل لما ضرب له. والفلاح لم يذهب بعيداً في العثـور على هذا المثـل، فهـو في بيئتـه بجميع جوانبــه، وتحت أنفــه وسمعــه وبصرِه، يزاول حصده، ويرى ابراضه، ويتابع نموه يوماً بعد يوم، ويحمد الله على ما يصير إليه من قوة، فيه نفسِه، وفي

---

(١) الجهيمان ٧/ ٩٤.



الأرضِ التي يزرع فيها؛ فمعروف عند الفلاح أن الأرض الضعيفة إذا زرعت قتاً (برسيماً) قويت، وصارت صالحة لأن يزرع فيها من المزروعات ما يحتاج إلى أرض خصبة قوية.

والمثل يدعو إلى عدم المجازفة؛ لأن المجازفة قد تقضي على ما هو غال، ولا يمكن إعادته، فإذا ذهب ذهب ولن يعود.

وهذا المثل من الأمثلة التي قيلت في الماضي وستبقى؛ لأن أمر القت لم يتغير، فهو عند المحدثين مثل ما كان عند القدامى؛ يحصدونه ويؤملون أن يبرض عدة مرات، بل أن عدد المرات عندهم ستكون أكثر من المرات التي أبرض فيها القت في أيام أجدادهم؛ لوسائلهم الحديثة من سماد وري؛ فالسماد كيماوي، يحميهم من الطفيليات النباتية، والسقي محوري، أو رش، ينزل الماء بمقدار، حتى يضمن أن يكون موزعاً توزيعاً متساوياً، وأن يكون بارداً، ويرش معه مبيدات تحميه من الأمراض مثل «الدّباس»، وهو داء يفتك بالقت وأمثاله. وهو



مرض يرعب الفلاح، ويؤذي اقتصاده، وقد يركبه الدَّين الفادح.

وفي هذا الزمن، مع تقدم العلم الزراعي، استفاد الفلاح فائدة جديدة أدخلها على حقل البرسيم، لا تكاد تكلفه مؤونة. لقد أدخل تربية النّحل في مزرعته، وزهرة البرسيم محببة للنّحل في وقت قد لا تجد مثلها في وفرتها في بعض مواسم الزراعة، وامتداد حقلها. ولها جاذبية تساعد على تربية النحل على زهرتها الزرقاء الجميلة. وهي زهرة تذكر أصحاب الرحلات الصحراوية بزهرة الخزامى إذا انتشرت في روضة من الرياض الواسعة، وعبقت رائحتها الزكية الفواحة.

والاقبال ـ اليوم ـ على زراعة القت فاق ما كان عليه في الماضي؛ لتطور أنواعه، ووسائل زراعته وسقيه، وحمايته من الآفات، ولسهولة حصده، وتلبينه وتجفيفه، ويسر خزنه ونقله، حتى أصبح من الأمور التي تساعد على تربية الحيوانات، الخراف والأبقار، التي أصبح لها مكان بارز في المزرعة

الحديثة، لوعي الناس تجاه الحليب ومشتقاته، نتيجة الوعي الغذائي، ومراعاة أخذ العناصر الأساسية، لبناء الجسم بناء صحياً، على أسس علمية.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى المثل - يا بني - نجد أهمية مدلوله في كل مجتمع. فإذا كان الفلاح عبر عنه بالمثل الذي أثبتنا، فهناك مثل عام قد يكون قائله أخذه من أي زاوية من زوايا المجتمع والمثل يقول:

« الواحد ما يموت إلا مرة

وبعض الشعوب العربية تقول:

« ما العمر بعزقه »

أي لا يفرط فيه، وينثر كما ينثر الدقيق في مهب الريح، أو في مجرى النهر.

نعم - يا بني - العمر ثمين، ولهذا لجسم الانسان حقوق يجب أن تراعى في تغذيته الغذاء الصحي الموزون، واراحته الراحة المطلوبة، وإتاحة الفرصة له للتعليم، وابعاده عن مجالات الخطر التي



لا داعـي للتعـرض لها، فهي لا تأتي بفـائـدة، ولا تساهم في دفع ضرر. والعمر يجب ألا ينفق إلا فيـما له مردود حسن، يحاسب المـرء نفسه في نهاية اليوم: ما هي الحصيلة؟ وفي نهاية الأسبوع: ماذا أنجـز صاحبـه فيه؟ وفي نهاية الشهر: ما محصول الشهـر: وفي نهايـة السنـة: ما المكسب من هذه السنة؟ فإن كان المكسب كبيراً وإلا حاسب نفسه، واستدرك ما فات. فالعمر لا يعاش مرتين، وهذا يعلِّم الحـرص والـدقة فيما يقدم عليه الانسان من عمل، فليس كل أمر يمكن استرداد ما راح منه، أو اصـلاح ما فسد. فتدارك الأمر بعد فوات الأوان صعب، وليس كل أمر يقدم عليه الانسان، ويرى بدء الخلل فيه، يمكن تدارك الأمر فيه، فقد يكون خطّ الرجعة ـ كما يقولون ـ قد قُطع.

ولهذا أصبح من المسلم به في العصر الحديث أن يكـون هنـاك تخطيط يسبق كل عمـل: يوضـع برنـامـج، يرتب الخـطوات، ويغـطي الجـوانب، وينظم الاولويات، ويبين الأسس والفروع، وما



يجب أن يبدأ به، وما يمكن أن يؤخر، ويوزن كل هذا مع الوقت، وينسب مع التكلفة، سواء كانت مادية أو معنوية؛ لأن هذا الزمن زمن سباقٍ الغالب فيه الأصلح، والأصلح هو المنظم المدروس؛ ولأن هذا الزمن زمن منافسة حادة إن لم يكن الأمر مُستعَدًّا له، والمرء محتاطا لمفاجآته، فإن القطار يفوت، وقد تدوس الاقدام من لا يوقفه عقله وجهده على قدميه وسط الحشد الهائل من المنافسين. هذا المثل يؤكد أن أول فرصة قد لا تسمح بفرصة ثانية.

[١٩]

أَي بُـنيّ !

هناك مثل قد يكون في نطقه ما يؤرِّخ للفترة التي قيل فيها، والمثل يقول:

« **ماء خِـرشِـد يعـلو**[١] »

وخورشيد هو قائد من قواد محمد علي باشا، غزا نجدا، وسيطر عليها. ولأن الأتراك الذين حكموا البـلاد العـربيـة كانـوا يفـرضون الأمور فرضاً لا يراعون فيها مصلحة المنطقة التي يحكمونها، ويتبع هذا أنهم إذا أمروا أمراً لا يراجعون فيه. وإذا تجرأ متجــرىء فراجعهم فيـما فعلوا أو قالـوا، أصروا وعاندوا، فأصبح بهذا لهم سمعة متناهية في العناد. ويقال إن خورشيد أمر أن يجري الماء في مكان ما ليصعـد من أسفـل إلى أعلى، مخالفاً بذلك السير الـطبيعي للماء والسوائـل عمـوماً، ومخالفاً نظرية الأنابيب المستطرقة، فلما روجع في هذا لم يتقهقر أو

(١) الجهيمان ٧/ ٩. راجع المثل الآتي: (٢٠) «عنزة ولو طارت».

يتراجـع، أو يستمع للمنطق، وإنما ركب رأسه، وعاد وأصر، وقال، أو قيل وصفاً لموقفه: «إن ماء خرشـد يعلو». وليتنـا ندري ماذا حدث عندما لم يستطع ماء خرشد أن يعلو!! ربما أنه سجنه كما فعل مواطنـه القـائد الذي سجن القدر، ووضع عليها السلاسل والاغلال؛ لأنها لم تَغْلِ وتنجز الأكل في وقته، ولا أدري لماذا انصب الغضب على القدر، وليس على النّار أو الحطب. هذا إذا صح أن هذا الأمـر قد حدث، فقد يكون رُكِّب ليصور صورة رمـزيـة لتصرف الحاكم التركي[1]. وهناك مواطن لخورشيد تصرف تصرفاً يسير على العقلية نفسها. يقـال أن أحـدهم كان يحمـل لحماً في زنبيـل فوق رأســه، فأبصرتـه حدأة، فانقضت، واختــطفت اللحمة، فأغضبه ذلك، فلما دخل بيته أخذ مكنسة لها يد طويلة، وأخذ يضرب الدجاج ويطارده، ولما

---

(١) القدر في التاريخ تعرضت لحبس آخر كما يقول الفرزدق: (معجم الأدباء، ٩/ ١٥٩).

لو أن قِدراً بكت من طول ما حُبست
عـن الحــقـوق بكَـت قدرُ ابـن عمّار



سألته زوجته عن أسباب ذلك، أخبرها بأن الحدأة اختطفت اللحمة، ولما سألته ما ذنب الدجاج قال: كله طير!!

هذه أمور تدور على أفواه الناس، وأصبحت من التراث، وقد لا تكون صحيحة، خاصة وأنها تدخل تحت التعميم عن أُمَّة من الأمم، والتعميم مزلة للخطأ، ومجلبة للعثور، وقد يكون أوحى بهذا حكم الأتراك على الأمم التي أدخلوها تحت طاعتهم عنوة، ولم تجد منهم الرعاية الكافية على كل حال:

قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا
«فما اعتذارك من قول إذا قيلا»

[٣٠]

والعناد سمة لازمة لبعض الناس، ومهما جئت بالدليل على خلاف ما يرى المعاند فإنه لا يفيد، ويبقى الأمر عند المعاند كما هو. وأحياناً يكون الدليل واضحاً، والحجة بيّنة قوية وهي معك وبجانبك، ولكن قوة العناد المسيطر عليه، وشدة المكابرة عنده، تكون أقوى، فتأخذه العزّة بالاثم، ولا يرى أن يتراجع، ويرى أنه ليس من مصلحته أن يبدو ضعيفاً، مع أن الاعتراف بالخطأ فضيلة، والاقرار بالحق، ولو على النفس، شَجاعة، وتُعطي الانسان قوة، لأنه يشعر أنه تغلب على نفسه، وهي من أكبر أعدائه، وقد استطاع أن يثنيها عما قد تسول له به من المكابرة والمغالطة، وللعناد صورة أخرى يرسمها المثل الآتي:

« **عنزة ولو طارت**[1] »

فيرسم صورة لأحدى درجات العناد المرتفعة في الحدّة، الموغلة في العمق. ويكشف عما قد يكون

(١) السباعي ٥٧.



خلفه من قصة لابد أنها حدثت في الماضي بين اثنين على الاقـل، ولابد أن ما كانت المجادلة حوله هو طائـر؛ يقـول المحق: إنـه طائر، لأنه يرى ريشه وجناحيه ومنقاره، ويقول المكابر: إنه عنز، حتى لو كانت العنز تحتاج إلى صوف، وأربع قوائم، وقرنين وذيل، وثدي، ولم يُعرف أبداً أن لها ريشاً وجناحين ومنقاراً. ورغم أن الطائر قد طار، وهو ما يقطع حجة المكابر الذي قد لا يكون تبين سمات الطائر، لضعف بصره، أو بعد الطائر واختفائه عن نظره، إلا أن المكابر باصرار يقول ولو طار فإنه عنز.

ألا يستحق هذا المكـابر أن ينطح مثل ما فعل القاضي النطاح مع الخصم المكابر. على كل حال يبدو أن طبيعة العنز مرسومة في ذهن المكابر وقلبه فلا يرى صفة إلا صفتها.

والمثل دقيق في وصف العنيد، وهو بعناصره كلها مأخـوذ من البيئـة، لأن العنز عنصر مهم في حياة الـنـــاس، ومـعيشتهم في وقت مضى، فهي التي تسعفهم بالحليب، لهم ولأطفالهم، فلا عجب أن



يجعلوا منها مثلاً يسير مع الأجيال. ولهم فيها مثل طَريف يقول:

« من بغى لبن فيربط عنز[1] »

والعنز أقرب لتناول عامة الناس من البقرة التي لا يقدر عليها إلا غني، وفي بيته أو بستانه متسع لها. والشرط في المثل واضح، وهؤلاء الناس في أمثالهم يحبون ـ كما يبدو ـ صيغة الشرط، فيقولون مثلاً:

« من غاب عن عنزه جابت تيس[2] »

والمثل هذا قد لا يبدو منطقياً، فوجود الشخص أو غيابه لا يغير ما خلق الله في بطن العنز طوال فترة الحمل. ولكن يبدو أن المقصود أن غياب الشخص عن حضور ولادة عنزه يجعل غيره يبدل به العنز، في ولادتها، فإن كان ما ولدته أنثى: «صخلة» أو «عناقا» وضع مكانها تيساً، والتيس أرخص.

---

(١) الجهيمان ٨/ ١٢٣.

(٢) هناك مثل في جنوب المملكة يماثل هذا: «من غاب عن شاته أهبت عتود»، الألمعي ٢١٦. «من غاب غاب قسمه»، الألمعي ٢١٦.



ونعود - يا بني - إلى العناد، وهي خصلة مذمومة، وعمل غير مقبول، وآباؤنا كانوا يشنؤون صاحبه، ولا يلامون، لأنه خصلة تمثل احتجاب العقل، ونقص الشجاعة، والاستهانة بالآخرين. وتدخل صاحبها منطقة التحدّي الأعمى. والانسان كرّمه الله بالعقل، ومادام الأمر كذلك، فعلى الانسان أن يفسح المجال للعقل ليؤدِّيَ دوره، ويقوم بما هو مطلوب منه، وما هو متوقع منه، وهو مصدر النور للأفكار. والعقل يوجب الأخذ والرّدّ بمنطق عند الجدل. ويوجب على أحد الطرفين أن يكون صادقاً مع نفسه فيما يقول، قبل أن يكون صادقاً مع الآخرين، ولا يقول إلا ما يعتقد أنه حق، وعلى الطرف الآخر أن يتمعّن فيما قيل بتجرّد، وببحثٍ مخلصٍ، عن الحقيقة فيما قيل، فإن وجد حقاً قبله، وإنْ شك بيّن سبب شكه، وإن لم يقبل فعليه أن يشرح الداعيَ لعدم قبوله. وهكذا يروح الرأي ويجيء في جو صاف، وبنيّة حسنة، حتى يستقر الأمر بين الطرفين، والحكمة ضالّة المؤمن أين وجدها التقطها.



هذا لمن أراد أن يكـون في زمـرة العـقـلاء المنصفين، وأراد أن يبرهن أن داخله خال من نقائص الخلق، ولا يشوبه عُقَد، عن طريق المماحكة الكاذبة، والجدل العقيم، يريد منها أن تغطي نقصه أو ضعفه؛ لأنه بهذا يكشف عن عيوب أخرى، أحدها الجبن، والانسحاب عن مواجهة الحقيقة، لأن مواجهتها مظهر من مظاهر الشجاعة والاقدام، فالشجاعة ليست فقط في ميدان القتال، على ظهر دبّابة، أو على متن بارجة، أو تحليقاً في طائرة، والعناد عدو التقدم والتطور، لأنّه ضدّ الحقيقة، والبحث عنها، وهي اللّبنة الأولى في رقي الانسان وتقدمه. والدين والعرفَ يحاربان العناد، ويقفان منه موقفاً صلباً، والقرآن الكريم يعلّم احترام العقل، وقولَ الصدق، والبعدَ عن العناد والمكابرة. وشرح في كثير من القصص التي ذكرها عن الأمم الماضية ما انتهى إليه أمر المعاندين والمكابرين. ومدح الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وما أحسنه إلا نتاج العقل السليم المنار بنور من الله.



والعناد له جذور في الانسان يشهد المرء قوتها في الطفل الصغير، وما يحتاجه من مجهود في تربيته ليقلع عن العناد، ويتخلّى عنه، ويتعود على خلافه. والوالدان والمربون يتفاوتون في المقدرة والنجاح في الوصول إلى الدرجة المرضية مع أولادهم في هذا المجال.

[٣١]

أَي بُـنَيَّ !

هناك مثل آخر من الأمثلة التي جاءت بصيغة الشرط، المثل الآتي:

« من بغـى جـريـو فيبطـخ[1] »

لا تعجل - يا بني - فتظن أن «جريو» تصغير جرو وهو صغير الكلب أو الذئب أو الأسد أو الثعلب أو غيره من السباع. صحيح أن المعنى الأصلي أو الأساسي للكلمة هو ذلك، ولكنّه في هذا المثل مختلف المعنى، وإن كان هناك صلة يمكن أن تتلمس بين الجريو الذي في المثل، والجريو عند ولادته في أي من السباع التي ذكرناها، فللتشابه في الحجم والشكل.

والجريو في المثل، هو الخربز الصغير، ومعنى المثل هو أن من أراد أن يأكل خربزا فعليه أن يزرعه، ولا يرجو أن يتوقع من الناس أن يعطوه مما

(١) الجهيمان ٨/ ١٢١ .



تعبوا عليه. وفي هذا المثل رائحة من المثل الذي يقول:

ما حك جلدك مثل ظفرك
فتولّ أنت جميع أمرك

وهذا المثل جاء من بيئة الفلاح الزراعية، وقد أتينا على بعض الأمثلة المستقاة منها. والخربز فاكهة صيفية، وكانت في زمن آبائنا من الفواكه المتيسرة، التي لا يعسر على أي أحد أن يتحصل عليها، وان لم تكن من الغذاء الرئيسي عندهم. ولكن لأن بعض الناس يستطيع أن يجمع شيئاً من النوى يقايض به بعضها أمكن لهؤلاء الفقراء أن يتطلعوا إلى شيء من الفاكهة. ولكنها تعتبر غذاء كمالياً إذا ما قيست بالقمح، الذي لا يُستغنى عنه، ولهذا يقبل الناس على زراعته، لعلمهم أن له طلباً ملحاً، وأن زارعه سوف يبيعه، ولن يكسد عنده. لهذا جاء المثل عن الجرو ولم يأت عن القمح، لأن زبائن الجرو قليلون، فزراعته بكميات كثيرة تعرضه للكساد. ولهذا إن كان هناك من لا يستغنى عنه، فعليه أن يقوم هو نفسه بزرع ما يحتاج منه.

وهو مثل يضرب، ويعطي صورة للاعتماد على النفس، لقضاء الحاجات، وتلبية الرغبات، وعدم الاعتماد على الآخرين ممن لا يهمهم إلا مصلحتهم. وهـو درس في هذه الحياة مفيد، إن لم تعرفه اليوم - يا بني - فستعـرفـه غداً. البحث عن الـرزق، وتـأمـين وسـائله، والسعي للعيش المريح، أمور تجعل الانسان يعذر الآخرين إذا لم يفكروا في المقام الأول إلا في أنـفـسـهم. وفي هذا بقـاء النـوع البشري، إلا ما أَوْجَبه الدِّين في التعاضد والتكاتف والتكافل، مما يميز الانسان عن فصيلة الحيوان الأخرس.

لو اعتمد كل انسان على الآخر لضاعت الحقوق، ولتوانى الناس لأن الدافع القوي قد اختفى، أما إذا اعتمـد المـرء على الله ثم على نفسه، ورأى ما فيه مصلحته دينا ودنيا، وساعد الآخرين على ذلك فيما يعود على المجتمع بالصالح؛ فإن المجتمع ينجح، لأن الفـرد ليس منقطعاً في مجتمعه، ولا بد له من التعاضد والتكاتف مع الآخرين. والأمر يحتاج إلى



وزن دقيق؛ لا يهمـل الانسـان مصلحتـه، بل يرعاها، ويعطيها النظرة اللازمة، ولكنه لا يكون أنانياً بحيث يطغى هذا على ما للآخرين من حقوق في المجتمع، أوجبته الأديان، وحثت عليه العادات الكريمة، والأخلاق الحسنة.

[٣٣]

أَي بُـنَيّ !

من الأمثلة المصاغة بصيغة الشرط قولهـم :

« **من جـاور الحـداد يصـبر عـلى نـاره[1]** »

الحـداد معروف عنه أنه يحتاج إلى نار متّقدة، تقلب الحديد إلى جمر أحمر، ولا شيء أكثر حراً من ذلـك، لهذا فكير الحداد النافخ، وناره المستعرة، تحتـاج ممن يكـون قريباً منها إلى صبر، ولهذا فمن احتاج أن يكون قربها، أو اختار أن يجاورها، فعليه أن يتحمّل معاناة صَلْي النّار وحموها. وإذا كان هذا في الشتاء قد يكون محتملاً، أو مرغوباً فيه، فإن هذا في الصيف يكون عقاباً ما بعده عقاب، وإذا كان الحداد يضطره رزقه أن يتحمّل مشقّة مهنته، فغيره قد لا يكون كذلك. وليس صهر النّار هو الأذى الوحيد، ولكن هناك الشرر الذي يتطاير، فيحرق

(١) الجهيـمان ٨/ ١٤٠. وهناك صيغة أخرى لهذا المثل: «من جاور الحداد ينحرق بناره»، السباعي: ٨٦. وصيغة ثالثة: «اللي يجاور الحداد ينكوي بناره». دياب ٥٧ .



الملابس، والجلود، وهناك الرائحة الكريهة التي تحيط بالمكان.

وهناك مثل يجرى على نسق هذا المثل:

« **من قرب حول النار طاله شرارها**[2] »

وهذا مثل يشبه السابق إلا أنه خفف الأمر، وجعله عاماً، فلم يحدده بنار معيّنة كما فعل في المثل السابق. ولكنه مثل يحذر من يقرب النار، ويبين له طبيعتها، وما يتوقع منها، ويجعل هذا شرطاً يبرىء الذمّة. فعلى كل من يقترب من النّار أن لا يشكو إذا ناله أذاها. وكأن المثل يقول: «لقد أعذر من أنذر» وهو مثل أيضاً.

هذه الأمثال ترمي إلى ما يرمي إليه عدد من الأمثال بالفصحى، ومؤداها أن على الانسان أن يبتعد عما يؤذيه، وإن من أسباب الأذى التهاون من المحذور، والقرب منه أكثر مما ينبغي، ومن حام حول الحمى أوشك أن يرتع فيه. فعلى من يريد السلامة أن يجعل بينه وبين الخطر منطقة سلامة، تريح جسمه وباله.

(١) الجهيمان ٨/ ٢١٣.

[٢٣]

أَي بُـنيَّ !

ومن الأمثال التي تنطوي على شـرط المثل الآتي :

« من رحّـب غـدّى[1] »

أي من رحّب بالضيوف ، واستقبلهم عند مدخل البلدة أو القرية ، أو في أي مكان آخر ، فهذه علامة أنه سيفتح لهم بابه ، ويوسّع لهم في بيته . وهذا يعني أنه سوف يتمسك بهم وبضيافتهم عنده للغداء إن كانت الـوجبـة الآتية غدَاءً ، أو للعشاء إن كانت الوجبة الآتية عشاءً . وهذا أمر معروف بين النّاس ، ويتـوقـع من المـرحّب ، ويتـوقع المرحّب أيضاً أن يكرمه الضيوف بالقبول . وهذه عادة أهل الجزيرة بادية وحاضرة .

والضيافة في كل منطقة تأخذ شخصية المنطقة ، وتختلف كل منطقة في هذا عن الأخرى ، سواء كان ذلـك في خطوات الضّيافة ، أو ما يلزم لها ، أو ما

---

(١) الألمعي ٢٤٥ .



يصـاحبهـا، أو ما يقدم فيها، أو في مدتها. وعلى الضّيف أن يعرف «سلو» أهل المنطقة وعاداتهم حتى لا يقـع في إحـراج معهم، أو يقعـون هم معه في إحراجٍ. على أن هذه الأمور ـ يا بني ـ بدأت تختفي تدريجياً وحلت محلها عادة موحّدة، وقل الاقبال على الضيـافـات بشكلهـا الـذي كان قائـماً، لانتشـار الفنـادق، وتفضيـل الضيـوف سكنـاهـا، منعـاً للازعاج، أو الاحراج. فإذا سكنت عند قريب، أخذ القريب الآخر «على خاطره»، وشعر ببعض الغضاضة على أنك لم تختره، وإن اخترت الآخر لم تُرض الأول، وهـكـذا أنـت ملوم ومعـاتب من أحـدهمـا، وموقفك مثل موقف القاضي، لابد أن يَغضَب منه أحد الخصمين، أو على الأقل لا يرضى عنـه، إلا إذا كان الحكم صلحـاً. وأنت أيضـاً ـ يا بني ـ تستـطيع أن تجعل ضيافتك صلحاً، بأن تقيم عند هذا يوماً، وعند الآخر يوماً.

ولا يزال ـ يا بني ـ هناك عادات غير حميدة عند بعض النـاس في بعض المنـاطق، ولا يزال أنـاس

يتمسكــون بها، ولكن الــزمن سوف يتعــداهم ويتركهم. ما رأيك ـ يا بني ـ في ضيف يأتي من قرى إحدى المناطق إلى مكة، فيدعوه آخر من قريته، ممن سكن مكة، فلما جُهِّز الأكل، ومُدَّت المائدة، ودعاه إليهــا، ولم ير خروفــاً كامــلاً، سأل عن رأس الخروف، فقيل له: إنه لم يُذبح خروف، وإنما أُتي بلحم مُنتَقى، يصلح لكل لون من ألوان الطعام، غضب وقـال: إن هذا ليس قدري، وامتنـع عن الأكـل وخـرج، علماً بأنـه شخص واحد، ولكنّها العنجهية الجوفاء. وأردف وهو خارج من البيت، موجِّهاً الكلام إلى صاحب البيت: عندما تأتينا في بلادنـا (يقصـد قريتـه) أقـلّ ما سوف نقدمه لك ذبيحـة. فرد ذلك بإباء: لن آتيك جائعاً إلى هذا الحـد، بل لا آتيـك أبـداً. وحسنـاً فعـل، فهذا وأمثاله، تركهم الزمن خلفه، وإذا لم يبتعدوا عن طريقه داسهم بخفٍ ومنسمٍ.

وهذا مثل واحد ـ يا بني ـ سقته إليك، والأمثال من هذا النوع كثيرة، ويتداول الناس منها ما هو

مسلّ وطريف، ويتناقلونه بينهم، أحياناً يصرحون باسم الشخص، وأحيانـاً يتأدّبون ويلمزون. فما عليك إلا أن «تطرح» البال، وتفتح أذنيك، وتستمع.

والمثـل - كما ترى - يضرب - يابني - لأمـرين متـلازمـين، وجـود أولهـما يتـطلب وجـود الثاني، فالـترحيب هو شبه تعهد يتبعه وفاء، وما دام بذل الأول بكـرم، فلابـد أن يتبعـه الثـاني بسخـاء، فالترحيب يستوجب العشاء.

ولا يقف الأمر في المثل عند الترحيب والغداء أو العشاء، ولكن المثل ينطبق على كل شيء في الحياة فيه تلازم بين جزء وجزء، يكون الجزء الأول شرطاً للثـاني، أو تعهداً له أو ضماناً أو وعداً. فمن وقع عقـداً وجب عليه الوفاء به، ومن وعد بأن يزوج أحـداً بنته فعليه الوفاء به، والطبيب الذي أجرى العمليـة عليه متابعة علاجها، والطالب الذي بدأ الدراسة عليه أن يستمرّ فيها حتى يتمّها. والمتعهّد لعمل بالشهر أو السنة عليه أن يكمّل المدة التي التزم



بها وبدأها. وشركة الخطوط التي حجزت لك مركباً على إحدى طياراتها ملزمة أن توصلك إلى الجهة التي تقصدها، حتى لو اضطرت أن تستأجر لك على غير طائـراتها. والذي وقع معك عقد بيت تسكنه لمدة سنة مطلوب منه أن لا يقلقك بالخروج منه إلا في ضوء العقد وشروطه.



[٢٤]

أي بُـنَيَّ !

الأمثلة المشروطة كثيرة، ولعل في هذا الأسلوب جاذبيـة لصـائغي الأمثـال، ومن الأمثلة المشروطة المثل الآتي:

« **إذا طلعت الجبل فتهقا** » أي تمهل(١)

وهذا مثل ـ كما ترى ـ ثمين، لأنه يخص سلامة الأبـدان، وهي ما هي مما يهم الانسان، لأن على سلامـة البـدن يتـوقف نشـاط الانسان وتحصيله. والحياة تتسع وتضيق، وتبتسم وتتجهم وتعبس، في ضوء ما عليه البدن من صحة وسلامة. وفي المثل حكمة بالغة ترمي بتوجيهها إلى اتّقاء الحوادث في بيئة يتوقع فيها سهولة وقوع الحوادث، لما في طبيعتها من قبـول لذلـك، واستعـداد. فساكنوا الجبال، والمحيـطون بها، يعـرفون الأخطار التي تكمن في تسلق الجبـال، والهبـوط منها، وفي المثل ما يوحي

(١) الألمعي ٢٨ .



بأنـك كلما زدت في الصعود استوجب الأمر منك زيـادة الحذر، والتمهل أكثر من ذي قبل، عندما كنت في السهل. وهو مثل قيم، وصادق ينفع من اتبعه، وعمل به في هذه الحياة. وقس على هذا إذا أقدمت على أمر جلل، فاحسب خطوك، وقدّر وقع سيرك، وكما قال الشاعر:

قـدر لرجلـك قبـل الخطـو مـوقعهـا

ولكل مجتمع، وفي كل بيئة أخطار، لا يعرفها من عاش في بيئة طبيعتها تختلف؛ فالسكنى في أرض تكثر فيها الجبال، مخاطرها في صعود الجبال، وتوقع السقوط أو الزلل. ومن أخطارها السكنى أو المقام في مجرى المياه التي تنزل بقوة من الجبال فتجرف ما أمـامهـا. وقد تكون الجبال مأوى للسباع، سباع الحيـوانـات وسبـاع البشر من المجرمين من القتلة وقـطاع الـطرق. وأخـطار السكنى على سواحـل البحار، أو شطآن الأنهار قد يكون من بين أخطارها العـامة المد والجزر والفيضانات والعواصف ومنها التعرض للغرق، والتلوث الذي قد يكون متوطنا في



الشواطىء، وما تأتي به مخاضات المياه من بعوض، وبلهارسيا، وأمراض أخرى. والمحيط الصحراوي من أبـرز الأخطار فيه ـ بجانب الأمور الطبيعية ـ التعـرض للجفـاف وللعـطش. هذه أمثلة محدودة تُري ما قد يكون في كل مجتمع مما على المرء أن يحذره فيَ ضوء ما خزنه المجربون من كبار السن.

والتمهّل عند الصعود على الجبل، وعند النزول منه، مطلوب، لأن الخطر في مخالفة ذلك واحد، بلٍ قد يكون التمهّل في النزول والانحدار منه مطلوباً أكثر من الصعود. وما عليك ـ يا بني ـ إلا أن تنظر إلى الذين يتسلقون الجبال، سواء المغطاة بالثلوج، أو الجـرداء الخالية من ذلك. تجد أنهم في النزول يقللون من سرعتهم، ويـزيـدون من الحـذر، ويتثبتون من حبال النزول، والمعدات الأخرى.

ولا بد أنك ـ يا بني ـ في يوم من الأيام تابعت رحلات التسلق العالمية التي يقوم بها أناس لقهر قمة ايفرست في الهملايا أو قمم جبال الألب. ورأيت ما يقدمون عليه من مخاطرات، وتعرض للمهالك،



وما ذلك إلا ليملؤا أنفسهم بثقة يخزنونها من جراء قيامهم بما لم يقم به غيرهم، أو لِيَبُزّوهم في الوقت، وفي قصره. وقد تعجب من تعريض أنفسهم لمثل هذه المخاطر، ولكنها الهوايات لدى بعض الأشخاص مما قد لا يفهمه الآخرون. وأمر هؤلاء مثل أمر الذين يجازفون بحياتهم في بعض المسابقات مثل مسابقات السيارات أو الدراجات أو غيرهما.

[٢٥]

أَي بُـنَيّ !

ونزيدك من الأمثلة المشروطة، ولعلك في يوم من الأيـام تدرس ظاهـرة حب الناس لصياغة الأمثلة بصيغة الشرط هذه، لأنها ملفتة للنظر، ولابد أن وراءها سرّ جاذبية، لعلك تكون أول مكتشف له.

والمثـل الآتي مثل صادق في معناه، مصوِّر لما يرمي إليـه، وله أبعاد سوف ترى بعضها. وهو يكشف عن جانب من جوانب عادات القوم، وتقاليدهم، ويـوضـح ركنـاً من أركـان حيـاتهم الاجتـماعية. وحرصهم على مظاهر الرجولة والأدب، والتأكد من تمسّك النّاس بها، والمحافظة عليها، ومطالبة النشء بها، حتى يألفـوهـا، وتكـون لازمـة لهم عنـدمـا يكبرون. وهم، وان لم يصرحوا أنها للنشء، إلا أن ما تعرفه عنهم يدلّك على أنهم المقصودون أولاً، ثم من هم أكبر منهم ممن قد يتزعزع فيهم هذا الجانب المهم، يقول المثل:

« **من خـلّى ربعه فهو من خبث طبعه**[1] »

---

(١) الجهيمان ٨/ ١٥٩.



أي من ترك قومه وجماعته دلّ هذا على سوء طبعه، ويتبع هذا فساد الخلق، وعدم قابليته للتربية والتهذيب والتوجيه. أو الاستماع للآخرين في توجيههم وتعليمهم. وعمله هذا يدل على اختلال الميزان عنده في اختيار الأصحاب والجلساء. والناس في تلك المجتمعات ينظرون نظرة جلّى إلى أواصر القرابة والرحم، ولا يفرطون فيهما، ولا يتهاونون مع من يهملهما أو يتهاون فيهما. ومن يفعل ذلك يكون عرضة للانتقاد واللوم، وربما يجد نفسه منبوذاً، ونبذ المجتمع في ذلك الزمن يعتبر أمراً عظيماً.

والمثل هذا ـ يا بني ـ يعطي فكرة عن مجتمعاتنا العربية، وكيف أن الفرد لا يأمن إلا إذا كان له من قرابته ما يحميه، ويشدّ عضده، ليس أمام جيش جحفل يهاجمه، أو عدو فاتك يريد أن ينقضّ عليه، ولكن من مصائب الزمان ونكباته، وما قد يُحلّه بماله أو نفسه أو أهله. فإذا ما حزبه أمر وجَد أهله وأقرباءه حوله، يواسونه، ويشدون أزره بما



يستطيعونه، وقد يقضون على العسرة، أو يخففون من غلوائها.

وقد لا تكفي الصداقة هنا ـ يا بني ـ ولا يشفي الغليل إلا القريب، وكلما زادت درجة القرابة، زادت العاطفة جيشانا، وكان الحنو أكثر، والدّم يحنّ إلى الدّم. وكما يقول المثل العامي:

« **الدم ليس ماء** »

ففيه عواطف لا يعلم مداها إلا الله. النخوة عند القريب يتوقع أن تكون في أوجها، والحميّة في منتهاها، و « **الظفر** ـ كما يقول المثل ـ **ما يطلع من اللحم** »[1]! وهناك مثل يقول:

« **أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب** »

وهذا كاف ليريك مدى عمق نظرتهم لهذا الأمر.

---

(١) «الضفر ما يخرج من اللحم» السباعي: ٤٩.

والحقيقة ـ يا بني ـ أنهم محقون في المحافظة على هذه الآصرة، لأننا رأينا الغربيين عندما أفلت زمام هذا الأمر من أيديهم، وقلّدوا الطيور والحيوانات في اعتزال من نبت ريشه وطار، ومعاداته، ضاع أمر العائلة عندهم. وضعفت الصلة، حتى صارت صلة الابن أو البنت بأمها وأبيها لا تعدو تهنئة يحملها البريد في عيد الميلاد أو رأس السنة. وأصبح كل واحد منهم همّه نفسه. بل إن ميراثه أحياناً يتركه للجمعيات الخيرية، أو لشخص لا قرابة له معه، بل قد يتركه لحيوان أو جمعية حيوانات أو زيادة في السخرية لكلبه.

لهذا ـ يا بني ـ أريدك أن تنظر بعمق إلى هذا المثل، ومراميه، فليس ضحلاً، كما قد يبدو لأول وهلة، بل إني أريدك أن تنظر بعمق إلى كل مثل في لغتك، من تراث آبائك وأجدادك وأجدادهم، فهم ـ كما رأيت، وثبت لك ـ لم يكونوا يرمون القول على عواهنه، ولا يتكلمون جزافاً، بل قالوا ما قالوا ـ كما سبق أن قلت لك ـ عن تجربة ودراسة وعمق. ولقد



رأيت الآن كيف تبين لنا هذا العيب عند الغربيين، وأنه جاء بالتدريج نتيجة اهمالِ ماحظّ عليه هذا المثل وغيره من الأمثال، التي ترمي إلى تقوية الأواصر بين طيات المجتمع، وأهم هذه الطيات العائلة والقرابة فيها.

[٣٦]

أَي بُـنَيّ !

لا نزال في صيغة من صيغ الشرط في الأمثال، ولكن المعنى مختلف، والمرمى في حقل آخر. ننتقل إليـه لأهميتـه لك ولـزمـلائـك ممن هم في سنك. وستجده مفيداً.

الدين الإسلامي - يا بني - وتشرّب الناس له، واختــلاطـه بدمهم وروحهم، يجعلهم يضعـونـه نصب أعينهم فيـما يأخذون أو يدعون، ويراعون تعاليمه فيما يقبلون أو يرفضون، يلحظونه في كل أمر من أمورهم، وفي كل تصرف يتخذونه، فهو بهذا يصبـغ حيـاتهم بصبغته، ويشكلهـا بالشكل المــرضي، ويــأتمـرون بأمـره، وينتهـون بنهيـه، ويســيرون في نوره، يضيء لهم طريقهم، وهم يتلذذون بالــطاعــة، ويتمتعــون بالخضــوع لله خالقهم، أمـلاً في ثوابـه، ورغبة في رضائه، فلا تسـتغــرب - يا بني - أن تجد ما يدل على هذا في أمثالهم، أو في حكمهم. يقول أحد هذه الأمثال:



« من رافق المصلّين صلّى[1]، ومن رافق الضالّين ضلّ »

والقرين - يا بني - يؤثِّر في قرينه، والصديق يؤثِّر في صديقه، لطول اللقاء، وكثرة فرص التأثير التي تأتي بها المصادفة[2]، وعفو الحديث، فيصبغ أحدهما الآخر بخلقه، وما تعود عليه، أو ما يفضله ويميل إليه. وتُهدِي الفرصة نفسها للاقناع، وبسط الحجج مرات ومرات، حتى يكون لها، أو لبعضها قبول، والقرين يؤثر لهذا في صديقه أكثر من تأثير الوالدين، وأولياء الأمور، والوعاظ، لأن أوقات هؤلاء قد لا تكون أوقات التأثير، وعدد المرات في الحديث نفسه أقل من عدد مرات إثارة المواضيع بين الأصدقاء والزملاء، ولهذا يحرص الوالدان والمربون على ألا يختلط من هو تحت رعايتهم بمن أخلاقه متردِّيه، أو مشبوهة بذلك، فيختارون لابنهم من يرضون خلقه، ما أمكنهم الخيار، لأن القدوة أيضاً

---

(١) راجع الجهيمان ٨/ ١٧٠ مع بعض الاختلاف.

(٢) راجع ما سبق في المثل (١٥) وقصة معاون السواق، والراكب بجانبه.

أقـوى من النصـائـح والتـوجيه، وتأثير المماثل في السن، لها ـ على الأسس التي ذكرنا ـ فعل السحر في المُجـالس والمُعايش. فتأثير الطالب في المدرسة على زميله أقوى منَ تأثير الوالدين، لأن العقليتين للزميلين متقاربتان، والتأثير يأتي طبيعياً ما دام يأتي عفوياً، بينما النصائح تأتي مقتصرة، ومركزة، فترفض.

ومن داوم ـ يا بُنَيَّ ـ رؤية شيء ألفه، ومن ألف شيئـاً افتقـده، فتفقّـده حتى يجده. فمن جالس المصلين فلا بد أن يتأثر بهم، لتكرار ما يراه منهم، وتأثيره عليه، وهو لا يعرف غير هذا معرفة التصاق وألفة، ومن جالس من لا يصلّي، مضيعاً الفروض أضاع فروضه مثله، لأنه لم يألف إلا هذا.

ولعلك تذكـر الحـديث[1] الشريف الذي يذكر

---

(١) عن أبي موسى الأشعري: «إنما مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك (يعطيك بدون منّ) وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبا. ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة» رواه البخاري ومسلم.



الجلوس عند الصانع، وما يأتيه من كيره ورائحته، والشرر الـذي يتـطايـر منـه، ويقـارن بينـه وبين الجلوس عند العطّار وما يفوح من دكانه من عطر ورائحــة زكيـة. لو غسلت يدك - يا بني - بطين وسختها، ولو غسلتها بماء قراح نظفت، والأصدقاء ومن تخالطهم هم مثل ذلك. والمثل العامي يقول:

« ابعـد عـن الشـر وغـنّي له

والشرور وأصحابها أنواع فاختر الخير عن الشر، والنفع عن الضرر، والربح عن الخسارة، والمستقيم عن المعـوج، والفطين عن الأحمق الأهوج. وهذا هو العقل، وخلافه مرفوض.

وعلى الرفيق يتوقف شيء كثير من سعادة المرء أو شقائه - يا بني -، ولهذا اعتني في اختياره. فالصغير يسـاعـده أهله على الاختيار، والكبير يستفيد من فهمه وادراكه في ذلك، وقد يكون عنده من التجربة والحنكـة ما يجعله يحسن الاختيـار. ولا يكفي أن تختـار رفيقـاً لا يضر أو لا يؤذي. أو لا يقـود إلى



الطريق غير المرضية. أو لا يكون تأثيره سيئاً، وإنما تختار من تستفيد منه شيئاً تضيفه إلى ما عندك من مواهب، أو مكاسب.

ومن أهم الأقوال التي تحتاج أن تعرفها إن لم تكن تعـرفهـا، وهـو قول مشهـور، ومـليء بالحكمة، والقول هو:

« إختـر الـرفيـق قبـل الطـريـق »

ولا أحتاج أن أشرح لك مؤدّاه، فالسفر يوصف في الماضي بأنه قطعة من جهنم، وعند التدبر تجد أن هذا صحيح، ويصدق على السفر في زمننا هذا في بعض الأحيـان. ولهـذا فالمـرء في حاجة إلى رفيق يخفف عنه عناء السفر، ويقاسمه تعبه، خاصة إذا علمت أنه من السنة ألا يسافر المرء وحده، والحكمة في هذا واضحة. ويقال إن السفر خير مقياس لمعرفة الصديق، لأن الاعتماد عليه في السفر محك صادق، فإن كان صدوقاً تحمّل كل ما يطلب منه في قسطه من جهـد الرحلة، وما قد يتحمّله زيادة فيها لو أعاق



الزمن صاحبه عن القيام بما هو متوقع منه لمرض أو غيره، فيقوم بما يطلب منه بنفس راضية، ويبدي من السماحة ما يؤكد ما فيه من أصل زاكي، لا يشكو ولا يتـأفف، وهـو من النوع الذي «كأنك تعطيه الذي أنت سائله».

[٣٧]

أَي بُـنَيَّ !

يضرب الفلاح مثلاً مليئاً بالحكمة والعمق، يأتي به من حصيلة تجربة طويلة، فهو لا يتأخر عن أمر كبير مفيد، فقط لأن فيه عيباً صغيراً، ولو فعل لوقفت الحياة بأكملها، لأنه ليس هناك عمل يقوم به ابن آدم كاملاً، لا عيب فيه ولا نقصان، لا في زراعته، ولا في تجارته، ولا في ماله، ولا في حيواناته. كل تدبير في هذه المجالات أو غيرها مما يتصدى له الانسان، لابد وأن يعتريه الخلل، كبر هذا الخلل أو صغر؛ بعضه يتوقع، وبعضه يأتي مفاجأة: نتيجة سوء في التقدير، أو طروء ظرف من الظروف.

و «الـدُّخن» من المزروعات التي تعتبر مصدر رزق لبعض الفلاحين في بعض المناطق، تقوم عليه حياتهم ومعيشتهم، ولكنّ زراعة الدخن لا تخلو من الآفات، فليس الدّخن طعام الانسان وحده، ولكنّه طعام العصافير أيضاً. والعصافير لا تملك شيئاً، ولا



تعترف للانسان بأنّه يملك شيئاً، ولهذا فهي تشارك الانسان في رزقه إذا لم يحفظه منها، أليس هو أحياناً يشـاركها حياتها: يصطادها ويأكلها. ولولا صغر حجمهـا، وعـدم تنـاسبه معٍ المجهود الذي يبذله لكانت من غذائه الرئيسي. إذاً فلا أقل من أن تنهب شيئاً من دخنه ليقيتها. فهل إذا فعلت هذا يغضب الفلاح؟ وتأخذه العزّة بالاثم، ويخرج عن صوابه، فيحلف ألا يزرع الدخن، لأن العصافير تأكل منه، فيعاقب بهذا نفسه بهدف معاقبتها. لا، هو أعقل من أن يفعل هذا، فهو يزرع، ويخيف العصافير، بوضـع «خَيـال» لرجل، يوهمها أنه حقيقيٍ، وإذا تجرأت وجازفت وأكلت شيئاً فقد تركت خيراً، وإذا أخذت حبّة، فقد تركت «وِقرا». ولهذا جاء المثل القائل:

« **لـو حسـبنا العصافير ما زرعنـا الدّخـن**[1] »

أجل لو أحصيتَ العصافير التي تنزل في الحقل

---

(١) الألمعي ١٩٩. دياب ١٠٥. السباعي ٧٨. مع اختلاف طفيف في الصيغ.

لهالك الأمر من كثرتها، وما قد تأكله، فالأفضل ألا تحسبها أو تعدها، أو تلقي لها بالا، وتوكل على الله وازرع الدخن. ويكفيك ما يبقى[1].

وإذا كان هذا المثل من بيئة الفلاح. فهناك مثل يرمي إلى الهدف نفسه، ويطلب النتيجة بعينها، يمكن أن يكون أتى من أي بيئة، لأنه عن السّفر وأخطار السّفر ومشاكله، وربما عن تكاليف السّفر، وعن الطريق غير الآمن، ومظنّة الضياع، والتعرض للذئاب واللصوص، والموت عطشا أو غرقا:

يقول المثل رامياً إلى ما رمى إليه المثل السابق: أن الخوف من شيء يجب ألا يثنينا عن الاقدام، لأن في عدم الاقدام خسارة كبرى، والخوف - كما تقول الحكمة - من الخوف، هو الخوف بعينه:

«لو حسبنا ما سافرنا[2]»

(١) بهذه المناسبة. يحسن أن تعرف عن هذا الحديث: روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ: ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة. رواه البخاري.

(٢) الألمعي ١٩١.



أجــل لو بقى الماء، لم يجر ولم يتحرّك، لأسن، وأصبـح ضارّاً غير نافع، ولو بقي الانسان رهين بلدتـه أو قريتـه، وكـل انســان فعل هذا لوقفت الحياة، وماتت الحركة.

إن الأمر عجيب ـ يا بني ـ تذكر منذ قليل تكلمنا عن الأخطار التي يقدم عليها بعض المغامرين ممن يصعد الجبال، ويدخل السّباق الخطر، دون أن يجد بعض الناس أن المردود يستحق هذه المجازفة. وهذا المثل يتكلم عن فائدة عظمى يجب ألا يتردد الانسان في الاقدام عليها لأجل عيب صغير فيها، لا يقف أمام النفع فيها، ونجم الضرر لا يغطي شمس النفع.

وكثيراً ما يقابل الناس مواقف يمكن أن يصلح هذا المثل في أن يستحضر فيها، فبضاعة تلزمك، ولكن فيهـا من العيب ما قد يبـدو حجر عثرة في شرائهـا، ولكنـك عنـد التـدبـر تجد أنّ الرّبح في الاقـدام. وإذا استقـريت الأمور لا تجد أن هناك شيئاً ليس فيه ما قد يوجب التوقف. السيارة التي



تركبهـا، عدّد عيوبها تجد أنها ليست قليلة، ولكن حاجتك إليها، وعظم فوائدها تجعلك تغض النظر عن المعـوقات عن شرائها، وقس على هذا ركوب الطائرة، والسباحة، والسير في الطريق. والأكل في المطاعم. وهكذا.



[٢٨]

أَي بُـنَيّ !

هذه نماذج من الأمثال المستقاة من بيئة الفلاح، حرصت على أن أعطيك عن طريقها فكرة عما كانت عليه حاله في الماضي. وكما ترى، هذه الأمثال رَجْع صدى لحيـاته، والأمثال عموماً رجع صدى لحياة الناس في أي مجتمع. ولعل من المناسب أن أختار لك الآن ـ فيما سيأتي ـ أمثالاً متفرقة، تمثل بيئات مختلفــة، ونـظرات متعـددة، وأذهـان متنـوعـة، وتكشف لك عن عقليـات في المجتمـع القـديم متبـاينـة. وما هذه الأمثال إلا وسيلة لي في كشف بعض جوانب المجتمع في الماضي لك مما لا تعرفه، وعليـك أن تقارنه بما تعرفه من حاضرك، وسترى البون شاسعاً، والشّقّة بعيدة. وأنت إن تعجب، وتفتح فمك دهشة واستغراباً على ما كانوا يسيرون عليه في حياتهم، وما كانوا يختارونه نمطاً لمعيشتهم، وتصرّفهم في حدود امكاناتهم، فهم أيضاً لو أتيح لهم أن يطلّوا من قبورهم على دنيانا اليوم لأخذتهم

الـدهشـة، وألجمت ألسنتهم المفـاجـأة، حيال ما يرون ويسمعون. سوف لا يرون جملاً ولا بغلاً ولا حماراً للمواصلات، تستحوذ على الطريق، وتسيطر على المسـالـك، ولا أبـاراً مطويّة مصدراً للمياه، يزدحم عليهـا النّـاس والدّوابّ، ولا دلاء مخروزة بعناية، طالعـةً نازلـةً لمتـح الميـاه، وسقي النـاس والحيـوانـات والـزروع، وسـوف لا يرون آلات «الخَتَام» والحرث القديمة، التي تجرّها الدواب، أو يدفعها النّاس أو يجرونها بأيديهم. ولا يرون العامل في «المنحاة» و «المسوقة» بيده ـ وهو ما مر عليك في أحد الأمثال ـ سيفقدون هذا كله، سوف لا يجدونه إلا في المتاحف أو في الصور. وسوف يرون بدلاً من هذا طائـرات تتخاطف في السماء، تخترق الأجواء والسحب، تنقل الناس من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى أخـرى، وسـيرونها أشكـالاً وأنواعاً وأحجاماً مختلفة. وسيرون عابرات محيطات، تمخر العباب، في حجم المـدن، تنقـل المسـافـرين والسـائحـين والمقـاتلين والبضـائـع والعتاد، والسيارات، ذات



أحجـام متبـاينة، تنهب الأرض، وتطوي الفيافي، ركابها في جوّ يكيفونه كما يريدون، مثلهم مثل من في الـطائرات والبواخر والقطارات أو في البيوت. وســيرون قطارات تمرق عبر السهـول والـوديـان والأنفـاق والجبـال، فيها مقاعد مريحة، وصالات للطعام، وسرر للنوم. وسيرون تليفزيونات تقرب البعيـد، وتبعـد القريب، تريك ماعلى بعد آلاف الكيلومـترات بألوانه وأصواته وأحجامه، لا تخفي سمة أو لمحة أو نغمة صوت. وتليفونات قضت على المـراسـلات والمكـاتبـات وحلت محلهـا بكفـاءة وجـدارة، توصلك بآخر الدنيا في أقل من غمضة عين وانفتاحتها، «وتلكساً» و «فاكسميلي» يقضيان غرضك مثلما يفعل التليفون. وحاسب آلي يعطيك حصيلة تفكير جيل كامل واحصائياته، مما كان في الماضي، في ثوان معدودة، ويستخرج من المعلومات البسيطة استخراجات طولا وعرضاً تحتاج إلى جيش من البشر في المـاضي، وسنـين مما يعـدّ النـاس. وسـيرون بيوتاً بنيت من عشرات الطوابق، الليل

فيهـا والنهـار متسـاو، والجـو موزون كما يريـد الساكن، وكما يتفق مع مزاجه وطبيعته.

سوف - يا بني - يرتعبون، ويصعقون، وتلجم أفواههم الدهشة، فوق لجام الموت الذي هم فيه، ويعودون إلى قبورهم هانئين راضين بما كان عليه زمنهم؛ لأنهم رأوا زمناً يلهث راكضاً، لا يلوي على شيء؛ فهـو في ضجيـج وعجيـج، وضوضـاء وصخب، وحـركـة دائبـة، لا تني ولا تسـتريح. وعجلة تدور بسرعـة فائقة، إن لم تَدُر أنت معها بسرعتها وعلى طريقتها طحنتك، وإن درت معها هرستـك، فأنت ضحيتها في كل الأحوال. ولكنه - يا بني - زمنـك، رضيت بوسائله المميزة، فاقبل نتائجه وإن قل رضاك عنها.



[٣٩]

أَي بُنَيّ !

بعض الأحيان يأتي المثل بحكمة متقنة لا يختلف فيها اثنان، «ولا تنتطح ـ كما يقول المثل ـ فيها عنزان». يعطي الحقيقة بأبهى صور جمالها، وقد قرب المعنى للذهن، فجعل المرء يعجب حين يسمع المثل كيف لم ينتبه إلى هذه الحقيقة إلا بعد أن صيغت بهذه الطريقة. يقول المثل:

« **أدعي على ولدي، وأكره من يقول آمين**[1] »

يغضب الوالد أو الوالدة على ابنهما، وفي لحظة الغضب وشدته يدعي أحدهما على ابنه، ولكنها دعوة لا تخرج من القلب، وإنما هي ضحلة، وعلى طرف اللسان، وما هي إلا صوت أجوف لحروف فارغة المعنى لا تعني شيئاً. ولكنها نفثة صدر ممتلىء، ولا يجوز لأحد أن يقول حين يسمعها «آمين» فهذا كما يقول المثل العامي «دخول بين البصلة

---

(١) السباعي ١٢ . دياب ١٣ .

وقشرتها»، والداخل بينهما لا يناله من البصلة إلا «نتنها» و«عفانتها»، فقد تلتفت الأم أو الأب على المؤمّن، وتمطره بوابل من كلمات الغضب، وقد تقول له لو كان المدعو عليه ابنك لما أمّنت. وينقلب تيار المعركة إلى المؤمِّن، فتُفرَغ عليه شحنة الغضب برضا وارتياح من الغاضب، فالذي سوف يصعق ليس الابن، وأنما غريب عن العائلة.

إن الوالد أو الوالدة إذا دعيا فانهما لا يريدان أن يستجيب الله دعوتهما، إذا كانت الدعوة على ابنهما، وليست له. هما يريدان أن يُسمِعا الابن مبلغ غضبهما فقط، وهذه وسيلة من وسائل ذلك. فلعله يعود عما ارتكب من خطأ، أو أقدم عليه من جنوح، أو لا يعود إلى مثله إذا كان الأمر قد وقع منه الضرر.

عندما يقول أحد الوالدين لابنه «وجع» أو «عمى»، أو «عساك للموت» أو «الله يأخذك» أو «عساك للكسر»، ـ وهي الدعوات التي على الألسن عند الغضب، فانهما لا يريدان أن يقع شيء من

هذا، وكيف يريدانه وهو إذا عطس سهرا، وإذا بدا عليه كسل في الحركة، أو صموت في الكلام غير معتاد قلقا، ولو عثر سمّيا عليه، وإذا تأخر خارج البيت دقّت قلوبهما.

أليس هذا المثل صادقاً، ينطبق على كل أب وأم طبيعيين، وفي كل موقف غضب طبيعي، لأن هذا هو الواقع، فهو يتماشى مع عاطفة الأبوة والأمومة. والدعاء على الأولاد عند جيشان الغضب يحدث مرات ومرات في حياة الآباء الطويلة. ومواقف الأبناء، من خلال حياتهم وصحبتهم لوالديهم، لا تخلو من تقصير مردّه عدم النّضج، ولأن عاطفة الابن نحو والديه ليست مثل عاطفتهما نحوه في بعض مراحل نموّه. ولهذا فمصلحة الوالدين، ومراعاة خاطرهما، ليست دائماً على باله، مثلما مصلحته على بالهما دائماً. ألم يقل المثل الثاني:

« قلبي على ولدي انفطر وقلب ولدي عَلَيَّ حجر[1] »

(١) السباعي ٦٦ .



والمثل الثالث :

« **عين الوالد بالولد وعين الولد بالسند**[1] »

هذان المثلان ـ يا بني ـ يعطيان صورتين أخريين على نمط المثـل الأول، ويريان جانباً مما يقوم بين الآباء والأبناء في بعض الأحيان، إلا من رحم الله بتربية حسنة، أو بتأثر بأوامر الدين ونواهيه، وفيه ما يكفي لاعمار العلاقة بين الابن أو الابنة ووالديهما.

(١) الألمعي ١٤٩ .

[٣٠]

أَي بُـنَيّ !

لننتقل إلى مثل آخر يعكس ما يجري في البيئة في زمن أجدادك . يقول قائلهم :

« **من ردّ ما كأنّه شـرد**[١] »

تُحِسّ ـ يا بني ـ من الاستعــارة أنها قيلت وفي الـذهن جمل، وهـروبـه يسمى شروداً، والفرحة بعـودة الشـارد أو الهارب أو الآبق تنسي فقدانه، وتُعِيش المــرء في بهجـة لحظة العـودة، سواء كان الشارد جملاً، أو آبناً غاضباً، ردّه عقله بعد التفكير وفي ساعة هدوء إلى أهله، أو صديقاً جفا صديقه، ثم أدرك الخطأ فعاد إلى ما كان عليه مع صديقه. وهـذا المثل من الأمثلة التي احتوت ضمناً شرطاً، وأخذت صورته من البيئة، وما يحدث فيها، فهي بيئة شهدت كثيراً من شرود الحيوان وعودته، ولا ضير أن يستعـار المثـل لعـودة الانسان إلى أهله،

---

(١) الجهيمان ٨/ ١٧٠ . وفي كتاب الألمعي ٢١٨ : «من ردّ ما كنّه شرد» .



والصديق إلى صديقه، والزوجة إلى زوجها، والتلميذ إلى مدرسته، والموظف إلى عمله، والعامل إلى مهنته. ويكون ذلك مثل عودة الجمل الشارد إلى مراحه، والعنز إلى حظيرتها، أو الصقر إلى وكره، أو الحمامة إلى «مخفقها».

وهذا المثل لا يعرف قوة فرحةِ مَن ذُكر فيه أنه عاد إلا من فقد شيئاً غالياً عليه، ثم وجده فجأة قد عاد إلى حيث افتقد. إنه شعور نفسي عميق، لا تصوّره كلمات المثل على قوتها، ولكنها أقرب إلى أن تعطي النتيجة، فهي توحي بأن من عاد إليه مفقود ألهته الفرحة عن العتاب، أو إنزال الجزاء، أو اتّخاذ ما قد يكون أشد تحرزاً في المستقبل. وهذا يجعل الحاضر مختلفاً في المعاملة عن الماضي، وإذا كان الماضي فيه من التساهل ما سمح بالشرود، فالمستقبل يجب أن تضيق فيه منافذ الشرود. لا. ان المثل يؤكد أن يكون التّصرف في المستقبل كما كان في الماضي، وأن يعتبر الشّارد كأنه لم يشرد في جميع ما يحيط بالأمر.



وقريب من هذا المثل في الاعذار لمن جاء بعد انتظار، المثل القائل:

« ما أبطأ من وصل[1] »

وهو مثلٌ فضيلتهُ في أنه يعذّر لمن شغله شاغل عن أن يحضر في الوقت المحدد مثلاً. ويعيد الناحية النّفسية إلى مكانها الطبيعي بين المدعو والداعي المنتظر، فقد يكون الداعي على الغداء أو العشاء قلقاً بعد أن تأخر المدعو عن الوقت المحدد، فإذا وصل طغت الفرحة على الداعي وضيوفه، وزال الضيق الذي سكن صدورهم، فالداعي قبل أن يصل الضيف يضرب أخماساً في أسداس، هل أخطأتُ في تحديد الموعد؟ هل فهم الضيف غير ما أردتُ؟ هل لم يعرف الطريق إلى البيت؟ لعل المانع خيراً، ويرجو ألا يكون حدث لضيفه حادث! وعندما يصل إلى مثل هذا، يقنع نفسه، دفعاً للهاجس السيء، أن ضيفه قد نسي.

---

(١) «لا تقل لغايب ويش ألهاك»، الألمعي: ١٩٦.

لهذا تقوى نفس المضيف عندما يرى ضيفه، فيحاول الضّيف أن يشرح أسباب تأخره، ويبين ما عاقه عن المجيء في الوقت المحدد، فيبادره المضيف قائلاً: «ما تأخّر من وصل»، وكأن مجيئه أنساه التأخير، ولم يعد للعذر قيمة.

إن هذا المثل من الأمثلة المفيدة، ويلمح فيه زبدة تجربة طويلة، ومن قاله عالم في علم النفس، لأنه يلمس النفس في طمأنتها عند القلق. ويبدو أنه لا يخلو من الاستفادة منه، أو ما يماثله، مجتمع في العالم، فالانجليز يقولون: «أفضل أن تتأخر عن أن لا تأتي». أليس في هذا منطق سليم؟ ولكنه لم يراع كالمثل العربي بدقةٍ الناحيةَ النّفسية، والقلقَ الذي يرزح تحت نيره المُنتظِر. ولعلّ مثلهم قديم، قبل أن يصبح الوقت عندهم مهمّا كما هو الآن. فهم اليوم يحاسبون على الدقيقة، وقد لا يفتحون الباب للمتأخر سواء كان ضيفاً، أو رجلاً جاء لمكتب في موعد صفقة بيع أو شراء.



والأمثـال العالمية ـ يا بني ـ تتداخل، تجد هذا المثل في هذه البلاد، وتجده في بلاد أخرى مع تغيير بسيط. وعالمية الأمثال طبيعية، لأن العقل لا يحده حدود، فهــو موجــود في رأس العــربي ورأس الانجليزي، ورأس الفرنسي، وقد يتماثل التفكير، وقـد يتماثل الحكم على أمر واحد في وقت لم يلتق أصحابه وجهاً لوجه، ولكنهم وهم في غيابهم التقوا فكراً وفكراً، وقد يسافر المثل ـ مثلما تسافر مظاهر الحضارات ـ من إقليم إلى إقليم، مرّات متعدّدة، فتجد مثلاً ما من الأمثال، مرّ بعدة لغات، متنقلاً من واحـدة إلى أخـرى، فألقحها فجـاءت بانتاج جميـل. وسـوف لا أكثر لك من الأمثلة في هذا، ولكني بجانب المثل الذي نحن بصدده أسوق لك مثلاً آخر، تجده في كل لغة تقريباً، وان تغير تحديد العدد فيه أحياناً؛ يقول المثل:

«عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة»[1]

(١) وقـد تحلّ الجـرادة في بيئة عربية محلّ العصفور أو الطير:
«جــرادة في اليــد ولا عشرة طايــرة». السبـاعي: ٢٥.
«عصفـوره في اليـد ولا عشرة طائـرة»، السبـاعي: ٥٥.
«جرادة في يدي ولا عشر نوافر»، الألمعي: ٥٩.



فهذا المثل تجده في كثير من اللغات، وقد يكون في كل اللغات، ولكنه أحياناً يتغيّر تغيراً طفيفاً، إما بتـأثـير البيئـة، أو بتأثير عقلية القائل، أو مراعاة لعقلية السامع، فيقولون مثلاً: طير في اليد خير من عشرة على الشجرة. وقد يقولون: واحد في اليد ولا عشرة على الشجرة، أو في الهواء، أو تختصر العشرة إلى خمسة، أو تزاد العشرة إلى مئة وألف، وهكذا.

ومعِ هذا ـ يا بني ـ فهذا لا يجيز التأخير تهاوناً أو احتقاراً للمنتظر، لأن المجيء في الموعد المحدد دليل حضارة عريقة لعدة أسباب:

أوّلاً : أنه يدل على معرفة بقيمة الوقت، وتقديره، والـوقـت ـ يا بني ـ من أثمن ما يملكـه الانسان، وإن لم يحافظ عليه، طار وتبخر كما يتبخر الكحول.

ثانياً : يدل على أن الانسـان منظم فيما يفكر فيه وفيما يعمله، وليس هناك شيء أجمل من أن



توصف بأنك منظّم، وجمال ذلك يتبين عندما تقارن هذه الكلمة بكلمة «مشوش» أو «فوضوي».

ثالثاً : أن للناس عنده مقداراً، فهو يعطيهم الاعتبار اللائق بهم مثلما أعطوه هم اعتباراً، فالداعي إلى وليمة مثلاً لم يدعك إلا لأنه يقدّرك أو يعزّك أو لأن لك قيمة عنده، ومنزلة. فلا أقل من أن تقابل هذه المكرمة، وتجازي صاحبها بالحسنى، فتأتِي إلى الدعوة في الموعد الذي ارتضاه، وقبلته أنت.

رابعاً : أنت تساهم في تثبيت عادة حسنة، وخلق نبيل، يقتدى بك فيه الآخرون، وإذا شذّ غيرك فإنه يكون واضحاً للناّس، وقد يسهل تعديل اعوجاج واحد عن تقويم اعوجاج اثنين أو أكثر. وإن لم يتكاتف الناس في ذلك، أصبح المحافِظ على الوعد هو الشاذ، ومسكين المجتمع الذي هذه



صفة أهله، أنه مدبر وإلى زوال، لأنه لا يبقى إلا الصالح.

خامساً: إن التأخير في المجيء في الموعد، هو نصفُ اخلافٍ للموعد، وتذكّر - يا بني - ما هي علامات المنافق في ديننا. هي ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان. وعلى هذا فمن يتأخر متعمداً يمكن أن نعتبره، محقِّين نصف منافق. أرأيت كيف يكون الحكم قاسياً، دون أن ندرك، إذا لم نكن حذرين، ونتمسّك بالخلق الحسن، ولا نتهاون فيه.

سادسا: قد يفوت الغرض إذا تأخر الانسان عن الموعد، فإذا كانت دعوة، فتكون «الطيور طارت بأرزاقها» ولم يبق للمتأخر إلا «الكسفة»، و «الفشيلة» ولحس الصحون. وقد يكون الموعد موعد سفر بالطائرة، فتتركه الطيارة يعض أنامل الندم. وقد



يكون الموعد موعد الصلاة فيفوته أجرها، ويلحقه من جراء ذلك إثم .

هذه أمثلة لما يمكن أن يعدد في هذا المجال، ولو استقينا جميع الأسباب لتبين أنها تكاد لا تحد.

[٣١]

أَي بُـنَيّ !

وهناك مثل آخر من الأمثلة التي ضمت شرطاً، وتمثل بيئة اختفت باختفاء معالم العهد الماضي، بعد أن مرت عليها يد الحاضر، فمسحتها دون أن تبقي منها إلا ما قد يكون في القرى أو المناطق النائية. يقول المثل:

« من طاوع المشراق والفيّ ما ساد[1] »

والمشراق مظهر كان معروفاً في نجد في المدن والقرى، يخرج الرجال، خاصة كبار السن، في الصباح، فيجلسون يتحدثون في «ذرى» أحد البيوت عن الهواء، وفي مكان تشرق عليه الشمس في الصباح الباكر، أول ما تشرق، يطلبون دفأها، بعد ليل شتاء قارس، وصل برده إلى العظم، واستقرّ فيه، ويتعذّرون بهذا للالتقاء والأنس. وهذا بلا شك مظهر كسل إذا قيس بمظهر العاملين

(١) الجهيمان ٨/ ١٩١ .



في الصباح، الذين يدفئون أجسامهم بالكد والكدح، وحفر الحفر، وردمها، وحمل الأثقال، والحركة هنا وهناك، وينسون البرد عند قرصة الجوع التي تذكرهم بأنّ عليهم أن يعملوا حتى يسكتوا «عصافير المعدة» لهم ولأولادهم.

المشراق - يا بني - والجلوس في الشمس، طلباً للدفء، يتم طبعاً في الشتاء، أما في الصيف فهؤلاء أنفسهم يبحثون عن الظل، هرباً من الشّمس ووهجها، يبحثون عن فيء بيت، أو ظل شجرة أو سقيفة، وهو مظهر كسل آخر. فيؤدي المثل رسالته التي قيل من أجلها، ويقول: إن من يبحث عما يريحه صيفاً وشتاء فلا يتطلع أن يسود، وأن يكون رأساً في قومه، بل سيبقى في مؤخرة الصف، ذيلاً لغيره، ومسوداً لا سيِّداً، لأن السّيادة بمكابدة الصّعب، ومعاناة المزعج، ومن طلب العلا سهر الليالي.

والمثل - يا بني - مثل، يضرب لينطبق على حالات كثيرة، فهو لا يبقى جامداً على الذين

يجلسون في المشراق، أو يتفيؤون الظلال. بل لعل بعض هؤلاء لا يفعلون ذلك إلا للحظات ينطلقون بعدها إلى أعمالهم بجد واجتهاد، لا كسل فيه ولا تواني، فهو لا ينطبق عليهم بقدر ما ينطبق على أبناء جيلك، الذين يفضلون الرّاحة أحياناً على التّعب، فتكــون النتيجـة أنّهم يكـونـون آخـر الصف في دراستهم، إذا ما ركنـوا إلى لذّة أفـلام التلفزيون والفيديو، وتركوا شدّة الدّروس، ومعاناة دراستها، والسهـر عليها. وينطبق - يا بني - على التّاجر في دكانه، يجلس في بيته، أو بين أصدقائه، يلهو معهم ويمرح، ويترك دكّانه لأجير يفعل فيه ما يشاء، وفي زبائنه ما يحلو له، دون مراعاة لتجارة من استأجره، ربحت هذه التجارة أو خسرت، جلبت الزبائن أو نفّـرتهم. وقس على هذا آخـرين يهملون واجبهم طلباً للرّاحة واللّذة، فلا يحصدون إلا ما يجعلهم يندمون.

والمشراق، وفيء البيوت، وظل الشجر، اختفى من حيـاة الناس الآن، إلا ما قد يكون في بعض



المناطق النائية أو المنزوية عن جادة السير الحضاري، الذي نعيشه. المشراق عَوَّض عنه - يا بني - وسائل تدفئة حديثة، منها المركزي في البيوت، ومنها الدفايات التي لا تحوجك أكثر من ادخال طرفها في الجدار، في مركز الكهرباء. حتى الحطب والنّار - يا بني - لم تعد أساسية لحياة الناس، وإنّما يشتاقون إليها بين آن وآخر إذا خرجوا للبر، واسترداداً لذكرى قديمة، أو تقليداً من الشباب لآبائهم، متعةً لا عوزاً، وفسحةً لا حاجة.

والمكيّفات ، عدة الصيف، أصبحتَ أنت تختار منها ما يناسبك، وما يماشي محفظتك وجيبك، ويتماشى مع مظهر الغرفة، تشغّل هذا في هذه الغرفة، وتطفىء هذا في تلك الحجرة، تشغّل هذا لبعض البيت، وهذا لمجمل البيت، على سرعة متدنّية أو متوسطة أو عالية. هذا له صوت، وهذا خفيض الصوت، وهذا لا صوت له: أوتار صوته مخنوقة، لا تكاد تسمع منه نأمة.

ولو رأيت إنساناً اليوم ـ يا بني ـ جالساً في الشتاء في الشّمس عند زاوية الشّارع عند أحد البيوت، لأخذتك الظنون في أسباب جلوسه، أنت وغيرك ممن يمر به، ولو رأيت أحداً وقت القيلولة يستظل بشجرة، أو في ظل بيت، لعرفت أنه «أجنبي» يعمل في الحي، بعيداً عن مستكنّه. سوف يأتي يوم لا يعرف النّاس ما تعني كلمة «المشراق»، إلا إذا قرؤا عنها هنا وهناك، كما تقرؤون اليوم عن آثار الماضين.

رحم الله المشراق وأيام المشراق وأهل المشراق.

ولقد تحدثت معك ـ يا بني ـ في عدة مناسبات، وكلما وجدت للحديث إليك سبيلا، وكلَّما ظننت أن أذنك سوف تكون صاغية، سوف أتحدث عن هؤلاء القوم الكرام وجدِّهم في حياتهم، وحرصهم على أوقاتهم، وعدم ترددهم في تأنيب من يبدو أنه على غير ما ألفوا. فهم لا يتهاونون، لأنهم يعرفون أنّ في انتشار ظاهرة الكسل أو التهاون في مجتمعهم هدماً، واغراءاً لمجاوريهم في الطمع بهم. وأنت تعرف ـ يا بني ـ كيف كانت حروب الطمع في تلك



الفترة، قائمة على قدم وساق، وهذا المثل بالنسبة لمجتمعهم مثــل السّـوط عنـد المتبلدين، يكفيهم التلميح والعتب عن طريق مَثَلٍ يقال مثل هذا، له وقع السحر، وتأثير حد السيف.

أرأيت كيف أن جلسـة في حمى بيت، للتمتـع بالشّمس التي لا يملك بعض الناس غيرها في ذلك الزمن، تجعلهم يقلقون، كيف لو رأوا كسالى اليوم الذين ينتهي النهار والليل بأكمله لم يزرعوا شيئاً، ولا يتـطلعون على هذا لحصد شيء، رغم سهولة الأمـور في كل مجال في المعيشـة وفي الوسائل وفي المـواصـلات، وفي كل شيء يجعل العمل مثمراً، ومجـديـاً، براحـة وسـلامـة. ويبـدو أن الالتفات للوسائل الحديثة وتطويرها والانشغال بها، ومتابعة ما يستجد منها، والتسابق في اختراعاتها ألهى الناس في الغرب عن الجوانب الروحية المضيئة، والخشية - يا بني - أن تسري العدوى منهم إلينا. لهذا آتي أنا وغيري وننبّهك إلى هذا حتى تعرف الأمور على حقيقتها.

[٣٣]

أَي بُـنَيّ !

كان الناس في الماضي لا يجدون في جزيرة العرب ما يصل إلى مستوى طموحهم، في الرزق والمعيشة، وكان النشيط منهم، وذو الهمة العالية، يسافر خارجها إلى العراق أو الشام أو الهند، يغيب سنين عديدة، ويتوقع أن يعود وقد جاء بما أمّل أن يحصل عليه. وكلما طالت غيبته كانت الغنيمة المتوقعة كبيرة. ولهذا يقولون ـ يا بني ـ:

« من طوّل الغيبات جاب الغنايم[1] »

وهو مثل ـ كما ترى ـ قائم أيضاً على الشرط. والمثل منتزع من البيئة في الجزيرة، وما يجري فيها، في جانب السفر، طموحاً لكسب الرزق، نتيجة للقصر والعوز. أما اليوم، والحمد لله، فالجزيرة فيها من الخيرات ما يأتي الناس من خارجها ليغنموا منه.

(١) «من طوّل الغياب جاب الغنايم»، الألمعي: ٢٣٩.



ومع هذا فالمثل سوف يبقى، وسوف تقول لابنك إذا عاد من دراسته في الخارج، وأمّلت فيه مع طول المدة التي قضاها هناك، بعد أن يكون عاد ومعه الماجستير والدكتوراه: «من طوّل الغيبات جاب الغنايم». وسيقولها رجل الأعمال لآخر إذا عاد بعد رحلة شاقة، ومعه عقود عمل، لتصدير سلع، أو جلب سلع، أو انشاء مصنع، أو مشاركة في عمل.

وستقولها أنت لزميل تفكُّها في أبسط الأمور، وأقصر المدد إذا غاب عنك. فالمثل حي، وهو على ألسنة الناس.

ولو فكّرت فيه ـ يا بني ـ لوجدت أنّ فيه مجازاً مستعاراً لما قيل له أصلاً، فالذين يذهبون ويكسبون من البيع والشراء لا يعتبر ما رجعوا به غنيمة، فالغنائم هي مكاسب الحرب، وهذه مكاسب سلم. فقائل المثل إذاً في ذهنه الغزاة الذين يتركون القبيلة ليغيروا ويغنموا. ويتوقع منهم إذا طال غيابهم أن يكون كسبهم بقدر غيابهم وطوله.



وهـذا هو أصـل المعنى، ولكنّـه استفيد منه لكل غياب حضر صاحبه منه.

والناس ـ في ذلك الزمن ـ كانوا يتوقعون لكل غياب فائدة، وينتظرون مردوداً. وهم لا يعرفون في تلك الأيـام السفر للمتعة والسياحة، ولو وجد أحد بهذه الصفة فهذا نادرٌ، لأنّ الرحلة تحتاج إلى مال. والمسافر يوفر منه ما يكفي رحلة للهجرة أو للتجارة. لهذا كان في ذهنهم أن كل مسافر سيعود بغنيمة.

وغنائم زمننا ـ يا بني ـ إذا لم تكن شهادة يتحصل عليها، أو صحة عاد بها بعد سقم، أو رحلة تجارة فاوض من أجلهـا، أو ابـرم عقـوداً، فهي الهدايا للأهـل والأصحـاب. والهـدايا ـ يا بني ـ مفاتيح القلوب، مهـما صغـرت، لأن المهم فيهـا ليس حجمهـا أو قيمتهـا ـ كما يقول المثل الانجليزي ـ ولكن في التفكـير الـذي يكمن وراءهـا، وتـذكر القـريب أو الصـاحب أو الصـديق في الغـربـة، وحساب فرحته في العودة. وإذا لم يأت بهدية فإن



أهله يقولون له «أنت الهدية»، لأن عودته سالماً أكبر هدية لهم.

وإذا كان المثل إذا ألقي فهو دليل الاهتمام، فإن في الهدايا مثلاً قد يؤكد أهمية المثل وهو: «الهدية على قدر مهديها»، وهو مثل صحيح وصادق، فلا يتوقع من محدودِ الدّخل أن يبيع ما وراءه وما دونه ليهدي شخصاً ذا مقام هدية تتناسب مع مقامه. المهم في مناسبتها للمهدَى له، ويستدل المهدَى له على عقل المهدي وتفكيره بهديته، ولهذا تأنّ وفكر عندما تهدي، ولمن تهدي، لأنّ الهدية من القادر أحياناً محرجة لغير القادر الذي سوف يحمل الهمّ كيف يردّ لك الهدية. وفرق - يا بني - بين الهدية والعطية. ولا أود أن أطيل عليك في أمر الهدايا، فهذا ميدان واسع، وحقل خصب، ولكل أمة فيه رأي وفلسفة، وفي كل لغة قول، ولكن يحسن أن أذكر هنا ما يقوله الانجليز، وهو قول حكيم، والحكمة ضالة المؤمن أين وجدها التقطها. ويسعى إلى الحكمة ولو في الصين، هذا عندما كانت الصين



أبعد بلد في العالم يعرفه المسلمون. يقول المثل «لا تنظر وتتمعن في ثنايا[1] الحصان إذا أهدي لك»: أي لا تحاول أن تعرف هل هو صغير السن أو هرم، فالهدية لا تقلب ولا تختبر ولا تفحص.

وقس على هذا - يا بني - لو جاءتك هدية من شخص، وكان عندك مثلها، فلا تقل إنها لن تفيدك، وبودك لو أهدي لك ما أنت في حاجة إليه. وإذا أهدي لك هدية فوجدت أن بها خللاً يمنع من الاستفادة منها فلا تُعِدها، وتظاهر بأنّها صالحة، فقد توقع مهديها في حرج أو مشكلة. واعمل مثل ما يعمل الانجليز في استقبالهم للهدايا، إنهم يتظاهرون بأنّ هذه الهديّة هي ما كانوا يتطلعون إلى احتيازه أو تملكه، وأن المهدي وفق في اختياره.

على كل حال - كما ترى - استولى الانجليز في حديثنا هذا على بعض أقوالنا!

(١) معرفة عمر الحيوان تأتي عن طريق النظر إلى ثناياه، وهي أسنانُه الأمامية، وهذا يقتضي أن تقلب شفتيه، لتستطيع الرؤية بامعان إلى ثناياه.

[٣٣]

أَي بُـنَيّ !

منذ القدم والعرب يحث الأب منهم ابنه أن لا يقــول: كان أبي، وإنــما يقـول: ها أنـذا. لأن الاعتزاز بالأب ـ مع الخيابة والتدني في المنزلة ـ ادعاء عيبه على المُفاخِر أكثر من نفعه له. والعامّة لهم مثل أخـذوه من بيئتهم، وصـاغـوه بتعبـيرهم، وعـلى طريقتهم في طرق ما يفيـد حكمـة، أو يأتي برأي سديد. يقول مثلهم، المبني أيضاً مثل سابقه على شرط:

« **من قـال أبـوي فـلان قـل لـه ومـن أنـت**[١] »

كأنّـك تنبّهه إلى شيء نسيه، أو لا يدري أنك متنبّـه له. وقـد لا يفيـده سؤالك إذا كان أبوه في القمّة، وهو معه فيها بكدّه وعمله، وبمحافظته على ما وصله أبوه، أو وصل إليه هو. المهم ألا يغفل عن موقعه هو في حماسهِ بالافتخار بوالده، فقد يكون

(١) الجهيمان ٨/ ٢٠٩ .



موقع والده المرتفع لم ينفعه هو لانحداره، وربما جرّ لسمعته السيئة معه والده الذي بنى سمعةً تعب على بنائها، فأضاعها ابنه، أو عجز عن المحافظة على مستواها الذي كانت عليه عندما مات والده.

والمثل لا يعني أنك لا تفاخر بأبيك، ولا تذكر فضله، لأن هذا برّ أنت مطالب به في حياة والدك، وبعد وفاته. ومن قطع صلته بماضيه انْبَتَّ من حاضره ومستقبله. فالتعلق بالجذور أمر فيه جذل يورث جيلاً بعد جيل. وبعض الذين لا ماضي مجيد لآبائهم، يحاولون أن يضخموا ما كان لهم من أمر صغير، حتى يكون لهم مكان في مجتمع يهمه ما كان عليه الآباء من اتصاف بالنجاح، أو سمعة في الأمانة، أو الصدق، أو النخوة أو الشجاعة، أو الغنى، أو أي فضيلة يذكرها الابن أو الحفيد رافعاً رأسه.

ولعلك تذكر بيت الشعر الذي يقول:

إن الفتى من يقول ها أنذا

ليس الفتى من يقول كان أبي



فالنـاس لا يهمهم ما كان أبوك إنما يهمهم من أنت، لأنهم سيتعاملون معك لا مع أبيك، خاصة إذا كان ميتا.

والسعي لأن يَبُزّ الابن أباه، مهما كان صيته حسناً وعـالياً، أمر مطلوب، لأنه لا يتقاعس عن طلب المعالي إلا الخائب المتواني. قال رجل لابنه: مثل من تريد أن تكون ـ يا بني ـ؟ قال أريد أن أكون مثلك. قال: لن تكـون مثـلي، لأن الانسـان يقصر في التشبـه، وأنـا حاولت أن أكون مثل علي ابن أبي طالب، وها أنذا لم أصل إلى شيء مما هو عليه، فإذا أردت أن تكـون مثـلي، فسـوف لا تصـل إلى ما وصلتُ إليه. ولكن انظر إلى أحدٍ ممن هو أحسن مني، واركض خلفـه، واتسم بسماته. وحاول أن تجد وتجتهد فتكون مثله.

وهذا صحيح ـ يا بني ـ على المرء أن يسعى أن يكـون في أحسن صورة رآها، وألا يقنع بما دون النجوم ـ كما يقول المثل ـ.

[٣٤]

أَي بُـنَيّ !

يكفي ما قلناه في الأمثلة السابقة فيما فيه شرط، وهـو نموذج للكثير مما قيل على هذا النسق. وهو يوضـح اتجـاه الآباء والأجداد في صياغة الأمثال. ويقرب منه في الصياغة والاسلوب ما يأتي محصوراً بين نفي وإثبات، مثل قولهم:

« **ما عنـدنـا لهـم إلا المصبّـب والمحبّـب**[1] »

والمصبّب والمحبّب نوعـان من أنواع الرصاص كان يستعمـل في بنادق تلك الأيام. والمثل يعطي الـزّمن الذي قيل فيه هذا المثل، وأنه قيل بعد أن اخترعت البنادق، ودخلت نجداً، وتحارب الناس بها، وفي وقت كانت هذه الذخيرة هي المستعملة، ويستـدل من لفظ المثـل بأن هذين النـوعـين من الـذّخيرة هما أفضل الأنواع، وأكثرها تأثيراً، لهذا خُوِّف بها العدو، فهي دليل قوةٍ سَاعَدَ على الإصرار على عدم التهاون في حقوق القائلين بهذا المثل.

(١) الجهيمان ٧/ ٩٨.



فالمثل إذاً يضرب للاصرار على أخذ الحق كاملاً دون تساهل، ولو أدى هذا إلى استعمال أقصى وسائل القوة، ولكم اليوم - يا بني - من أنواع الرصاص والقذائف والصواريخ ما يعطيكم ثروة تصوغون منها أمثالكم - إن أردتم - على نسق هذا المثل. فيمكن أن تقولوا ما عندنا لهم إلا طائرة الشبح، أو صاروخ باتريوت. أو ما إليهما.

والمرء يتصور البيئة التي أوصت بهذا المثل، فقد كانت بيئة تطاحن وعراك لا ينتهي، بين البادية والبادية، والحاضرة والحاضرة، وبين الحاضرة والبادية، وبين مدينة وأخرى، وقرية وثانية، وبين أهل الجزيرة بعضهم مع بعض، ومع وافدِين إليها من خارجها: كان للبرتغاليين دور في الخليج في وقت من الأوقات، وقاومهم سكانها، وكان لهم طموح على ساحل البحر الأحمر، وأرادوا أن يتغلغلوا حتى يصلوا مكة، ولكنّ الله خذلهم، وردهم خائبين. وقامت معارك بين أبناء الجزيرة وجيوش الأتراك كان للمصبّب والمحبّب وما هو



أقوى منه دور كبير في المعارك، كُسِبت فيه معارك، وخُسِرت معارك. ثم صار للانجليز دور بقوا بسببه على أطراف الجزيرة زمنا، حتى تخلصت منهم.



[٣٥]

أَي بُـنَيَّ !

هناك مثل آخر فيه هذا الحصر يتمثل في قولهم :

« **ما يـوجـس النّـار إلا واطيهـا**[1] »

والنار جزء من حياة الناس اليومية ، لا يستغنون عنهـا ، وهي تخدمهم ويسيطرون عليها لمنافعهم ، فهي بين الرجال في و «جار» القهوة ، يصنعون عليها الشاي والقهوة ، ويتدفؤون عليها ، ويأخذون منها جمراً لبخورهم ، ويستعملونها استعمالاً قد لا يطرأ على بال ابن اليـوم ، فهم يحمّون فيها المياسم جمع ميسم ، يسمون بها ابلهم وأغنامهم ، ويكوون بها مريضهم طلباً للعافية ، فهي دواء للجنبه ، ولعرق النّسـاء مضمـون . منـظرهـا يؤنسهم ، إن جلسوا حولها ، وهي رابطة عقدهم في الليل ، وفي الصباح الباكر ، وهي مصدر فرحة القادم إلى الحي أو القبيلة يراها من بعيد ، فتملؤه أملاً في ضيافة تريحه وتشبعه .

---

(١) الجهيمان ٧/ ٥٧ .

وهـي للنســـاء أداة طبــخ في «مـــواقــدهنّ» ومـطابخهن، يطبخن عليهـا أكـل عائلتهن، وما تحتاجه ضيافتهم من شاي وقهوة، وما تحتاجه ربة البيت من غسيــل وتنـظيف. والنـار مادة يوميّـة مسـاعـدة ومهمّة. ولها ما لها من حطب ومكان، ومكانها عند الرجال والنساء في الأرض، في مستوى الاقدام. سواء كانت في الوجار أم خارجه.

وليست مثـل ما هي اليـوم عليه في وجودها في مكـان مرتفـع على مستـوى وقفة الانسان، ولهذا فالانسان معرض أن تطأ قدمه النار خطأ أو نسيانا. والــذي تطأ قدمـه النـار المتّقـدة هو الـذي يحسّ بحرارتها، لا من شاهده يطؤها.

فالمثل إذاً صادق في البيئة التي قيل فيها، ويمثل هذه البيئـة، ولابنِ اليـوم أن يتمثـل به، فَتَصَـوُّرُ مدلولِه ليس بعيداً عن الذهن.

وهــو مثـل - كما رأيت يا بني - يمكن ضربـه لحالات كثـيرة، يكـون المتكلم بعيداً عن الشعور



الحقيقي للمخاطب، يستسهل أمراً يراه معاينه صعباً، وهناك مثل يسير على نمط هذا، ويؤدي غرضه، وهو قولهم:

« **ليس من يذوق الضرب مثل من يعده**[1] »

لأن من يذوقه يحس بلسع العصا وألمه، وسوف يحس بما قد يتركه من علامات على الجلد، قد تسهره الليل، أما من يعده فلا يحس بشيء، وما عليه إلا أن يحرك لسانه، ويهيىء ذهنه.

(١) «اللّي ياكل الفرش مو زي اللّي يعدّه»، السباعي: ٧٦.

[٣٦]

أي بُـنيَّ !

ويقولون أيضاً حصراً، وأخذاً من البيئة :

« **ما يعـاف العـود إلا المقـرود**[1] »

ولمن لم يعش في هذه البيئة فإن المثل قد يكون غامضـاً غير مفهـوم، ولا يعرف القصد منه، ولا مرماه، ولكنه لابن البيئة واضح وجلي. والعود هو عود البخـور أو النّدّ، برائحته الزّكيّة، ويُؤتَى به ليعطر المكان، أو ليُكَرم به الضيف، أو ليتحف به الصديق أو القريب، فإذا شامت نفس من أريد أن يكرم برائحة العود، واشمأزّ من دخانه، فهو عديم الحظ والذوق، فاسد الطبيعة، والخسارة عليه كبيرة في فقدان هذا التكريم، والتمتع به، لأنه حرم نفسه من شيء يتراكض الناس على التبخر به واقتنائه.

والعود ـ يا بني ـ يلعب دوراً مهماً في حياة الناس في الجـزيرة العربية، فرغم أنه من الأمور الغالية

(١) الجهيمان ٧/ ٢٢٦ .



ثمناً، وقد يعتبره من هو خارج الجزيرة من الأمور الكمالية إلا أن الناس هنا يحرصون عليه، ويعتبرونه من الضروريات. يستقبلون به الضيف، ويودعونه به، ويحرصون في أيام الجمع، قبل الذهاب إلى الصلاة، على التبخّر به، لتكون رائحتهم جميلة، وليكملوا به زينتهم التي أمرهم الله أن يكملوها ويأخذوا بها عند كل صلاة، وفي رمضان يتسابقون على تبخير المساجد به، وهذا يساعد على بث رائحة زكية تتغلب على رائحة أنفاس الناس، وروائح أجسامهم، التي قد تؤثر على الجو، لكثرة المصلين، خاصة في رمضان، ولطول الوقت الذي يقضونه في المساجد. فيساعدهم الجو العابق بالرائحة الطيبة على الطاعة، وزيادة البر.

وقد تولد من عادة استعمال العود مثل آخر هو:

« ما بعد العود قعود[1] »

قيل هذا المثل على أثر اعتياد الناس تقديم

(١) الجهيمان ٧/ ٨٨ .

البخور واحراقه عند خروج الناس من الدعوة إذا دعوا إلى وليمة أو عرس، أو حفلة «طهار» : ختان، أو «ملكة» أو عقد زواج، فأخذ الناس تقديم العود على أنه علامة أو اشارة لفض السامر، وانصراف المدعوين. وأصبح المضيف لا يحضر العود إلا بعد أن يقترب الناس من أن ينهضوا، لينصرفوا، حتى لا يتّهم بأنه عجّل خروجهم، وأرادهم على الانصراف قبل رغبتهم فيه[1].

وهذا مثل يمثل جانباً من تصرف الناس في هذه الحياة، فالانسان لا يرفض الأمر الطّيب إذا جاءه، ولا يتفادى الخير إذا اعترض طريقه، وإلا فانه يخسر بدلاً من أن يربح، ويصيبه الضرر بدلاً من النفع، ويكون هذا علامة سوء الحظ الذي لا يريد أحد أن يتّصف به، أو يلصق به.

وهناك مثل عامي يسير على وتيرة واحدة مع هذا المثل:

« إذا عانقك الخير فعانقه »

(١) انظر ما سيأتي عن هذا المثل مفرداً في المثل رقم ٩٨.



هذا المثل يرسم صورة يحملها المجاز في التعبير، فإذا سار شخص في طريق، ووجد أن الخير يسير بجانبه، فليماشه، ويسر بجانبه فلا يدعه، بل يلتصق به التصاق المعانق المحب المغرم، لأن هذا هو عين العقل، وهو ما تدعو إليه طبيعة الأشياء، وإن خالف المرء ذلك، ونافر الخير، وازورّ عنه، وتركه، وابتعد عن طريقة، فإنه «مقرود» سيء الحظ، «عديم البخت».

وهذا يكشف لك ـ يا بني ـ مدى حرصهم على أن تكون أعمالهم تسير مع طبيعة الأمور، ولا تجانب العقل، وتحرص على النفع، وتنأى عن الضرر.



[٣٧]

أَي بُـنَيّ !

ومن الأمثـال ما يرسم صورة جميلة ناطقة، لو كانت في لوحة لنطقت من صدقها، وقوة تعبيرها، وانطباقها على ما قيلت عنه، أو فيه، مثل المثل الذي يقول:

« مثـل القعـس في الدبـس[1] »

تصـوروا القعس، وهـو دويبـة تشبـه النّملة الكبيرة، إلا أنّها سوداء اللون، بأرجل طويلة مثل أرجل النّملة، لو وقع القعس في دبس التمر، أو في عسل النحل كيف تكون حاله! إنه سوف يكون في حالة يرثى لها، يدخل يداً لتساعد الأخرى لتخرُج من الـدبس، فتلحق أختُها بها، فتلصق مثلها في الدبس أو العسل، وتأتي الثالثة فتقع في الاشكال نفسه، وترى القعس يجاهد ليخرج، فلا يزيده هذا إلا تورطاً فيما هو فيه، ولا يبقى له بعد رجليه ويديه

(١) الجهيمان ٨/ ٧ .



إلا جسم يحرّكه ذات اليمين وذات الشمال كأنه خالط طين، أو رابّ قدر، حتى يلحق باخوانه الأرجل واليدين فيلتصق بالدبس مثلها، ثم تسكن حركته، وتستكين، ويسلم أمره لله.

ويمكن أن يستعار موقفه هذا ليتمثل به لمن يقع في حيرة من الصعب الخروج له منها. وقد يوحي المثل بأن الشخص هو الذي أوقع نفسه فيها.

والقعس من موجودات البيئة التي كانت تُرى يومياً، وهو طول الوقت بين الناس، لأنهم طوال الوقت يجلسون على الأرض، وأحياناً يصعد على أرجلهم وأيديهم وأجسامهم، ويدخل في زادهم، خاصة التمر، وطالما أحسوا طعمه الحامض في فمهم، وهم يأكلون تمرة محيلة. والقعس لعبة مسلية للأطفال، يمسكه الطفل من ذيله، فيلتوي عليه مع قدّه النحيل اللدن، ويثني جذعه، ويحاول أن يخلص نفسه با «لمماتلة» والمنازعة وأحياناً يعض أصبع ماسكه، فلا يفيده هذا، لأن عضته لا تؤلم،



ومحاولاته لا تنفعه. وقد ضربوا بعضته الهيّنة مثلاً فقالوا:

« **مثل عضّة القعس ما توجع** » (أي لا تؤلم)

وكثيراً ما كان الأطفال يحاصرونه بأيديهم، ليغيّروا طريقه، فإذا سار في طريق، ووصل إلى نهايته، سدّوه عليه، وأعادوه حيث بدأ. ويقضون وقتهم هكذا، متعة لهم، وأذى له. ويضطر أحياناً إلى ركوب الصعب، فيصعد على أيديهم، ويقفز منها إلى سواعدهم، ولا يدري أن هذه هي قمة لذّتهم.

والدبس، وهو عسل التّمر، منظره لا ينساه النّاس وبالذات الأطفال. فليس هناك «جِصَّة» - وهي مخزن التّمر - إلا ويسرب منها الدبس، ويتجمّع في وعاء يلقى لذلك. فيأتي الأطفال يلحسونه، ويلتقطونه بأناملهم الغضّة. وإذا لم يُحمَ من النّمل والقعوسة، فإنّ هذه لها منه نصيب وافر. أمّا إذا وضع التمر على الخصف أو الحصير، وسال منه الدّبس، فلا حماية له من النّمل والقعوسة، ولا



حمايـة للنمـل والقعـوسـة منه. وكثيراً ما استطعم الأطفال طعم القعس الذي حار وسط الدبس حتى قضى نحبه، والأطفال في عجلة من أمرهم، لا يأتي في بالهم أن يتأكدوا من أن ما يأخذونه من الدبس خال من النمل والقعوسة الميتة. ولا يتذكرون ذلك إلا عنـدمـا يستـطعمون حموضتها، وقد اختلطت بحلاوة الدبس، وحينئذ يعتبرونه «حامض حلو»، ويتمثلون بمثل يحلو لهم، ولغيرهم، ترداده، وهو:

« دخـل الدخـيل وسـلم »

وهذا مثل يأتي أيضاً من البيئة التي كان يسودها الخوف والفزع، ويسيطر عليها عدم الأمان، ولا تكـاد تعـرف الـدعـة والاطمئنـان، مما يحتاج معه الانسـان فيها إلى من يحميه ويجيره ليسلم، خاصة حين يتنقل بين المدن، وفي الصحراء. فهو إذا وجد من يجيره، ويحميه، سلم واطمأن ونجا مما أخافه، وأصبح له من الحقوق والحماية والرعاية ما للمجير، ووراء المجير فخذه وعشيرته وقبيلته. وهي صورة صادقة للبيئة التي كان يعيش فيها الناس في زمن مضى.

وبعض الأمثال ـ يا بني ـ فيها صور ناطقة يصح لنا ويحق أن ننافس بها الصور الزيتية التي رسمها الأوربيون في معابدهم وكنائسهم، وصاروا يفاخروننا بها، ويدعون أن عدم وجود أمثالها من الرسوم والصور نقص في حضارتنا فهذه الصور الفكرية التي ترسمها لغتنا بمجازها وبيانها مصدر فخر لنا أكثر من فخرهم بصورهم. ان كانت ريشتهم ترسم صورة لا تعطي أكثر مما يتخيله رسامهم، فهذا تسلط على حرية التصور والتخيل. أما صورنا فتعطي الحرية لكل فرد أن يرسم في ذهنه ما يسمعه دون تسلط من القائل. لك الحرية ـ يا بني ـ في أن ترسم في ذهنك صورة قعس في دبس: صورته وقد أدخل قدما واحدة، أو أدخل القدمين، أو القدمين واليدين، أو أدخل جسمه كله. ولك أن تتصوره وقد غطس في وعاء، أو مشى فوق حصير، ولك أن تتخيله وقد مُسك في أول الحصير أو في وسطه، ولك أن تتصور الدبس بقعة بحجم الدينار، أو بحجم الكف أو تبلغ متراً.



ولـك أن تتصور هذا في غرفة، أو في ردهة أو في السـطح. حتى آلـة تصوير الفيديو سوف تقيدك بمنظر واحد، أما المثل فترك لك الأفق المتسع الذي تختاره، تحلق فيه كيف شئت.



[٣٨]

أَي بُـنَيّ !

لننتقل إلى مثل آخر نختاره من البيئة أيضاً. وقد كان سائداً في زمن مضى، وكان فيما مضى حَيّاً على ألسنة الناس. أما الآن فقليل من الشباب من يتمثل به. كان للحمير أهمية بين المدن والقرى المتقاربة، وداخل المدن، وكادت أن تكون الوسيلة الوحيدة المتيسرة لكل أحد، للنقل داخل المدن، وللركوب. ومن أبرز أدوارها ما كان يجرى في مكة شرفها الله في موسم بعينه من ذهاب «الركب» عليها إلى المدينة المنورة: تذهب مجموعات تقطع المسافة الطويلة بين المدينتين. ولا تسل عن العناية بعدّة الحمار ليكون مركباً مريحاً، ولا تسل عن العناية بالحمار نفسه، وتجميله بالقص والحناء، ولهذا كان له من الأمثال ما دلّ على أهميته ومشاركته حياة الناس حينئذ. يقول المثل:

« **إذا تعاندو الحمّارة يابخت الركاب**[١] »

---

(١) محمد صادق دياب ٥٣ .



إنه مثل معبر، ويصدق على كل بضاعة يتعاند تجارها، ويتنافسون في انزال السّعر وتقليصه، كسباً للزبون، وقطع الطريق على الحمّار المنافس. والصورة ناطقة: زبون يقف منتظراً، والحمّارة يعرضون حميرهم للتأجير، ويُبدأ في النزول في السّعر حتى يصل إلى آخر ما يمكن أن يصل إليه. ولا تمتعض - يا بني - من أن يكون المثل عن الحمير، فالمثل لا يعرف الانتقاء، هو كشيطان الشعر إذا «حكر» «حكم»!

والمزاودة في السعر لأي بضاعة عادة تكون في زيادته لا في إنقاصه. يأتي من ذلك طرائف أحياناً، أحدها ما روي عما حدث في أحد أسواق مدينة من مدن الأندلس: كان هناك كتاب حسن التجليد معروضاً للبيع، وكان هناك رجلان يزاودان في السعر عليه، أحدهما في أول السوق، والثاني في آخره، والدلّال رائح غاد بينهما، حتى تعدّى السّعر الحد المعقول، فذهب أحد المزاودين وكان يعرف قيمة الكتاب المعقولة، وحريصاً على شرائه، إلى

المزاود الآخر، وسأله عن أسباب مزاودته، ومغالاته في السعر، فقال: إنني لا أعرف قيمة الكتاب، ولا أعرف عنه شيئاً، ولكنْ عندي فراغ في مكتبتي بين كتابين على رف منها، ووجدت أن هذا المجلد خير ما يسد هذه الثغرة.

ولماذا نذهب بعيداً - يا بني - إن المناقصات العامة في الدولة وفي غيرها تسير على نمط ما يرمي إليه المثل، فالمتنافسون المتناقصون يحاولون أن يكسبوا الصفقة بانزال الأسعار، حتى بعد ما يسمى «فتح المظاريف»، فقد يُعطى اثنان أو أكثر المنافسة العلنية ليتناقصا أو يتناقصوا، والبخت والغبطة للجهة المعلنة عن المنافسة بلا شك، والمكسب في النهاية لها. كما يؤكده المثل.

وهناك مثل آخر يبعد بك عن محيط الحمير، ويرفعك دفعة واحدة إلى بيئة أجمل، وهي بيئة الضيافة والضيوف، يقول المثل:

« **إذا تخاصم الضيفان فبخت المضيف**[1] »

(١) الألمعي: ٢١ . وفي الفصحى: «إذا تخاصم اللصان ظهرت السرقة».



وهو مثل يؤدي مؤدى المثل السابق كما رأيت، إلا أنه يخفي خلفه صورة كانت تحدث في الماضي، خاصة في البيئات التي تكثر فيها «الضيفات» والمضيفون والضيوف، ويتنوعون، وقد يأتي للمضيف نوعان أو أكثر من الضيوف، ويكون في اجتماعهم في مضيف واحد ما يثير بعض الحزازات نتيجة التنافس والتفاخر، فيحلف كل واحد ألا يقيم، فيرتاح المضيف من مصاريف باهظة أعفاه الله منها، وقد يكون أعفاه أيضاً مما هو أكبر، فمثل هذه المنافسات والمشادات قد تجر إلى قتل ومقتول، فتسيل دماء، وتبدأ ثاراتٌ الله وحده يعلم بم تنتهي إليه ومتى.

أرأيت أن مثل الحمير ـ على ما يبدو في ظاهره ـ قد يكون ـ يا بني ـ أسلم من المثل الثاني الذي تعتقد لأول وهلة أنه أنظف موضوعا وأشرف للحديث. فليس فيه قتل ومقتول، ولكنا لا نضمن هذا، فقد يكون أحد الحمّارة من الذين لا يلجمون أنفسهم، فيقدم على ما لا تحمد عقباه، على كل حال يبدو أن الضيف وزبون الحمارة كلاهما سالم.

بقي استدراك على المثل الثاني - يا بني - يحسن ذكـره، فالمثـل يتحمـل جانباً آخر ليس في صالح المضيف! ماذا لو تخاصم الضيوف على طول المكث عنـد المضيف، اكـراماً له؟ والمنـطق في جانب الضيوف، ودعنا هنا نرسم معادلة الضيافة في ضوء العـرف. ضيافة الضيف اكرام، واختيار الضيف للمضيف شرف يميزه به، فما دام جانب من الضيافة اكرام، وجانب شرف، فالمنطق يقتضي أنه كلما زاد الاكرام والشرف كان ذلك أتم وأكمل، فالضيافة تؤبد ليتأبد الاكرام ويتأبد الشرف!!

[٣٩]

أَي بُـنَيّ !

«قالوا ليش لحمتك مشغّته قال الجزار معرفة[1]»

وهذا المثل يرتكز على مجرى نفسي في الانسان، لأنه يعتمد على أمر دقيق في صلة فرد من المجتمع بآخـر عن طريق آصرة عائلية، وهذه العلاقة هي التي جلبت الخطأ، خلافاً لما هو متوقع حسب مجرى الطبيعة عند من ينظر إلى ظواهر الأمور. فالجزار يتجنى على عملائه، لأنهم أقرباء له، ويتوقع منهم أن يخجلوا فيـترددوا عن أن يعـترضـوا على سوء اللحمـة التي اختـارهـا لهم من الجـزء الرخو من الذبيحة، حتى أصبح «الشغت»، وهو «السِّلب» الذي يصاحب بعض أجزاء من اللحم، هو المسيطر على الكميّة التي اشتريت. وهذا المثل يفترض أن المشتري استحى، أو لم يتنبّه عندما اشترى، وتبين له الأمر عندما وصل البيت، ولعل زوجته ـ وهي الحـريصـة على التـدقيق في مثـل أمـور المؤونـة،

(١) دياب ٥٤ .

ومتطلبات الطبخ ـ هي التي اكتشفت الخلل في اللّحمة.

لكن ماذا يحدث لو كان هذا القريب المشتري شرساً، وتنبّه للّحمة وسوئها وهو عند الجزّار، لم يبرح المكان بعدُ، ولاحظ ما لاحظ، وقارنه بما وفره الجزار لزبائنه الأبعدين، هل كان الأمر يمرّ بسلام، أو كان القريب يعود مرة أخرى إلى الجزّار؟ ماذا يحدث لو لم يقبل المشتري اللحمة؟ ولنفرض أنه اكتشفها بعد أن وصل إلى البيت، ونبهته زوجته إلى ما لحقهم من ضيم، وعاد إلى الجزّار، وناقشه مناقشة ربما أدّت إلى قطع صلة الرحم بينهما. ولكنّ الجزارلن يعدم العذر الذي يمكن أن يقدمه للرجل، فالذي يتعمد الخطأ عادة يكون قد هيأ العذر أولاً؛ ألا ترى ـ يا بني ـ أنّ السّارق الذّكي، قبل أن يدخل البيت يحتاط في معرفة طريق الهروب، واعداد العذر فيما لو تعذّر عليه الافلات، فقبض عليه.

ومن يدري ـ يا بني ـ فقد يكون «الشّغت» قد تسبّب في قطع العلاقات القائمة بين جزار وقريبه،



أو صديقه، لأن المعرفة قد لا تكون مبنيّة على صلة رحم، وإنما على صداقة، أو على ما هو أقل من الصداقة. ومع كل هذا فقد يكون في الأمر، مما يعذر عليه الجزار، مما لم يخطر على بالنا، فقد يكون القريب هذا يشتري اللحمة بالدين، فلا يستطيع أن يعترض على سوئها، وإلا قيل له:

«طواف ويتنوق[1]»

أي شحاذ ويتدلع أو يتشرّط. وقد يكون الجزار أراد أن يفقده زبوناً، لأنه ليس حريصاً على معاملته، فقد يكون من الذين لا يوفون الدَّين، أو يماطلون في الوفاء، ولأنه معرفة لا يستطيع الجزّار أن يمتنع عن البيع عليه، ويجابهه بأسباب ذلك، وإنّما يريده هو أن يملّ فيبحث عن جزّار آخر، ويكسب الجزار زبوناً غيره.

على أي حال المثل قائم، ويصدق على حالات كثيرة، وإذا لم يصدق مستقبلاً على الجزار،

(١) أحياناً يأتي التعبير هكذا: «طواف ويتنحوق».

فسيصدق على غيره ممن يمكن أن ينطبق عليه المثل. ويمكنك استعماله فيما لو لم تجد المعاملة الحسنة مع قريب لك، أو صاحب. فإن أحضرت دهّاناً قريباً لك، ليدهن جدار بيتك، فلم تجده اعتنى، فالمثل بين يديك، تمثّل به، وخذ منه الحكمة، وإن وضع لك قريبك المهندس تخطيطاً لم تجد أنه أعطاه الجهد اللائق به، فتمثّل بهذا المثل، وهكذا مع كل مثل أدى إلى معاملة من النوع الذي ذكرنا.

وعلى ذكر الجزار ـ يا بني ـ يبدو أن هناك طبيعة غير محمودة حول الجزارة ومهنتها، وما يتصل بها من أمور، «فابن الجزار» الشاعر ـ وكان قد التحق ببلاط أحد سلاطين المماليك على ما أظن ـ ساعده شعره على أن يبتعد عن الجزارة والذّبح، وهي مهنة انتقل منها لِعدم نظافتها إلى مهنة لا تقبل إلا النظافة. وبعد التحاقه ببلاط السلطان، وبقائه فيه فترة طويلة، اشتاق معها إلى أن يزور زملاءه في المهنة القديمة، ويجدد العهد بهم، فزارهم، وجلس عند أحدهم في دكانه، يجاذبه أطراف الحديث عن



ذكرياتهما القديمة. وعندما أراد الانصراف فكر أن يشتري لأهله لحمة من صديقه الجزار، فقال له الجزار: قم واقطع لنفسك ما تريد. فأخذ يقطع أسوأ ما في الذبيحة، فدهش منه صاحب الدّكان، وسأله عما إذا كان نسي الصنعة، فقال الشاعر: لا، ولكني عندما وقفت أمام اللحم أدركتني لآمة الجزار فنسيت أني مشتر، وظننت أني بائع، فاخترت أسوأ ما أمامي.

لنترك ـ يا بني ـ هذا المثل مادام فيه رائحة لؤم، فهو ليس أحسن وقعاً على الأذن من سابقه.

[٤٥]

أَي بُـنَيّ !

قد اقتربنا بالمثل السابق من ربة البيت، فلنعطها من حقها ما هو أكثر، لأنَّ لها أمثالاً لابد أنها نبعت منها، فمحيطها يؤثر عليها كما يؤثر على الرجل، ولها من العقل والتفكير ما يجعلها تصوغ تجاربها حكماً وأمثالاً يتمثل بها، وفيها من الدقة والِأحكام ما تسبق به غيرها في استنجاد الذهن بها عند اللزوم.

لابد أنها هي قائلة المثل الآتي:

« **في الوجه مرايه وفي القفا سلّاية**[1] »

وهذا وصف لِإحدى النساء اللاتي عرفن بالنفاق، فالواحدة منهنّ في مقابلة امرأة أخرى تمدحها، وتبدي لها من الابتسام والتودد ما يماثل المِرآة المجلوّة في صفائها، وعندما تتحدث عنها في غيابها تسلقها بلسان حديد. فهي على هذا ذات وجهين، وهي صفة غير حميدة، ويُعاقَب عليها المتّصف بها في الآخرة عقاباً شديداً، وفيها من

(١) السباعي: ٦١.



الأحاديث المحذِّرة ما يوقف شعر الرأس تأثراً ورعباً.

وإذا أردت - يا بني - شيئاً عما قيل في الغيبة والنميمة، ونظرة الدِّين إليها، ونظرة الحكماء المفكرين، ونظرة المجربين والمتبصرين، ونظرة الكتاب والشعراء، فاقرأ ما ورد عن الغيبة والنميمة في كتاب «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» للراغب الأصبهاني[1].

ففيه مثلاً عن النبي - ﷺ - أنه قال لمن تكلم عن غائب: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتهُ، وإن لم يكن فقد بهته». وقيل إن الغيبة، «مرعى اللئام وجهد العاجز». وقال رجل لابن سيرين: قد نلت منك، فاجعلني في حل. فقال: لا أحل ما حرم الله عليك. وقال المتوكل لأبي العيناء ما بقي أحد إلا اغتابك. فقال:

إذا رضيت عني كرام عشيرتي
فلازال غضبانا علي لئامها

(١) الراغب الأصبهاني، ص ١٥٧، وما بعدها.



وقال المتنبي في هذا الاتجاه:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأني كامل

وقيل من رمى النّاس بما فيهم رموه بما ليس فيه.

وقيل بحثك عن عيوب النّاس يدعو إلى بحثهم عن عيوبك.

وقال الشّاعر:

ومن دعا النّاس إلى ذمهِ
ذمّوه بالحق وبالباطل

وقال الشطني:

لا تكشفن من مساوي النّاس ماستروا
فيهتك الله سترا عن مساويكا

ولا يكفي في الاثم أَنَّك تغتاب النّاس، بل يلحقك الاثم إذا استمعت للنّميمة أو الغيبة، فتلحقك الملامة عندما تصغي، لأنك تشجع المغتاب على فعله. قال عمرو بن عيد لرجل يستمع



إلى آخر بغتاب: ويلك! نزّه اذنك عن استماع الخنا، كما تنزّه لسانك عن النطق به. وقال الشاعر في هذا:

وسمعك صن عن سماع القبيح
كصون اللسان عن النطق به

وهناك - يا بني - من أوقف النميمة، ورد الساعي بها، لعقله وطول تجربته: دخل رجل على عبدالملك ابن مروان، فقال: هل من خلوة. فأقبل عبدالملك على أصحابه وقال: إذا شئتم. فقاموا. فقال له عبدالملك: اسمع! لا تمدحني في وجهي، فاني أعرف بنفسي منك، ولا تكذبني فليس لكذوب رأي، ولا تسعين بأحد إليّ. فقال الرجل: أأنصرف؟ قال: إن شئت. فقام وانصرف.

ورفع رجل قصة إلى أنو شروان: أن رجلاً من العامة دعاه إلى منزله، فأطعمه طعام الخاصة. فوقع في قصته: «قد حمدنا فعلك فيما تأتيه، وذممنا صاحبك لسوء اختياره لمن يواخيه».



ووقع طاهر بن الحسين في رقعة متنصح: «قد سمعنا ما كره الله، فانصرف لا رحمك الله».

ونعود مرة أخرى إلى المثل الذي أبعدنا عنه فنجد عند التفكير أنّ النساء رغم أنّهن يكرهن هذه العادة القبيحة عند غيرهن إلا أنهن مغرمات بها ضدّ الأخريات، فلا تكاد تجد مجلساً لهن دون أن يكون للغيبة نصيب منه. وليس هذا وقفاً على النساء، بل إن الرِّجال ليأتون من الغيبة ما تأتي النساء، ويبدو أنها جزء من طبيعة البشر، وإلا لما نُهي عنها هذا النهي القويّ، فالدين والحكماء والعقلاء لا يلتفتون التفاتة قوية للتهذيب والتشذيب إلا إذا كان الاعوجاج قوياً.

وهو مثل يصلح لكثير من المواقف التي يقابلها الانسان في الحياة وتتسم بالتناقض، وعدم الثبات.



[٤١]

أَي بُـنَيّ !

ما دمنا قد دخلنا حمى ربّة البيت، فلن نكتفي بمثل واحد، لنثبت ما قلناه من أن مشاركتها في نتاج الفكر لا تقل عن زوجها أو أخيها. فهناك مثل يقول:

« قالوا يا جحا زوجة أبوك تحبك
قال ليه (هي) اتجننت[1] »

والمثل يصور ما يدور في أذهان الناس عن زوجة الأب مع أبناء زوجها من امرأة أخرى. ولا يستثنون من النساء إلا القليل النادر، وإلا فكلهن في نظر المثل يسئن لأولاد أزواجهن من زوجات أخريات. فزوجة الأب يتواتر عنها إيذاء ابن الزوج أو ابنته من امرأة أخرى. فإن كانت زوجة الأب ليس لها أولاد فأذاها لهم يأتي من حقدها لحرمانها منهم. وإن كان لها أولاد، فلأنهم يزاحمون

(١) دياب: ٣٦، السباعي: ٦٦.

أولادهـا، في عطف أبيهم، وحنانه، وماعنده من خير لعـائلتـه. ويثقلون عليها بخدمتهم، ورعاية شؤونهم. هذا خلاف ما تفكر فيه من أنهم سوف يشاركونها وأولادها في ميراث والدهم عند وفاته. ويتمثل بهذا المثل عند التعبير عن الاستحالة، لأن امـرأة الأب، فيـما هو متواتر عنها من بغضٍ لابن زوجهـا، إذا أحبتـه فهـذا، لاستحالته، لابد أن وراءه سبب غير عادي، ولابد أنه أقوى الأسباب غير العادية، وهو الجنون.

وهو مثل ـ كما ترى ـ يا بني ـ مأخوذ من البيئة، ويمثل جانباً منها. وكان الآباء كثيراً ما يتزوجون زوجات بعد زوجاتهم الأول، ولعل كثرة ذلك في ذلـك الـزمن ناتـج عن كثـرة الأمـراض، وموت الزوجات. أو موتهن في أوقات الولادة وتعسرها. وهذا لم يكن قليلاً، في زمن كانت وسائل الصحة والمستشفيـات لا تعـرف. ومـا وجـد من وسيلة صحية، يمكن أن تساعد الولادة، لا تذهب النساء إليها، لأن هذا يعتبر عيباً. وتعيث المولدات أحياناً



بالنســاء لجهـل المـولدات بأصول التوليد، خاصة عندما يكون هناك مشكلة، وتعسرت الولادة.

وزمننا لا يخلو من شيء من هذا القبيل، ولكن النسبـة أقـل، ولعلها لا تشكل مشكلة يمكن أن توحي بمثل.

ولمـا يتصـور ـ يا بني ـ من قسـوة زوجة الأب أحياناً، وردت في أمثالهم ـ كما رأيت ـ ووردت في أقوالهم، مثل:

« **عطاء مرت أبـو** » (أي زوجة الأب)

وعـطاؤهـا يكون مغشوشاً، أو ناقصاً، أو فيه ظاهراً مالا يحمد باطنا.

« **عطـف مـرت أبـو** »

أي أن عطفها رياء ونفاق، وتبدي العطف أمام زوجها، فإذا غاب سامت البنت العذاب، وأرتها ـ كما يقولون ـ نجوم الليل في وضح النهار.

ووردت في قصـصهم، ومن أبـــرز ما ورد في القصص الشعبي، قصـة «القطيّة»، ويمكنك أن

تقرأها في كتاب «أساطير شعبية» للأستاذ عبدالكريم الجهيمان[1]، وتأتي بصور مختلفة ولكنها تلتقي في المنحنيات الرئيسية من أغراض القصة. وملخصها أن هناك رجلاً ماتت زوجته وله منها ابنة، ثم تزوج أخرى، وجاءه منها بنتان. وقد بدأت تظهر قسوة الزوجة الثانية لابنة زوجها بعد أن رزقت بالبنتين. أرتها أنواع العذاب والاحتقار، واستعدت والدها عليها. وصارت تلقي عليها اللوم في كل خطأ، وتوكل إليها أعمال البيت من طحن وتنظيف وغسل وكنس.

وفي يوم من الأيام صاد والدها ثلاث قطا من البرية، وأحضر لكل واحدة من بناته واحدة منهن. وفي غفلة من الجميع، وفي مكان لا يسمع فيه الحديث تكلمت القطاة مع زينب، وهذا هو الاسم الذي أعطاه الأستاذ عبدالكريم للابنة يتيمة الأم، وأخبرتها أن لها أولاداً سوف يموتون جوعاً وعطشا،

(١) أساطير شعبية ١٠/ ٣١، وهي السبحونة أو السبحونة رقم (٢) قارن قصة القطية بقصة «ساندريلا» في أدب الغرب.



وأنها إن أطلقتها فسوف لا تنسى لها معروفها، و تكفّلت أن تتلقى عنها ضرب والدها عندما يعلم أنها أفلتتها فيضربها. وسوف يأتي يوم ترد فيه لها الجميل. وقد رقت زينب لحالها، وأطلقتها، وضربها والدها بتحريش وتحريض من امرأته وبنتيها. ولكنها لم تحس بالضرب.

وكان في بلدتهم ملك ليس له إلا ولد واحد، وكان حريصاً على أن يزوجه بأجمل بنت في بلده، ولأجل هذا أقام دعوة واحتفالا لجميع العائلات اللاتي لهن بنات في سن الزواج. وكانت عائلة زينب ممن حرص على حضور هذه الحفلة. الا إن امرأة أبيها رأت حرمانها من هذا الشرف. وكلفتها بطحن الحب. ورضيت زينب بذلك لعدم طموحها إلى غير ذلك، فلا مظهرها يساعدها، ولا ملابسها تليق. ولكن «القطية»، بعد أن ذهبت امرأة أبيها وبنتاها إلى الحفلة، جاءتها، وأقنعتها بالذهاب متخفية بملابس جميلة سوف تحضرها. وفعلاً أحضرتها لها، وأعّدتها وجملتها، وأحضرت لها عربة



ملكية، وأوصلتها إلى الحفلة، وكانت محط الأنظار. أما أختاها وأمهما فقد انزوين دون أن يتنبه لوجودهن أحد. وعندما رأينها لم يعرفنها، وأعجبن بها مثل الآخرين. ولما رآها الملك وابنه قررا أنها أنسب واحدة بين الموجودين، لتكون زوجة لولي العهد.

وبعد انتهاء الحفل، وفي وسط الازدحام، أضاعت زينب إحدى فردتي حذائها، ولم يكن لديها وقت للبحث عنها، لأن عليها أن تعود بسرعة إلى البيت، وتخلع ملابسها الجميلة، وتلبس أسمالها البالية. أما الطحن فقد تكفّلت به القطية. وتبين أنه لا أحد يعرفها ممن حضروا الحفل، ولم يجدوا أي أثر يمكن أن يدل عليها. ولهذا فرح الملك وابنه عندما وجدوا أنها نسيت فردة الحذاء. ووكلوا أمر البحث عن صاحبة الحذاء إلى امرأة دلاّلة، تدخل البيوت دون أن يلفت دخولها الأنظار.

فبدأت الدلاّلة طوافها بالبيوت كالمعتاد، وبطريقة غير مفتعلة كانت تقيس الحذاء على أقدام



الفتيات. واستمرت على ذلك أياماً، دون أن تكلّ أو تمل، ولم تجد قدماً في مقياس الحذاء. ولم يبق إلا كوخ صغير عند نهاية المدينة لا يتوقع أن صاحبة الحذاء فيه، ولكنها لم تيأس، ودخلت البيت، وقامت بقياس الحذاء على الفتاتين، ووجدت صعوبة في الاحتيال على زينب، حيث إنهم لم يحضروها مع اخواتها. ولكن الدلاّلة نجحت في هدفها. ولدهشتها تبين أن الحذاء كأنه فصل تفصيلاً على قدمها.

وباختصار أخبرت الدلالة الملك، وأرسل من يهيء العائلة لشرف المصاهرة، وتم زواج زينب الطيبة التي لم تعامل امرأة أبيها وأختيها إلا معاملة حسنة.

هذا - يا بني - هيكل القصة، وإن أردت تفاصيلها، وأبازيرها الشهية، فارجع إلى كتاب الأستاذ عبدالكريم الجهيمان فهو روضة غناء، وما هذه إلا زهرة واحدة فيه، ولكنها زهرة فواحة. والأستاذ عبدالكريم الجهيمان رائد في هذا المجال لم



يسبق إليه بهذه الصفة، وقد بدأه وأتقنه. ومجهوده فيه مجهود مضن وشاق، ولم يكن لأحد غيره أن يقوم بما قام به، فالكفاية اللازمة لهذا قد لا تتوفر لأحد سواه.



[٤٣]

أَي بُـنَيَّ !

من الأمثلة الحكيمة قولهم :

« اقـرأ ياسـين وبيدك حجـر[1] »

يقال هذا المثل لمن لا يراد منه أن يتكل فقط، ولكن مع الاتكال يسعى، اتباعاً لقول رسول الله - ﷺ -: «إعقلها وتوكل» لمن سأله أيعقل ناقته أم يتوكل. ولعل المثل نُحت من منظر يمثل عدوا مقبلاً على شخص، هذا العـدو حيّة كان أو عقرباً، أو حيـوانـاً شرساً. أو انساناً شريراً يريد الأذى به. فالمثـل يحثـه على ألا يكتفي بقـراءة سورة ياسين، يتعوذ بها من الشر المقبل، وإنما يحتاط بسلاح آخر وهو الحجر، فإذا لم يتوقّ شر العدو بالقراءة يصبح الحجر معدّاً لاتقاء الشّرّ به، لأن القراءة قد لا تكون من الـرضـا بحيث تقبل منه. وقد لا يكون ذهنه حاضراً لها، فيردّدها دون التأمل والتدبر المطلوب.

---

(١) العبودي ١/ ١٢١ .

وهـذا يذكر بما قاله الشعبي، وهو العالم الفكه الساخر عندما مرّ بإبل قد فشا فيها الجرب، فقال لصاحبها: أما تداوي إبلك. فقال: إن لنا عجوزاً نتّكل على دعائها. فقال: إجعل مع دعائها شيئاً من القطران(١).

وهذا المثل - يا بني - يأتي كثيراً على ألسنة الناس في بعض المناطق، ويمثل مثل غيره البيئة التي أخذ منهـا، ويـوحي بمدى إيمان من يخاطبهم صاحب المثـل بتأثير القرآن على ماقرىء له، والتوجّه، إذا حزب أمـر، إلى كلام الله تقـرباً به إليه - سبحانه وتعالى - والرسول - عليه الصلاة والسلام - خير من يُبصِّر النـاس بدينهم، ومـا ينفعهم ومـا يضرهم، ولهذا هدى السائل إلى التزود بالأمرين: أن يعقل ناقته وأن يتوكل على الله في حفظها، فالتوكل له ثوابه لأن فيه مظهر الايمان بالله الذي لا يحفظ إلا هو. أما العقال ففيه مظهر أخذ جانب الحيطة والحكمة تجاه أمور الدنيا، وما تحتاجه من حزم، وحسن تدبير.

(٢) محاضرات الأدباء ٨ .



والعقـال وحده لا يكفي، فقد تقطعه الناقة، وقد يحلّه معتد، ولكن الله يحفظ من هذا وذاك، إذا قَبل توكل المرء عليه.

وكلمـة «الحَجَـر» توحي بأن العدو المحذر منه يكفي فيه في الغالب سلاح مثل الحجر. فإذا صح ظننا في أن يكون حية أو عقرباً أو كلباً فهذا منظر مألـوف في بيئتنـا في أي أرض في المملكـة العربية السعودية، وإذا كانت الحيات والعقارب اليوم قد انكفّت عن المـدن والقـرى التي دخلهـا العمـران الحـديث، وتمهيـد الـطرق، وشـاع فيها استعمال المبيـدات، وأنواع وسائل مكافحة الحشرات، وما إليها، فإنها لا تزال على ضفافها في الضواحي، وفي الصحراء القريبة، ولابد لأي طارق للصحراء أن يكون رأى منها شيئاً يعطيه صورة ما أوحى بالمثل لقائله.

وإذا كانت الحيات في بعض مناطق المملكة قليلاً ما ترى في الماضي في الشوارع الترابية أو في البيوت، فإن العقارب كادت أن تكون مستأنسة من كثرتها،

خاصة في المواسم التي تكثر فيها، وتتوالد في الشقوق، وفي زوايا البيوت المظلمة، والمخازن شبه المهجورة، ومنها تنطلق تعيث في البيوت. فلا يمر يوم - رغم حذر الناس ويقظتهم - دون أن تسمع بضحية لأحداها؛ يساعد على ذلك قلة لبس الناس للأحذية، لرقة حالهم، ولأنهم يفضّلون الخشونة، ويساعد عليه أيضاً عدم اهتمامهم بحمل سراج يبصرون به طريقهم، وعدم الاهتمام تعودوا عليه، لأن فيه صرفاً قليلٌ منهم من يستطيع مقابلتهُ.

ومن المناظر المألوفة في الماضي - يا بني - أن ترى ملدوغاً يسعى إلى من يقرأ على رجله أو يده. أو يبحث عن خرزة العقرب، وهي حجر كريم يكون في حوزة بعض الناس، يُعتقد أنه يساعد على مص السم، أو إيقاف سريانه. وكثيرون ممن يعرفون الأمور يعتقدون أنها ناحية نفسية، وإذا صح أن هناك حجراً في يوم من الأيام أفاد فلأن فيه من الخواص الكيماوية ما ساعد على ذلك، فليس كل حجر يفيد. ويحرصون - يا بني - على أن يضعوا



ريـالاً من الفضـة على مكـان اللدغـة ويشعرون براحـة، وقـد يكون للفضة مفعول مفيد. ونترك الأمر - يا بني - للأطباء والكيماويين. والأفضل أن نلجـأ نحن من اللدغـات إلى ماهو حديث، وهو ربط نهاية العضو جيداً، حتى نعوق سير السم مع الدم، ونُشَرّط مكان اللّدغة، ونمص السم، بشرط أن لا يقوم بذلك من في فمه أو شفته جرح، حتى لا يتسرب منه السم إلى دم الصحيح، ونكون كأننا جلبنا الداء عن طريق الدواء.

ويمكنك أن ترجع - يا بني - إلى بعض ما قلناه عن أحـد المتـظاهـرين بأنه ملدوغ في كتاب «أي بني»[1] وفيه بعض ما هو طريف. والمثل الثاني وهو جزء من الحـديث الشريف: «إعقلهـا وتوكل» له صورة في الماضي، ولا تزال باقية في البادية، وهي عقـل يد البعـير، حتى لا يترك مكـانه ويبتعد أو يضيع. والعادة أن البعير إذا برك تعقل واحدة من يديه، ويُكتفى بهذا. وهذا لا يمنعه من أن ينهض،

(١) أي بني ، جـ ١ ، ص ٢٥٤ .



ويسير قليلاً، ولكنه لا يبتعد كثيراً، ويمكن صاحبه تتبعه لبطء سيره. وأحياناً يعقل بيديه الاثنتين، وهذا يعوق سيره تماماً فيما لو أراد المسير. ونادراً ما يعقل بأكثر من ذلك.

ولا أدري - يا بني - إذا كان هناك علاقة بين عقال البعير والعقال الذي نلبسه. وإذا كان عقال البعير يمسكه ويحكمه فالعقال الذي على الرأس يمسك «الغترة» ويحكمها، فلا يعبث بها الهواء. وفي زمن مضى لا يستغرب أن يحل الأعرابي عقال البعير، ويضعه على رأسه، ليمسك بغطاء رأسه أمام الرياح والعواصف، ثم عندما ينيخ جمله مرة أخرى ينزعه ويعقل به البعير. وعقال البعير هذا غالباً ما يكون من صوف مجدول، أما ما نلبسه فهو من صوف مبروم. ثم هل يا ترى للاثنين ارتباطٌ بالعقل الذي يمنع صاحبه من كثرة الزلل. الله أعلم؛ لأنك أحياناً تقول لشخص: عقّل فلان، إذا رأيت شخصاً يتصرف تصرفاً منافياً لقواعد العقل. والعقل هنا يعني التهدئة والتسكين، والتهدئة



والتسكين هما أحد هدفي عقل يد الجمل. وأترك هذا الجانب لك لتتبع كلمة عقل ومشتقاتها، وما قد توصلك إليه. وحبذا لو رجعت إلى المعاجم، فقد تجد فيها ما هو مفيد وطريف.

وإذا أردت أن تعرف مزيداً عن الجمل ففي الجزء الأول من «أي بني»[1] ما قد يفيدك ويسليك.

وقد تجد - يا بني - بين الناس من يخالف مبدأ الاتكال والعمل، ويقتصر على الاتكال، كسلا، واعتماداً على مثل برّاق، أعطته السجعة جاذبية كاذبة. وهي سلاح للشيطان قوي، يهدم به المجتمعات إذا جاءت مدسوسة على السامع، فسحرته، وأنسته ما عليه من إعمال عقله، مثل خضراء الدمن. وهذا المثل يقول:

« أحط خدي على ايدي وأقول
هذا قضاء سيدي »

(١) أي بني، جـ ١، ص ٥٠.



التسليم لقضاء الله واجب، ومن صميم العقيدة، ولكن الاستسلام للنوائب، وعدم العمل على إزالة آثارها، تقاعس عن العمل، وتهاون في صرف عافية الانسان عمّا خلقت له.



[٤٣]

أَي بُـنَيّ !

ننتقـل إلى نوع آخـر من أمثالهم التي تدل على بيئتهم، وترسم صورة لحياتهم في مجتمعهم. وهذا المجتمـع له مظاهـر تختلف عن عصرنـا، وقـد لا يتصورها شباب اليوم، وإن فعلوا فبصورة باهتة:

« الشّـقّ أوسـع مـن الرّقـعة[1] »

وهـو مثل يكاد - يا بني - يلمس كل انسان في ذلك الزمن، فالناس في تلك الأيام أهل كد وكدح، ويغلب على أكثـرهم الفقر، ويلبسون الثوب مدة طويلة، قد تصل إلى عام. فيبلى الثوب في أماكن، فيرقع. وأحياناً يكون التمزق من السعة بحيث لا تكفيه الرقعة المتوافرة، فلا ينفع فيه الرتق، ويبقى الخرق على ما هو عليه، وهو مرادف للقول العربي الفصيح:

« إتّسـع الخـرق عـلى الـراقـع »

---

(١) العبودي ٢/ ٦٩٢.



والمثل يؤتى به عندما يكون هناك أمر يحتاج إلى معـالجة خلل، وتكون الجهود قاصرة عن أن تأتي بالنتيجة المطلوبة.

والانسـان في هذه الحيـاة معرض أن يكون في موقف يجد أن جهوده تقصر عن أن تتساوى مع ما يُنجِح الأمر، ويوصل إلى الهدف، سواء كان ذلك في جلب نفع، أو دفع ضرر، فالطالب الذي لم يوفق في الامتحان في عدد كبير من المواد إما لمرض أصابه، أو لظرف آخر تعرض له، أو لإِهمال لم يتغلب عليه إلا متأخراً، إذا قيل له يمكنك أن تتدارك الأمر في الدور الثاني، والقائل لا يدري عن عدد المواد التي ينوء بها كتفه، وهي كثيرة، فإن الشَّقَّ عنده أكبر من الرقعة. والتاجر الذي لحقه دين، وظن آخرون أن بامكـانه، لما لديه من مال قليل، أن يقابل الدّين ويـدفعه، فإن المثل بين يديه ليشرح لمن حوله أن الشَّق أكبر من الرقعة، وهكذا كل أمر مقابلهُ أكبر من أن يفي به المجهود أو الامكانات.



وليس بعيداً عن التعبير المثل الذي يقول :

« **بالفخ أكبر من العصفور**[1] »

تصور - يا بني - مصيدة وضعتَها لتصيد جربوعاً، فوجدت فيها ثعلباً شرساً. أو مصيدة لثعلب وجدت فيها ذئباً يسنّ أضراسه، أو مصيدةً لذئب ووجدت فيها أسداً. كيف ينجو من جاء مؤملاً أن يجد شيئاً صغيراً فوجد شيئاً كبيراً. لعل من وضع المصيدة، وأخذ منها المثل، ومما جاءت به من غنيمة سيئة، وكان نصبها فعلاً لعصفور، فوجد فيها حدأة، خيبة الأمل عنده ستكون كبيرة، ومعها هم تخليص المصيدة من براثن الحدأة ومنقارها، لا تخليص الحدأة من المصيدة؛ يمكنك حينئذ أن تتصور ما يدور في ذهن الفلاح مثلاً الذي قال هذا القول.

فهذا المثل - كما رأيت، يا بني - يضرب للأمر يظن صغيراً، فيتبين أنه كبير جداً، ويأتي إليه

(١) العبودي ١/ ٢٤٨ .

قاصده مؤملاً باقبال، فيفاجأ بما يضطره أن يتراجع بخيبة. وذكرت لك - يا بني - الفلاح هنا؛ لأن نصب الفخاخ عنده أو عند أبنائه عمل يومي. ترى هذا المنظر في مزارعهم، إما لكسب وجلب منفعة، أو لدفع ضرر، واتقاء شر؛ أما لصيد طائر يؤكل لحمه. أو ثعلب يتقَى شره؛ وشره أحياناً يسلط على دجاج الفلاح، يغير عليها ليلاً، أو وقت القيلولة، وقت هدأة السواني، وسكون الحركة. وللذئاب على الفلاح غارات - يا بني - تهاجم أغنامه وحميره. وللجرذان صولة على محاصيله، وعبث في عشته وسكنه.

[٤٤]

أَي بُـنَيّ !

إذا كانت الأمثال كما هو مفهوم، حصيلة عقول ناضجة، ولا يتصور ـ في المعتاد ـ أن تأتي من ناقص عقـل، فهناك أمثال تجبر «خاطر المجنون»، فتأتي عنه. بل وتبجله، وترفع مكانه، وتعلي قدره على العقلاء، أليس المثل الآتي يرمي إلى ذلك:

« **صلّ المهبـول على المهبـول**[1] »

وصله عليه أي سلطه عليه. والصل في الغالب يستعمـل في العـاميـة لافراغ وعاء إفراغاً كاملاً، بحيث ينكس الوعاء المراد إفراغه فلا يبقى به شيء. والصـورة تكاد تلمس لمساً من بيانها ووضوحها، وهي أيضاً جميلة. والخيل المنحدرة من مرتفع على العدو يقال لها بالعامية: «منصلّة».

والمثـل يؤدي معنى: «لا يفـل الحـديـد إلا الحديد». وفيه ما يومي بأن حل مشكلة ما يجب أن يكـون من نوعـه، وبـما هو من طبيعتـه. ولهـذا

(١) العبودي ٢/ ٧٣٣ .

- يا بني - قال ابن عمر عندما لطمه أعرابي، فقام إليه رجل فجلد بالأعرابي الأرض: ليس بعزيز من ليس في قومه سفيه[1]. فابن عمر لم ينزل نفسه منزلة الأعرابي، وكان من بين الجالسين من وجد أن بامكانه أن ينحدر إلى مستواه، فجلد به الأعرابي، وما فل الحديد إلا الحديد. وصلّ المهبول على المهبول.

والمجانين - يا بني - في زمن مضى كانوا يختلطون بالناس، ويتحمل الناس أذاهم، عندما يتعرضون لمضايقتهم. والمجنون أيضاً - بقدر جنونه - يعاني من الناس، وقليل منهم من يرحمه، وهو في كثير من الأحيان لا يرحم الناس، ولا يرحم نفسه، ولا يرحم أهله، ولكنه - يا بني - لا يحاسب؛ لأنه فقد الجوهرة التي تساعده على التمييز بين الصحيح والخطأ، والمفيد من الضار، والممكن من المستحيل، والمقبول من المحذور.

واليوم الذين هم في قلة من عقل، والذين هم في

(١) محاضرات الأدباء ٩٦ .



نقص من الادراك، واهتزاز في الحالة النفسية، لهم أطباء، وعيادات، ومستشفيات، واخصائيون، ولهم أدوية، ويُجرى لهم فحوص، ومراقبة تدون نتائجها أولاً بأول. وتتطور العناية بهم مع الوقت، وتتحسن الرعاية التي تعطى لهم. ولا ينال الناس منهم أذى في الغالب. ولا يشعر بحالهم إلا معالجوهم، وأهلوهم. لطف الله بنا وبهم.

ولعلك كالعادة ـ يا بني ـ مشتاق إلى قصة في هذا المجال، وهي قصة تنطبق تماماً على المثل الذي سقناه، وكأنه لم يوضع إلا في ضوئها، أو هي فصلت عليه:

خطف مجنون طفلاً، وصعد به إلى أعلى منارة أحد المساجد، وتجمع الناس تحت المنارة، وكلما اقتربوا من بابها هددهم بأنه سوف يقذف بالطفل من أعلاها. فاحتار الناس، وزاد عددهم مع مرور الوقت، وهم لا يدرون ما يفعلون. والطفل في رعب، وأهله في هلع، وقلوبهم في وجيف، وأعينهم ملأى بالدموع، والناس في قلق ويأس، وهرج

ومـرج. وقد ركز الناس، أعينهم عليه، ومسكـرا أنفاسهم، يدعون ربهم، ويبتهلون إليه، أن ينهي الأمر بسلام.

وبينـما هم كذلـك، إذ اخترق الصفوف فجأة مجنون آخر، وسفههم على وقوفهم دون أن يجدوا حيلة في إنـزال الـطفـل، وإنقـاذه من براثن هذا المجنون، فلما رأوه وكان بيده منشار كبير، ظنوا أنهم بلوا بمصيبـة أخرى مع مصيبتهم. ثم أمرهم أن يبتعدوا عن المنارة، حتى يبرز فيراه المجنون الأول. فلما ابتعــدوا، أصبــح في الميـدان وحـده، نادى المجنون الذي على الأرض المجنون الذي في أعلى المنارة، وأراه المنشار، وهدده إن لم ينزل الطفل سالماً حالاً فإنـه سوف ينشر المنـارة، ويسقطه إسقاطاً؛ فذعـر المجنـون ـ خاطف الـطفل ـ وأخذ يتوسل للمجنون الثاني، الذي على الأرض، ويرجوه ألا يفعـل. وبـدأ ينزل فعلاً، ومعه الطفل. وانتهت المحنة، التي خيمت على الناس، بحيلة مجنون على مجنون. ألم يقل المثل: صل المجنون على المجنون؟ لقد صدق المثل.



[٤٥]

أَي بُـنَيّ !

من الأمثلة التي يمكن ـ يا بني ـ أن تعرف بيئتها المثل الذي يقول:

« مثل رضّاخ العبس يوم مابقي إلا وحده هوّن[١] »

«ورضّاخ العبس» هو الذي يكسّر نوى التمر. و «هوّن» يعني «أقلع» أو اعتذر أو «بَطَّل». وبهذه المناسبة ـ يا بني ـ نوى التمر له أسماء محلية يختلف بعضها عن بعض، فهناك من يسميه «فَصِي» كما هو في الحجاز، وهنـاك من يسميـه «عَبَسْ» وهذا في القصيم، وهناك ما يسميه «فِصَم» في مناطق أخرى من نجد، وهناك من يسميه كما سمعت «عَجَم» كما في الجنوب.

وتعرف من هذا المثل أنه أخذ من بيئة فيها نخل وتمر، وكان العبس في الزمن القديم له قيمة، وله أهمية اقتصادية، فهو يباع علفاً للبهائم، ويقال إنه

(١) الجهيمان ٧/ ٣١٥ .

مما يكثّر لبنها ويدره، وكانت بعض المجتمعات تقايض به، وتبيع وتشتري. أما الآن فقد فَقَد النّوى هذه القيمة، ولم يعد أحد يهتم به؛ لأن مستوى الناس الاقتصادي اختلف، ولأن هناك من الأعلاف ما هو أقل كلفة، وأكثر نفعاً للحيوان، وعنده له من الشّهيّة ما ليس عنده للنّوى. وليس في الأعلاف الحديثة اجهاد على صاحب الحيوان، فهي تأتي جاهزة مهيأة، لا تحتاج إلى نار وغلي، ولا تكسير أو تنقية. ومن يعلم! فهذا النّوى الذي لا يُعَبأ به اليوم، ولا يلتفت إليه، قد يقوم حظه على قدميه، ويستوي على ساقيه، ويُكتشف أن فيه دواءًا لبعض الأمراض لا يوجد إلا فيه؛ حينئذ سيتغير حاله، ويرتفع مقامه، ويعلو سعره، ويطلب أينما كان، بل ربما تعز النخلة به عزّاً يزيد عما هي عليه اليوم، فادع الله - يا بني - معي، أن يعلي شأنه، ويرفع قدره.

وهذا المثل - يا بني - يقوم كما قد تتوقع - على قصة، وهي أن رجلاً استأجر آخر، ليكسّر له كيساً



كاملاً من العبس، مقابل مبلغ من المال. والنوى - يا بني - عادة يكسر نصفين أو ثلاثة أجزاء أو أكثر؛ ليسهل طبخه غذاء للحيوان، كما قلنا. ولعله كان ينويه علفاً لبقرة حلوب، أو عنز على وشك الولادة. وبدأ العامل العمل، وبذل جهداً مضنياً، كما هو متصور، وبعد أن كاد يكمله، ولم يبق إلا ملء كف اليد، أو أقل توقف عن العمل، وأعلن أنه استخار الله في اكماله. وأقلع عن اتمامه، وأعلن أنه تراجع عن الاتّفاق، وأن صاحبه في حل من دفع ما اتفقا عليه. فضاع عليه تعبه، وكسب ذلك «المقاول» نوى مكسراً، ودراهمه محفوظة في جيبه. ألا تذكرك هذه القصة - يا بني - بقصة الرجل الذي كان يحمل للناس ما يريدون نقله من مكان إلى مكان، فإذا حمل حملاً - دون أن يتفق مع صاحب الحمل على أجرة - ثم اختلفا على الأجرة بعد أن أوصل الحمل، ثم تعذر الاتّفاق بينهما على المبلغ: هذا يرفعه، وهذا يخفضه، فصمم الحامل على إعادة الحمل إلى مكانه الأول دون أجر، ويكفيه أنه حرم



صاحب الحمل من الوصول إلى هدفه عن طريقه، وما درى أنه هو الذي تعب ذاهباً آيباً مجاناً، وأن صاحب الحمل سوف يحمله على ظهر آخر، وسوف يعي الدرس هذه المرة، ويتفق مع الحامل على الأجر سلفاً.

والمثل كما ترى - يا بني - يضرب للشخص يتعب على أمر، ويسير فيه بجهد إلى أمد، ثم يتوقف قبل بلوغ الهدف بقليل. وفي الحياة - يا بني - مواقف كثيرة، يصلح فيها الاستشهاد بمثل هذا المثل. فاحفظه ينفعك - يا بني - وستسمع من أحد جملة قريبة منه عندما يقول شخص لآخر: كمّل إحسانك أو معروفك، فمعنى هذا أنه بدأ شيئاً ويوشك أن يوقفه ويتراجع عنه، فيضيع ما قدّم بسبب ذلك.

[٤٦]

أَي بُـنَيّ !

السيل عنصر من عناصر الحياة المهمّة في البلاد الـرعـويـة، وبلادك منها. ولهذا كان السيل مادة للتّمثّـل والأمثـال. وهي أمثـال تصور البيئة خير تصـوير. والسيل له فوائد جمة على الفلاح أيضاً، ولهذا فهو من المشاركين في أمثاله، إما قولاً أو تمثلاً.

وسأسوق لك أمثلة متعددة، تعطي جوانب من نظرتهم إلى السيـل، وهي صور صادقة لحياتهم، يمكنك أن تعيش معهم فيها لحظات:

يقـولون :

« مثـل السّـيل دماره عمـاره[1] »

وهذا مثل يبين صورة من الصور التي كان آباؤك وأجـدادك يرونها تتكرر كل عام، حسب المواسم وأمـطارهـا. والمـطر يجلب الخـير، فالعشب ينبت

(١) الجهيمان ٧/ ٣٢٤.

عليه، والدواب ترعى العشب، والناس يأكلون الدواب، ويشربون لبنها، ويستخرجون منه ومنها السمن والأصواف. هذا فيما يخص ابن البادية. أما ابن الحاضرة فالفلاح يفيده المطر في بعض المواسم، وقد يضرّه في مواسم أخرى. فالمطر يملأ له البئر، فيجم ماؤها بعد أن غار، ويكثر بعد أن غاض أو كاد. ويغسل له التربة، ويأتيه بتربة خصبة جديدة. ولكن المطر يضره إذا جاء عند وقت استواء الثمرة، سواء كانت فاكهة أو خضرة أو قمحاً أو شعيراً أو ذرة أو دخناً. وقد يهدم له ساتراً من السواتر التي وضعها على حدود مزرعته، وقد يهدم له، ولساكن المدينة، بيتاً، ويخرب الطرقات.

ونظرة الناس - يا بني - إلى المطر عجيبة، فرغم أنه يأتي ببعض الأضرار، إلا أن الناس يفرحون به فرحة تنسيهم ما قد يأتي منه من ضرر، ويكون لهم من البشر والسرور ما يبث بينهم روح التسامح مما لم يكن قبل المطر. والأسعار ترخص، ولو اقتصر هذا الرخص على الحيوانات والسمن والأطعمة



لكان لهذا ما يفسره، ولكن ذلك يلمس بعض الأمور التي لا تعيش على المطر، ولا دخل لها فيه، مثل الثلاجات والأفران، وغيرها من أوعية البيت المستوردة.

فالمطر - يا بني - كما رأيت رغم ما قد يأتي به مما لا يحمده الناس، فإن هذا محاط بغلاف سميك من المنافع التي لا تحصى. فجاء المثل صادقاً لما ضرب له، وصالحاً لكل أمر يصغر ضرره عند كبر نفعه[1].

(١) راجع المثل السابق رقم (٢٧)، وما قيل فيه مما يماثل هذا.

[٤٧]

أَي بُـنَيَّ !

إليك مثلاً آخر عن السيل يقول :

« مثل السيل يحفر ويدفن[١] »

وهو مثل يضرب للعمل يأتي منه المتضاد، والسيل يجرف أرضاً، ويردم أخرى، يساوي بين العالي والواطىء، والمرتفع والمنحدر. وهو أمر يراه الناس في الماضي أكثر مما يرونه الآن. ولا يعني هذا أن عمل السيل اختلف، أو أن طبيعته تغيرت، ولكن حياة الناس هي التي تغيرت، ومحيطهم تبدل، ووسائل معيشتهم اختلفت. كان عند الناس في الماضي وقت للتدبر والتبصر، والتدقيق في عمل العوامل الطبيعية، ونتائجها. فكان وقتهم يسمح لهم بأن يروا الحفر ودفن السيل لها، لأن الشوارع كانت ترابية، ومع الوقت ومرور الناس والدواب عليها يصبح فيها من الحفر ما يضايقهم.

(١) الجهيمان ٧/ ٣٢٤ .



وبعض هذه الحفر كانوا يحفرونها، ليأخذوا منها الطين الذي يبنون به بيوتهم، أو يجددون به تربة زراعتهم، فيأتي السيل فيردمها، ويأتي لهم بتربة جديدة، ويزيح عن كاهلهم هَمَّ وجودها. وكانت المدن صغيرة، والناس قريبون من الصحراء والبادية، والسيل وعمله فيها وما حولها واضح. وكان السيل يلمس معيشتهم مباشرة، يرون أثره إذا جاء، ويفقدونه إذا تأخر. أما اليوم فوقت الناس ركض وجري، ليس عندهم وقت للتدبر والتبصر، وشوارعهم مزفلته، ومدنهم كبرت واتسعت، فالسيل إذا جاء مرّ مرّ الكرام، وأكبر هَمّ عندهم ما يتركه من نقع وبقع في الشوارع، تضايق سير السيارات، والصحراء ابتعدت بما زحف عليها من عمران ومرافق مختلفة، واكتفى الناس بما في مدنهم من مرافق عما في الصحراء مما كانوا يحتاجون إليه، إلا قلة ممن له في الصحراء ذكريات، أو ورثوا بالسماع ما فيها من بهجة، وصفاء جو.



كان الناس في الماضي في حاجة ماسة إلى المطر، يقل الماء في مزارعهم فيذكرونه، وتحتاج مزارعهم إلى ما يغسل تربتها، ويجددها، فيتطلعون إليه، وتقل المياه في آبارهم في الصحراء والمدن فيستغيثون لينزل المطر. أما اليوم فالماء في البيوت لا ينضب إلا في النادر، ولأسباب فنية طارئة، فالآبار العميقة تعمل طوال العام، ومثلها التحلية. وحتى إذا استغاث الناس اليوم فليس كلهم يدركون الحاجة الحقيقة للمطر.

وهذا المثل مرادف للمثل الذي يقول:

« يشق ويخيط »

والمثل الذي يقول :

« يقطع وياصل »

وكل من هذه الأمثلة نزح بيئته، وانعكاس محيطه، وتعبير عن حاجة، أو افصاح عن مبتغى أوحت به معيشتهم وحياتهم، ولم يمدوا يدهم إلى بعيد ليتناولوه، وإنما كان قريباً منهم، أينما التفتوا وجدوا ما يوحي به إليهم.



[٤٨]

أَي بُـنَيّ !

من الأمثلة عن السيل قولهم :

« **مثل السيل[١] ، ينفع في النّهار وفي الليل** »

ولعل عندك ـ يا بني ـ مثل ما عندي من الشعور بأن السجعة لعبت دوراً غير قليل في تكوين هذا المثـل[٢]. ولكن المثـل ـ بغض النـظر عن الصيغة للفظة ـ صادق فيما رمى إليه ، فالسيل نافع في الليل كما هو مفيد في النهار، ولا يذكر الضرر الذي قد يأتي به إذا جاء ليـلاً والناس نائمون غافلون ، ولم يحسبوا لمجيئة حساباً ، فيدهمهم في أماكن نومهم ، أو في أماكن عملهم وهم لم يحصنوها إستبعاداً لمجيئه .

ولعله يفيدك ـ يا بني ـ أن تعلم أنه جاء إلى مكة المكـرمة في أوائل الستينات الهجرية سيل عظيم ،

(١) الجهيمان ٧/ ٣٢٤ .

(٢) يعضد هذا الرأي ما نراه في بعض الأمثال مثل : «تيتي تيتي ، لا رحت ولا جيتي» ، ديـاب ٨٠ ، ويروى أحياناً هكذا : «تيتي تيتي زي ما رحتي زي ما جيتي» .



دخــل مكــة ليلة الأربعــاء، ولهـذا يسمى سيـل الأربعاء، جاء فجأة، ولم يحسب الناس له حسابا. فجـرف ما أمـامه من الناس والجمال والسيارات، ودخل الحرم، ولم يبق بينه وبين الدخول إلى وسط الكعبة، على ما عليه بابها من الارتفاع، ومع سعة الحرم الشريف، إلا قليل، وبذل مجهود كبير، وجند عدد من الناس كثير، لتصريف المياه التي تجمعت في الحرم، ولتنظيف بلاطه وحصواته ورواقه، واعداده للمصلين.

وهذا مثل يضرب للشيء النافع في كل جوانبه، ولا يقتصر نفعـه على جانب واحد. والأمور التي نفعهـا عام في حيـاة المـاضـين والمعـاصرين تكـاد لا تحصى. خذ مثـلاً النخلة التي سبق أن تحدثنـا عنها، وعن فوائدها؛ فكل شيء فيها مفيد، وكان يسد فراغاً في حياة المجتمع الماضي. شيء منه لأثاثه وريـاشـه، وشيء لبنـائـه وإعماره، وشيء لراحته وضروراته. فالنخلة في هذا أخت السيل، بل لعلها



قد تنافسه في كثرة الميزات[1]، وإن كانت معيشتها على الماء الذي هو مصدره.

(١) انظر، «أي بني»، جـ ٢، ص ٣١.

[٤٩]

أَي بُـنَيّ !

مثل آخر عن السيل يقول :

« **مثل السـيل يتبـع المطـامـن**[١] »

وكـذلـك :

« **المـويه تجـري في الـواطـي**[٢] »

والحـقـيـقيــة ـ يا بني ـ أن كل سائــل يتبــع المنحدرات، ويبحث عن السهل، سيراً على نظرية الأنابيب المستطرقة. فطبيعة السائل أن ينحدر، ولا يندفع إلى أعلى من مستواه إلا بقوة تدفعه؛ فالقوة تخرجه من طبيعته وتدخله في طبيعتها. وإن كنت زرت أسبانيا، أو قرأت مثلي عن إحدى أعاجيب أجدادك في أسبانيا، وما صنعوه في إحدى عمائرهم التي عمـروها هناك، وجعلوا الماء يصعد منها إلى أعـلى، ولم يكن هنـاك من الآلات أو الأنابيب أو

(١) الجهيمان ٧/ ٣٢٥ .

(٢) السباعي ٨٨ .



«المواسير» ما يساعدهم على ما فعلوا. إن هذا ليحير الزائرين هناك. حتى الأسبان اليوم ومهندسيهم لا يعرفون كيف تم هذا إلا بالحدس والتخمين. ويخشون أن ينقبوا، فيتسببوا في القضاء على هذا المظهر السياحي العجيب الجذاب. وفي الأسياح في بلاد عمان شيء من هذا، ولغرابة الأسياح، وصعوبة تنفيذها تدور حولها خرافة أن الذي بناها هم العفاريت بتسخير من النبي سليمان عليه السلام.

أما المثل - يا بني - فدقيق في انطباقه على بعض الأمور التي بحث الناس فيها عن السهل، أو الذي يسير مع طبيعة الأشياء. ويصلح للتعذير في بعض المواقف إذا ما اختار الانسان السهل من بين أمرين أحدهما صعب.

ولو لم يتبع السيل المطامن، ولو لم تكن هذه طبيعته، لما انحدرت الشلالات، ولما جرت الأنهار جريها اليوم، ولما امتلأت الآبار بمياه الأمطار، ففي اتباعه للمطامن والمنحدرات حياة، وأي حياة! للبشر والحيوان والنّبات.



ألا تذكر بهذه المناسبة ما سبق أن قلناه في مثل سابق عن «ماء خرشد يعلو[1]» إذا كان ذلك افتراء، وسيراً خلاف الواقع بنظرية مقتسرة، فهذا مثل طبيعي عملي، ويسير مع واقع الأمور، ويتماشى مع طبيعتها.

(١) المثل السابق رقم (١٩).



[٥٥]

أَي بُـنَيّ !

من السيـــل وطبيعتــه يُستقى مَثَـلٌ تسيـل منـه الحكمة، وتنبض الحقيقة، فالمثل الآتي :

« لا تـرد سـيل منحــي[(١)] »

مثل صادق فيها نبّه إليه، وحذر منه، فمن يقف في طريق سيل مندفع يغرقه. ومن تصدّى له في أول اندفاعه، بما يأتي مع ذلك من قوة وانجراف، غلبه وغطّاه وأهلكه. ولم يأت هذا المثل دون تجربة كانت حصيلة وقائع، لابد أنه فقد فيها من هو غال عند أهله، عزيز عليهم فراقه.

وليس هنـــاك أشرس من شيئـين ـ يا بني ـ إذا تسلطا، ولم يكن في يد الانسان زمامهما : الماء والنار؛ فالماء يستهان به مثلما يستهان بالنار، فتكون النتيجة نكبة كبرى، ومصيبة عظمى. وقد يحلو منظر الماء للسابـح فيتوغل فيه، وتدريجياً يصبح المرء تحت

(١) الألمعي ١٩٣ .



سلطته وجبروته، فيلتهمه بسهولة. والنّار قد تبدأ صغيرة، فتستشري، فيعجز عنها العدد الكبير من محاولي التغلب عليها.

والسيل - يا بني - يأتي «دَرُو» أي دون مطر، تنشأ سحب على أرض، وتمطر مطراً غزيراً، فينحدر السيل مع سهول الأرض وانحدار وديانها، وكلما سار السيل زاد قوة واندفاعاً، فإذا كان هناك شيء في طريقه، أناس أو حيوانات، جرفهم جرفاً، وقضى على الجميع. وكم قضى وادي «وج» في الطائف على أناس من المصطافين كانوا «مقيلين» آمنين متمتعين بجوها البارد، فيأتي السيل له دوي، وصوت مخيف، فلا يتمكنون من الهرب من طريقه أو تفاديه، فهو أسرع منهم. وقد يتساهل بعضهم، ويظن أنه إذا احتمى بسطح السيارة حماه، وأنقذه، فيأتي بقوته، وعنفوانه، فيقلب السيارات رأساً على عقب. ويفعل الله ما يشاء.

وللسيل - يا بني - في الوديان ضحايا لا تعد ولا تحصى، يتأخر المطر سنوات عن منطقة ما، فيزحف



المـزارعون بمزارعهم إلى حوض الوادي أو بطنه، تدريجياً حتى يقتربوا من سد مجراه، يدفعهم الطمع والغفلة؛ فتأتي الأمطار، وتتجمع ويجري الوادي، ويسيـل، فيجرف بيوتهم ومزارعهم، وكأنه ينتقم من هؤلاء المعتدين على حماه. ويعاني الفلاحون من جراء ذلــك، ولكنهم لا يتــوبـون، وسرعـان ما يعودون إلى مالم ينفعهم من درس. وهو أمر ليس في بلادنا فقط، ولكنه في العالم أجمع، خاصة البلدان التي تنمو.

يروى عن الشيـخ صالـح العثـمان القـاضي[1] ـ رحمه الله ـ وهو أحد القضاة المشهورين، في مدينة عنيزة في القصيم، كان قاضيها على أول حكم الملك عبـدالعزيز، وكان مشهوراً بالذكاء، وسَبْر أغوار الخُصُــوم، ولازمـه التـوفيق في إصـابـة الأحكـام المدهشة، ولو جمعت أخباره مع الخصوم المحتالين،

(١) انظر ترجمته في «روضة الناظرين»، لمحمد بن عثمان الصالح القاضي: ١/ ١٥٢، و«علماء نجد خلال ستة قرون» لعبد الله بن عبدالرحمن البسام: ٢٠/ ٣٦٧.

وكيف غلبهم بذكـائـه، لكانت مثل أخبار شريح القـاضي، أو إياس. لم يكن فقيهـاً ـ رحمه الله ـ فقط، ولكنه كان نابهاً ألمعياً، واسع الصدر، كثير التحمل، رحب الجناب، وهي صفات معروفة في آل قاضي.

جاءه اثنـان يختصـمان في تداخـل أرضيهما على جانبي وادي الـرّمّة، فخرج معهما الشيخ صالح، ورأى الأرضين، ولم يصدر حكمه، رغم وضوح الأمر له. ولكنه قال لهما: إنتظرا حتى يأتي خصمكما الثالث، الغائب الآن. فقالا إنه ليس لنا خصم، ولا نعـرف متنـازعاً على هذه الأرض غيرنا. فقال لهما: إني أعرفه، وسوف يأتي ـ إن شاء الله ـ ويقول بفصيح لسانه، وصادق فعله، كلمته لكما.

ثم جاء الشتاء، وهطلت الأمطار، وسال وادي الرّمة، وهدر وأزبد، وجرف المزارع الزاحفة على الـوادي، وفصـل بين المـزارع، وأوجـد حدوداً جديـدة، أوضـح من الشمس لأي ناظـر. ثم أحضرهمـا الشيـخ صالـح، وأراهمـا ما فصـل به



خصمهما الثالث، الذي تجاهلاه في سنين الجدب، وأخذا يزحفان تدريجياً حتى تداخلت مزرعتاهما. وكان الطمع البشري قد أنساهما مأتى الخطر، ومهوى الخطل، حتى أيقظهما ما رأيا الآن. ولم يحكم الشيخ صالح لهما. فقد حكم بينهما السيل، وجريان الوادي. والسيل من جند الله الذي لا يقهر إلا باذنه تعالى.

وهناك مثل آخر يمشي بحذاء هذا المثل، ويتّجه اتجاهه، ويرمي إلى مثل هدفه، يردده العامة في مواقف كثيرة يصلح لها.

يقولون :

« فلان يرد السيل بعباته »

هو مثل الذي يحاول أن يحجب ضوء الشمس بمنخل، أيّ عباة تقف في طريق سيل جارف؟ يقولون هذا المثل إذا رأوا انساناً يعترض على أمر صوته لا يسمع لضجيج ما يقف أمامه، أو يريد أن يصلح ما أفسده الدهر.



[٥١]

أَي بُـنَيّ !

من الصور التي كانت بارزة أيام آبائك ـ يا بني ـ وأجدادك، صور «الحملات» أو «الحدرات» تجوب أراضي المملكة جيئة وذهاباً. يقول المثل المأخوذ منها:

« ما يعـرف الساندات من الحـادرات[1] »

فلان سنـد أو حدر، أو فلان مسند أو حادر، كلمات كنت تسمعها عمن راح يمتار في جهة من جهـات المملكة، وآخر قد حمّل الأحمال، وهو في طريق العودة. وهي صورة كانت مألوفة في الماضي، ولا تستغني عنهـا حيـاة النـاس. فالجـمال تقـطع الصحـاري: عشرات الجـمال أو مئـاتها، وتخترق البراري، وتحيي السبل. تسير الليل والنهار، متنقلة من مدينة إلى مدينة، ومن منطقة إلى منطقة، حاملة موجـودات جهـة إلى جهة. وناقلة انتاج مدينة أو

(١) الجهيمان : ٧/ ٢٢٨



محتواها إلى مدينة أخرى، أو مساهمة في نقل ما يجلب من خارج المملكة، من موانئها إلى داخل أراضيها. فالجمال الساندة أو المسندة هي كذلك بالنسبة لأناس، وهي حادرة أو منحدرة بالنسبة لآخرين. قد تذهب الجمال ببضاعة وتعود ببضاعة. أما «التسنيد» فأصله أن يتجه المرء إلى أرض مرتفعة، «والإحدار» أن يتجه إلى أرض منحدرة. ولكنه في اصطلاح أبائنا، وفي حالة نقل البضائع، يتعدى هذا المعنى اللغوي - يا بني - ويدخل حيز الاصطلاح الذي تعارفوا عليه.

والاحساء كانت مركزاً تجارياً في وقت مضى، وكانت مركزاً مزدهراً لقربه من ميناء «العقير» ميناء المملكة على الخليج، للبضائع الآتية من جنوب الخليج ومن البحرين، ومن الهند بجانب «أبو عينين» أو «الجبيل» وهو الميناء الثاني للبضائع الآتية من شمال الخليج ومن الكويت على وجه الخصوص. وكانت الاحساء أيضاً تكسب أهميتها من وفرة التمر فيها، و«قلال» تمر الخلاص من

الاحساء مشهورة ومعروفة لكل بيت في المملكة، فلاحساء كانت مصدر خير وبركة، ولما قلت أهمية العقير، وقلت أهمية التمر، لكثرة الخيرات من الأطعمة الأخرى، وتوسع الناس في زراعة النخيل في المناطق المختلفة، ومنه «نوايع» يفاخر بها في كل منطقة، لم يحرم الله الاحساء ومنطقتها من الأهمية التي كانت لها، وعوضها عن الكنوز التي كانت فوق الأرض بالكنوز التي ظهرت تحت الأرض، ومن وقود الأجسام إلى وقود الآلات، واستخرج البترول، ولم يعم البترول المملكة وحدها، ولكنه عم بخيره العالم أجمع.

والأحساء في الماضي كانت إليهساندات ومنه حادرات، وللساندين والحادرين عادات وتقاليد، ولهم قصص وهم يعبرون الصحراء[1] وحكايات، ليتها تدون، وان كان أغلب أبطالها قد انتقلوا إلى رحمة الله إن شاء الله. لهم قصص مع الطريق

(١) عن الصحراء، راجع «أي بني»، جـ ٢، ص ١٦٣ .



ومشقتــه، ولهم قصص مع الخصب والجــدب، وتأثيره على جمالهم الساندة والحادرة، ولهم قصص مع الأمن والخــوف. ولهم قصص مع الــريــاح والأمطار، ولهم قصص مع المياه وحلاوتها ومرارتها، ووجودها وعدمها، توفرها وشحها. لهم قصص مع أمراض الجمال، وما يصيبها من جرب وغيره[1].

والمثل يعني أن المضروب له لا يفهم شيئاً، ولا يميز بين الأمور المتضادة رغم وضوحها، فتصور انساناً ينظر إلى آخر، فلا يدري أهو مقبل أم مدبر، وتصور أنت - يا بني - وأنت صاعد في مصعد من المصاعد، ومعك واحد من هؤلاء الذين لا يميزون - فيسـألك: هل المصعد صاعد أم هابط؟ وانسان يشرب الماء ولا يدري أبارد هو أم فاتر، وآخر يلبس الثوب ولا يدري أبيض هو أم أسود، مدفىء أم غير مدفىء. يجوز - يا بني - أنني غاليت في الصـورة، وتجنيت، ولكن مثلهم بالنسبة لهم إذا ضربوه ذهبوا به إلى ما ذهبت إليه الأمثلة التي سقتها لك.

(١) راجع نموذجاً لرحلة أحدهم في: «أي بني»، جـ ١، ص ١٢٧.



وهذا لا يعني ـ يا بني ـ أن بعض الأمثلة لا يكون فيها إجحاف ، فخذ مثلاً آخر يرمي إلى مرمى مثلنا هذا ، يقول :

« **فلان لا يعرف كوعه من بوعه**[1] »

أو :

« **لا يعرف كوعه من كرسوعه** »

هم يعنون بهذا أنه جاهل ، وجهله مفرط إلى الحد الذي يجعله لا يفرق بين مكانين في عضو واحد منه ، وهو اليد والذراع ، والحقيقة والواقع أن كثيراً من الناس لا يعرف هذا من هذا . ولعل السبب في هذا أن اللغة الفصحى تباعدت مع اللغة العربية عند بعض الناس . وأمر آخر : إن استعمال هذين اللفظين قد تمر سنين على المرء دون الحاجة إلى التحدث عنهما . ولعل الذي أوجب الملاحظة أن المثل غولي في تطبيقه على من هو معذور أو لا يعرف ، ولكن أصبح من المسلم به أنه يضرب علامة للجهل المطبق ، وإن كان الواقع يخالفه .

(١) الألمعي ٢٤٠ .



وأكثر من هذا في البعد عن الحقيقة، مثل آخر، أخذ من محيط غير محيطنا الحالي، محيط كانت تكثر فيه الخيل، وتعيش بين الناس، ويعتبر كل جزء من جسمها معروفاً لهم، لأهميتها، وأهمية ما يميز بعضها عن بعض في اللون والشيات.

يقول المثل:

« ما يعرف قطاته من لطاته[1] »

والقطاة هي مكان الردف من مؤخر ظهر الحصان، واللطاة بياض في جبهة الحصان. فهل - يا بني - إذا جهل أحد منا هذا أصبح جاهلاً بكل المعايير؟ لا، ولكن المثل مفصل لمن يريد أن يلبسه آخر، تعبيراً مختصراً لما يجول في نفس القائل عمن استعير ليقال فيه.

ومثل آخر - على هذا المنوال - يقول:

« لا يعرف الحَوّ من اللّو »

---

(١) عقلاء المجانين ٢٥ .



أي لا يعـرف الكـلام الذي يفهم من الذي لا يفهم، و «لا يعرف قبيلهُ من دبيره»، أي لا يدري فُتِل إلى فوق أو إلى أسفل[1].

(١) مجالس ثعـلب، ١/ ٣٧، وفي اللسـان عن ثعلب «أي لا يعرف الكلام من الخفيّ».

[٥٢]

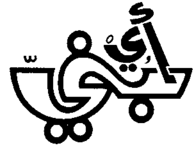
أَي بُـنَيّ !

والعنـاد أمـر يتـداخـل مع التعنت في بعض جوانبه، ولا يخلو منهما مجتمع، وقد شغلا الناس، فالعنـاد فيـه شعبـة من البخل، لأن صاحبه يظن بالتنـازل عن رأيـه المتعنّت. والبخـل وضـع فيـه الجاحظ كتاباً متكاملاً، يعتبر من أشهر كتبه، ومن أمتعها. فيه من الطرائف والغرائب ما يجعله سلوة للقـارىء؛ مع أدب رفيع، وتعبير فائق. ويجتمع البخل والتعنت في المثل الآتي:

« **ما يشيل الزباد بنصفه**[1] »

وهو مثل يضرب لمن يُغلي خدمته، ويصرّ على ما أبداه، حتى لو كان في أعين الناس غير عادل، ومتعنت. والزباد عطر كان معروفاً وشائعاً في زمن مضى، ورغم وجوده حينئذ، وارتفاع سعره، إلا أن عطور باريس تعـدّتـه، وتركته خلفها، ولعله

(١) الجهيمان ٧/ ٢٢١ .



يدخل في بعض تركيبها. والمثل اختير عن الزباد، لصغر حجمه، وخفة وزنه، ومع هذا فمن طُلب منه حمله، وإيصاله إلى البلاد الأخرى، يشترط نصف الزباد أجرة له. وهو شرط جائر في نظر من وجد أن هذا يصلح مثلاً لمن يغالي في قيمة خدمته. ومع هذا ـ يا بني ـ فإذا عرفت أنه ربما يعبر بالزباد البحر بما فيه من أهوال، أو الصحاري بما فيها من مهالك، وقطّاع طرق، وجدت «له عذرا وأنت تلوم».

وكان الزباد ـ على ما أذكر ـ يا بني ـ يجلب إلى عدن من الهند، وإلى سواحل الخليج. ويقول عنه صاحب لسان العرب المحيط: «والزَّبَّاد: مثل السنّور الصغير، يجلب من نواحي الهند، وقد يأنس، فيُقتنَى ويحتلب شيئاً شبيهاً بالزّبد، يظهر على حلمته بالعصر، مثل ما يظهر على أنوف الغلمان المراهقين، فيجمع، وله رائحة طيبة، وهو يقع في الطيب».



لهذا كان ـ يا بني ـ ثَمَنُهُ مرتفعاً، لندرته، وصعوبة جمعه، ولعل ما قيل عن حيوانه أنه قد يأنس، يوحي بأنه متوحش، مما يضيف جهداً على من يحاول الاستفادة منه، خاصة وأن هذا الأمر يحتاج إلى صبر، وأن الموضع الذي يجمع منه موضع حساس ومهم، لأنه مخرج رزق أبنائه، وهو به ظنين، وله حَامٍ مستميت.

وهذا المثل كما ترى ـ يا بني ـ قيل على سبيل الانتقاد المتناهي والاستهزاء والتندّر.

والشّرط المتشدد قد لا يكون عندهم له جزاء أو عقاب، ولكنهم لا يرتاحون من تصرف صاحبه، لأن التآخي والتسامح سمة مجتمعهم الغالبة. ولأنه لا حيلة لهم بالمتّعنت، المتشدِّد في شروطه، فلا طريق لهم إليه إلا عن طريق ضرب الأمثال، وهي أمثلة قاتلة، وهي سلاح نفسيٌّ، يخدمهم في هذا الأمر، وينفس عنهم، كما تنفس «النكت» عن المصريين ـ كما يعتقده كتّابهم ـ ما يجدونه من حيف



في بعض أمورهم، «فيفرقع» الواحد منهم «نكتة» تريحه، وتنفس عنه، وتريح غيره.

ومن الأمثلة - يا بني - التي أطلقها آباؤك وأجدادك في هذا المجال مثل يقطر أسىً، ويسيل ألما، وهو المثل الذي يقول:

« **ما يدفن أبوه إلا بعرقه** »

أي أجرة.

وسوف - يا بني - نفرده وحده، لأنه يستحق ذلك. ولك أن تحكم بعد أن تسمعه.



[٥٣]

أي بُـنَيَّ !

وإذا كان المثـل السـابق يوجب الاستهـزاء، ويجلب التندّر والانتقاد، فهناك مثل يسير على طريق مماثـل له، ولكنّـه يثـير الـرعب والاشمئـزاز والاستنكـار، لأنـه خروج تام عن خط الانسانية وسبيلها، وما اعتاد الناس عليه من الانسان السّوي وحتى الحيوان يأنف منه في بعض أنواعه، ولم يطلب غراب قابيل وهابيل ثمناً لدفن أخيه. يقول المثل:

« **ما يـدفـن أبـوه إلا بـاجـرة**(1) »

وأحياناً يقال: ما يدفن أبوه إلا بعرقة. والعرقة تعني الأجر. تصور ـ يا بني ـ إنساناً يصل به اللؤم والبخـل والتعنت والصفاقة، وقلة الحياء، والبعد عن الخـوف من الله، أن يطلب على دفنـه لوالـده المتوفَّى أجرا. هل هذا مقابل تربيته، أو تغذيته، أو كسائه. حتى لو لم يقم والده بذلك له، فالله خلق

(1) الجهيمان ٧/ ٢٤٠ .

الانســان وخلق معه جبلة حب الوالد لابنه وحب الابن لأبيه، وحتى لو ظهر على سطح العلاقات ما قد يوهم غير هذا. إن الذي يعق والده مهما أظهر من رضائه عن نفسه على ما يفعل هو في داخله يتألم، بل يعصره الألم، هو شقـي داخـليـاً، وإن غالط ظاهرياً، يتمنى أن لو يعيد عقارب الساعة، فيكون مع والده غير ذلك. هذا إذا كان طبيعياً، أما إذا كان مختل العقل، فكيف يطلب من ميزان به خلل أن يزن بصحة ودقة.

والمثـل متنـاه في تصـويـر الموقف، وعميق فيما يمكن أن يضرب له، وغريب ـ يا بني ـ أن يُفكَّر فيه في مجتمع مثل مجتمعنا، خاصة في الماضي، بما عرف فيـه عن النّـاس من برّ بالوالدين، وتقوى الله فيما أوجب عليهم من طاعتهم ومراعاة حقوقهم، وعدم خدش شعورهم ولو بكلمة «أف» على بساطتها[1].

ولكن البخل، واللؤم، ليسا من حصاد العقل المتـزن، فلا عجب أن يقـودا صاحبهما إلى أعمق

(١) ارجع إلى ما سبق عن الوالدين في: «أي بني»، جـ ٣، ص ٧٢.



جحـور ظلام النفس، وأن يركسـاه إلى أسفل درجـات الـوحشية. ولهذا حاربهما العقل في كل لغة، ووسمتهم كلمات الأمثال والحكم بميسم حامٍ ومؤلم. والأمثال عليهما، والتحذير منهما متواترة في الكتب التي تبحث أمور الأخلاق والآداب.

ولا يمل الانسان التفكير في هذا المثل وجوانبه، لأنـه مثـل يدل على انحـراف في الجانب الانساني خطير. ولا يزال العجب يأخذ مأخذه عند التفكير كيف فكر فيه شخص من جيل مضى، في مجتمع من مجتمعاتنا. خاصة ـ مع ما قلناه ـ عن ما هو معروف من بر النـاس بآبـائهم. ان الـدفن لا يحتـاج إلى مؤونـة، ليس هنـاك تابوت، أو موكب جنازة من عربات وخيل، وموسيقى ونائحون، ما هناك إلا حفرة في أرض «مجّانية»، وكل مستعد أن يساعد في الحفـر والدفن. ما الذي أوجب أن ترتسم صورة مثل هذه في ذهن أي فرد من أفراد ذلك المجتمع؟ لكن نعـود ونقول إن المثل يضرب لا ليمثل حالة واقعـة، ولكن حالة مغالًى فيها، لتأتي بمظهر عام



يزيد في التأثير. أتذكر ـ يا بني ـ كيف يعمل رسام الصــور المضحكــة «الكــاريكــاتــير» أو الــرســوم الســاخــرة، إنــه يُجَهِّم المــلامـح الــرئيسيــة المميزة للشخصية، فقد تكون العينان هما مسقط تفكيره، وقد تكون الأذنان، وقد يكون الأنف أو الشفتان، وقد يكون الفم أو الرقبةّ أو الجسم، وهكذا حتى تبدو وكأنها ليست لإنسان.

أي انسان لا يعمل معروفاً أو لا يؤدي واجباً، أو لا يشارك في مناسبة إنسانية يصلح هذا المثل أن يقال عنه.



[٥٤]

أَي بُـنَيّ !

سأحـاول أن أتنقل بك كالنّحلة من زهرة من الأمثال إلى زهرة، ومن صورة إلى صورة من صور الماضي. وإن اضطررت أن أمشي على نسق واحد في بعض الأحيان، فاني سوف أسرع إلى قطع هذه الرتابة، حتى لا يصيبك الملل، وتذكّر ـ يا بني ـ ما أقـولـه وأكـرره دائماً، عن عدونا اللّدود «المَلَل»، الذي يجعلك تملّ فلا تقرأ إلا مرغماً، وأنت ـ مثل غيرك ـ إذا أرغمت أو قسرت على القراءة لم تستفد، فيضيع الهدف الأساسي من عملنا، ويضيع وقتنا كما يقول العامة: «خالي بلاش»، أي سدى، ويضيع الجهد والتعب.

كان الناس ـ يا بني ـ في الماضي ـ خاصة الحكام والتجـار ـ إذا أرسلوا رسـالـة يقتصرون فيها على السـلام، والسؤال عن الأحـوال، والأخبـار عن أحوالهم عموماً، وما يخص أحوالهم العائلية. ولو قرأت أسلوبهم في الكتـابـة للخـطابـات لغلبتك



الدهشة، إذا لم تأخذك نوبة من الضحك. وسوف أعطيك نموذجاً مما كان بعضهم يكتبه:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين على أمور الدنيا والدين.

حضرة جناب المكرم العزيز حميد المكارم والشيم فلان حفظه الله وأبقاه وجعل الجنة مثواه آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ومغفرته ومرضاته، وإن سألتم عنا فنحن ولله الحمد بخير وسرور، ما نسأل إلا عنكم، نسأل الله أن يجمعنا بكم عن قريب، على أسر الأحوال، انه قريب مجيب. ومن طرف كذا...

هذا ولا تقطعون عنا المكاتبة ترى الخط نصف المشاهدة. هذا ما لزم ومنا السلام على فلان وفلانه ومن يعز عليكم ومنا يسلمون فلان وفلانه. هذا ودمتم سالمين، والسلام. محبكم فلان.

هذا هو المعتاد أما المُهم، وهو ما يخص أمور الحكم أو الجيوش أو التعليمات التي تحتاج إلى متابعة



وتنفيذ، أو ما يخص التجار وأسعار السلع وأحمالها، وحدراتها، وقوافلها، ففي الغالب يضعونه في خطاب ثان ليس فيه ديباجة، والبسملة فيه تختصر إلى بسم الله فقط. ويسمى هذا الخطاب «ملحق» أو ملحقاق خير»، وتكتب هذه الكلمة في أعلاه.

وإذا أشاروا إلى الملحق في الخطاب الأصلي تعمية فإنهم يلحقون أحياناً ملحقاً ثانياً يكون هو المهم، وقد يلحقون ثالثاً. ولعل السبب يكمن في أنه إذا اعترض «الطارش» أي «المسافر» حامل الخطاب عَدُوّ فإنه يكتفي بما يبين له من الخطابات التي لا تحمل أخباراً عن الأهداف، والأمور المهمّة المخفاة. ويوضع «الملحق» في مكان سري أمين، لا يخطر على بال أحد مكانه، فيتفنون في اخفائه وحفظه كل مرة في مكان مختلف عما اعتاد الناس أن يتوقعوه فيه. ومع هذا فقد يعثر عليه مع التفتيش الملح الجيد، لأن عقلية الناس متقاربة، وحيلهم ليسْت بعيدة عن ذهن الانسان غير العادي، فيحدس بعضهم ما دار في ذهن الآخر، خاصة

وأن المجـال، الـذي يمكن أن يخفي فيـه الرسول الخـطاب، ضيق ومحـدود، فليس عنده إلا ناقته، و «خرجهُ» ومزودته وملابسه وفراشه.

على أن محاولـة حفظ الخـطاب وصيانته لا تتم خوفاً من الأعداء فقط، ولكن أحياناً خشية الأمطار مثلاً، فهي توضع في حرز مكين من جلد، وتوضع في قاع «المزودة» أو «الخرج». ولا تظن ـ يا بني ـ أن كل من يعـترض طريق المسافر، أو القافلة، حين يرى الخـطابات المقدمة دون ملحق، يشك في أن هناك ملحقاً. إنه لا يشك، لأن أكثر الناس عندما يرسـل خطابـا يقتصر فيـه على السـلام والتحية، والأخبار العائلية اليومية البسيطة، فالناس ينتهزون فرصة سفر «الطارش»، فيكتبون معه حتى يطمئن المُـرسل إليه أن أهله أو أصحابه أحياء، وبصحة جيدة، أو ما قد يكون خلاف ذلك، فالأفضل أن يسمع الأخبار منهم في خطاب بدلاً من أن يسمعها من أفواه من قد لا ينقلون الخبر صحيحاً. والذين يكتبون يتوقعون ويؤمّلون أن يعود رد خطابهم مع قادم آخر، وهكذا يتواصل الأمر.



ولم تكن - الأمور - يا بُنَيَّ - عندهم - كما هي عندنا اليوم - طوابع بريد أو دَمْغاته، وبريداً منتظماً، عادياً ومسجلاً، ومستعجلاً، وتلكساً، وفاكسميلياً وتليفونياً. ورحم الله البرقية وأهل البرقية، فهي على حداثتها أصبحت ذكرى، إلا للهواة. إن القفزة - يا بني - شاسعة، والتطور بين الأمس واليوم عظيم. وبدأ الجديد يزحف زحفاً سريعاً بل يقفز قفزاً متوالياً، ومنظماً، على الجديد فيمحو معالمه، ويطمس سماته، فلا يبقي له أثراً، ولا يترك خبراً، إلا ما سوده القلم على الورق، ونقشه على الصفحات، التي سوف تصبح تراثاً منزوياً.

إن هذه الخطابات التي كتبها آباؤنا - على بساطتها - ثروة لا تقدر بثمن، فهي تحكي تاريخهم: معاناتهم وإنجازاتهم، وتصوّر آلامهم وآمالهم ونجاحهم وإخفاقهم. ترى هل نترك لمن بعدنا ما يماثلها. إن عندنا من الوسائل ما لم يكن عندهم. إننا نملك تسجيل حاضرنا على مواد تظهر

الصورة بألوانها، وربما وأبعادها، وصوتها، ويخلق الله مالا نعلم. ولكن وسائلنا تحتاج إلى عناية ورعاية، فهي تحتاج إلى غرف مهيأة، وصيانة مستديمة، وربما يأتي يوم نقابل مشكلة كونها أصبحت انجازاً قديماً لا يصلح للعمل مع آلات أحدث منها، كما حدث لأول «فيديو» اخترع، هل تذكره بحجمه الضخم، والتحذيرات التي تواكب تشغيله، وكثرة الخلل الذي يتعرض له، وضخامة أشرطته. وقد أصبحت لا تصلح لآلات «الفيديو» الحديثة، ولم يعد ذاك يصنع أو يُصلَح. ولكنَّ الحيلة أنقذت بعض أشرطته، فنقلت قبل فوات الأوان على أشرطة حديثة. وربما جاء وقت تعاد الخطوة، ويتفادى عيب التطوير.

ومن بيئة آبائنا ومراسلاتهم ومجتمعهم الذي وصفنا نحتوا مثلاً يقول:

« مضمون الخط بملحاقه[1] »

---

(١) الجهيمان ٨/ ٦٩.



وهذا يؤكد أن الخط ليس فيه ما هو مهم، وأن المهم هو في الملحق الذي مع الراكب الذي يحمل الخطاب.



[٥٥]

أَي بُـنَيّ !

إذا بذل أحـد النـاس مجهوداً ولم يأت بنتيجة، وكان هذا متوقعاً، لأن طبيعة العمل لا تؤدي إلى المطلوب، ولا تحقق الأمل، قيل عنه أنه :

« **يخـطط في ماء ويقبـص في حجـر**(١) »

فأنت ـ يا بني ـ مهـما خططت في الماء فعملك هدر، ولا نتيجة تأتي منه، وكأنك لم تفعل شيئاً. وهذا أمر واضح، وتجربته سهلة. ويستحق ضارب المثل الأول الاعجاب على هذه المقدرة في التصوير، وأردفـه بما أكده، فأنت لو «قبصْت» أو «قرصت» حجرا بأصبعيك، فلن يتأثر الصخر، وإنما ستتعب أصابعك ويكل ساعدك ويدك.

والمثل ـ يا بني ـ يمكن أن يكون مأخوذاً من أي بيئة، ففي كل بيئة ماء، وفي كل أرض حجر. وإذا كان المثـل في شقـه الأول، قرر عدم الجدوى في

(١) الألمعي ١٨ .



التخطيط في الماء، فقد أكد الشق الثاني منه، وهو قرص الحجر، ما رمى إليه الأول من عدم الجدوى من العمل، وزاد ما قد يأتي من هذا العمل من ضرر.

سألت ـ يا بني ـ يوما صديقاً انتقل إلى رحمة الله، وقد ذهب إلى إنجلترا، وهو كبير السن، عن حصيلته من تعلم اللغة الانجليزية في تلك السنة ـ وكان مستمرا في الجهاد في تعلمها ـ فقال: إنما أنا أخطط في الماء. ففهمت أن هذا المثل ينطبق عليه، ومثل آخر ينطبق عليه أيضاً. أما المثل الآخر فهو:

« إحصد هوا غمر ماش »

وسبق أن مرّ بك ونحن نتحدث عن تأثير بيئة الفلاح على أمثاله وصياغتها. (المثل «٢» ص ١٥)

وغريب أمر البيئة وانتزاع الأمثال مما فيها، أو لعله ليس غريباً، ولكنه مدهش حقاً. فأنت رأيت الآن أن المثل الأول يمكن أن يأتي من أي بيئة. أما الثاني فمؤكد أنه من بيئة الفلاح أو بيئة تماثلها.



ولكنْ هناك أمثال قد تستطيع أن تحدد بيئتها، وقد لا تستطيع ذلك بدقة متناهية فمثلاً:

« من دارِى عنّك يا اللي في الظلام تغمز »

هذا المثل بيئته في الحجاز. وهو ليس معروفاً مثلاً في نجد، مع أن الظلام موجود في كل مكان، والغمز معروف لكل الناس، ولا يقتصر على قوم دون قوم، ولكن اللهجة هناك حددت بيئته.

وماذا ـ يا بني ـ عن اللغة العربية الفصحى، وما فيها من أمثلة رضيّة صادقة. وليس هناك مثل سقناه من التراث الشعبي أو العامي إلا وهو في الفصحى بأصدق تعبير وأدقه. استمع إلى العربي الفصيح ماذا قال عن الذين يبذلون جهداً ضائعاً، لا مردود له، وهم يعرفون ذلك. يقول المثل:

« لا حياة لمن تنادي »

أرأيت ـ يا بني ـ لو ناديت ميتا بأعلى صوتك، لبح صوتك، وتمزقت حباله، دون أن يسمعك، بله يجيبك. وهذا مثل أيضاً ـ يا بني ـ لا بيئة له، أو على



الأصـح كل بيئة يمكن أن تدعيه، فالحياة والموت ملازمان لكل انسان، ولا حي لا يموت إلا الله ـ سبحـانـه وتعـالى. والمناداة تأتي من كل انسان له صوت، وحبال صوته قوية سليمة.

أما إذا أردت مثلاً يمكن أن تتأكد من المهنة التي استُقي منها وهي بيئتة، بما لا يتطرق إليك حياله أي شك، فاستمع إلى هذا المثل:

« كأنـه يضـرب في حـديـد بـارد »

إنه بلا شك متسلسل إلينا بهدوء من مصنع الحداد، فالحـداد عندما يريد أن يطرق الحديد، ويكيّفه، يحمّيه في النار القويّة، ويوقدها عليه بحطب جزل متتـال وضعه على النار، حتى يصبح الحديد جمرة متقـدة، فيخـرجه إلى السندان، ويضربه بمرزبة مخصصـة لذلـك، ويشكله بالقالب الذي يريده. وبالتأكيد سوف تتعب يده، إذا كان الحديد بارداً، ويفت في عضـده ويضيـع جهـده، ويكون كمن يخطط في الماء.

[٥٦]

أَي بُـنَيّ !

ولننتقل إلى مثل آخر :

بعض الناس يمتص خير بلد، ولكنّ نفعه لبلد آخر، ويستفيد من مجتمع، وفائدته لمجتمع آخر، يستفيد من هذا البلد ولا يفيده، ويفيد ذاك البلد وهـو لم يستفد منه. ويشعر قوم أن شخصاً عاش بينهم، محسوباً عليهم، وفائدته ليست لهم، وإنما لآخرين، وعليهم غرمه، ولغيرهم غنمه. وعندما يجدون مثل هذا بينهم يبحثون عن مثل في مجتمعهم ينـطبق عليه، ويكون له التأثير المتوقع من ضرب الأمثال، فيجدون مثلاً، كأنه قد فصل عليه، يقول:

« **دجاجـة تكاكـي عنـدنا وتبيـض بـره**[1] »

عانى آباؤنا ـ يا بني ـ من مكاكاة الدجاجة هذه، عندما تريد أن تبيض، لأنها لا تأتي ـ في الغالب ـ إلا وقت القيلولة، ولا أدري ما هو السبب. ولمكاكاتها عنـدمـا تريد أن تبيض صوت مميز، يعرفه الكبار

(١) السباعي ٣٤ .



والصغار، وهو صوت عال يبدأ بنغمة منفردة ممدودة، تتلوها كاكآت قصيرة متتالية، لها عدد تنتهي عنده، ثم تعود من جديد، ولو كنت أعرف السلم الموسيقي لرسمت لك موسيقاها ونغمتها، ولكن أحيلك على بعض المغنين وموسيقاهم، فهي عند بعضهم لا تختلف عن بعض كأكأة الدجاج، والدّجاجة في هذا ترجح عليهم، لأن كأكأتها تأتي ببيضة، أما هم فتأتي بصداع. وللدجاجة ـ يا بني ـ صوت مميّز عندما تنهي وضع البيضة، يضيع أحياناً وسط ضجيج الديك والأخريات، مشاركة لها في الشعور، وحمداً لله على انتهاء معاناة اختهن، أو لعله حنق على الديك الذي كان سبب المعاناة، وتوعدا له. وهو، خوفاً من جمعهن، يشاركهن الاحتجاج على نفسه. ويلجّ البيت بهذه الأصوات أو يلج الحوش والفناء. فيصحو نائم القيلولة، وهو بين غضب لازعاجه، وفرح ببيضة الدجاجة. أما المؤكد فإن النوم قد طار من عينيه، وفرّ من جفنيه، وذهب إلى غير رجعة.

ولا أريد ـ يا بني ـ أن أدخل معك بعمق إلى أمر الـدجـاج، وطـريقـة حياته، وإن كانت طريفه، وتستحق الغوص في غبّتها، لأننا كنا نراقبها، ونحن صغار، وندرسها بتتبع واصرار، لأنه لم يكن عندنا في القيلولـة، والكبـار نيـام، إلا ألعاب محدودة، سرعان ما نملّها، فنلجأ إلى دراسة ما حولنا من «ذرّ» و «نمـل» و «قعـوسـة»، أما «القعر» فلا يظهر إلا بالليل. وهناك «الذّبّة» وطنينها ـ كما سبق أن حدثتك عنها[١] وهي نوعان واحدة تبني عشها على الجدران، والأخرى داخل الخشب. وهناك العصافير، وسبق أيضاً أن حدثتك عنها[٢]، والنخل وسبق أن حدثتك عنـه[٣]، والقلبان[٤] والحمير المراحة في ظل بيت، وكم «صقلت» رمحت، وكم آذت مثل ما أوذيت[٥].

---

(١) «أي بني»، ٢/ ٨٧، ط ١.

(٢) «أي بني»، ١/ ١٥٣، ط ٣.

(٣) «أي بني»، ٢/ ٨١.

(٤) «أي بني»، ٣/ ٢٣.

(٥) انظر: «أي بني»، ٢/ ٤٩ ط ١ و ٢/ ٢٩٤، ٢٩٧، ٣٠٠، ٣٠٣، ط ١ و ١/ ٧٧، ٧٩ ط ٣.



والدجاج ـ يا بني ـ له نصيب وافر من مراقبتنا ونحن صغار، نعرف هل الدجاجة تبيض أو «جازية» أي في أجازة لا تبيض، وقد أخذت راحة في تلك الفترة، ونعرف عندما «نعسها» نفحصها متى سوف تبيض. والديك نراقبه، ونراه عندما يعثر على حبة قمح أو ذرة أو غيرهما، ينادي «صاحبة البخت» من زوجاته المتعددات، ليتحفها بها، ويطرد بحزم وإباء الأخريات. والمناداة هذه لها نغمة خاصة، نعرفها، وتعرفها الزوجات، ونراقبهن، وقد أتين على صوته، فيطرد غير «المبخوتات»، ويسمح «للمبخوته» بأن تقترب، وتلتقط الحبّة، وهو يحجل حولها فرحاً، كأنه جاء برأس كليب. وربما أذّن بعدها أذانا يسمعه القريب والبعيد.

وهناك نغمة أخرى يصوت بها للتحذير، تختلف تماماً عن سابقتها، إذا رأى القط، ولعل الذي يكيفها هو حبال صوته المشدودة من الخوف والرّعب. وإذا رأى طيراً، يدور في الجو، ظنه



حدأة، فأصدر صوتاً محذّراً ومنبّهاً. وهو دائماً متنبّه، ويسبق زوجاته إلى مواطن البحث عن الرزق، وينبش أمامهن بمخالبه. ولكل ديك طريقته في الأذان يتفق فيها مع الآخرين في عمومها، ويختص هو بما يميزه فيها عن غيره. وكلما طالت مَدَّة الصوت بالأذان في المقطع الأخير دلّ هذا على طيب الدّيك وأصالته وقوّته، فيرتفع سعره. ويكثر المزاودون عليه عند جلبه للبيع.

والديك ـ يا بني ـ قد يكون «أفرقاً»، أي أن عرفه مبتعد جانب منه عن الآخر، وبينهما فاصل ظاهر. وهذا النوع هو المفضل عند الأولاد، خاصة إذا كان أبيضاً، رغم أن الأحمر جميل وملون بألوان عديدة وزاهية. أما إذا كان الديك «أَلْدَماً»، أي ملتصق جانبي العرف، فهو ينزل إلى الدرجة الثانية عند خبراء الديوك، وتنزل معه قيمته. وقد لا ينفعه حسن صوته، لأن صوته قد لا يظهر وقت البيع.

والدّيك والدّجاج عند المساء «يَسْرُون»، فيصعدون على مرتفع، يكونون عليه في مأمن من



القط، عدوّهم اللدود، المتربص المتوحش. ويبقون على المرتفع حتى الصباح، وغالباً ما يكون هذا «المَسْرَى» خشبة تقترب من السقف، يستطيعون الصعود إليها مباشرة، أو عن طريق وسيلة أخرى. وهم يختارون المكان المريح لهم، مالم يعوّدوا على غيره، فإنهم يعتادون. والعادة تحكمهم في أنهم عند غروب الشمس يذهبون إلى «مسراهم» بأنفسهم بانتظام لا يختل. ويُؤَذِّن الديك وسط الليل، وعند الفجر، وفي أثناء النّهار. ولا يسيطر على نفسه، إذا سمع ديكاً آخر يؤذن، فيؤذِّن معه، إما تجاوباً، أو تحدّياً ومفاخرة بأن أذانه أجمل من أذان الآخر. أو إعلامه بأن في العرين أسداً. والغريب - يا بني - أنه لا يفرّق بين الأذان الطبيعي من ديك مثله، والأذان المتصنع من إنسان يريد أن يستدرجه إلى الأذان. والأطفال كثيراً ما يلهون ويعبثون معه بذلك[١].

---

(١) راجع ما مر في: «أي بني» جـ ٣/ ٣٠ ط ١ .

وتعرف الأطفال ـ يا بني ـ وعدم تحرّيهم أحياناً لما يتماشى مع الـدّين، ولأبليس في هذا المجـال دور يلعب به عليهم، فيخرجهم من حيز الرحمة إلى حيز القسـوة، وهذا يعجبهم ويطربهم. ويملي عليهم ـ يا بني ـ «مناقدة» الديكة، أو مقاتلتها. فيختارون اثنـين ينْزلونهما إلى الحلبة، منتهزين عداوة الديك للديـك، وعدم قبوله إياه قربه، أو قرب محيطه؛ ويلتقيـان وقـد «كـوشـا» برأسيهما، وجمعا الريش عليهـما، ووقفـا وقفـة تحفـز، وسرعـان ما ينقضا بمخـالبهـما أحـدهمـا على الآخـر، فيدمي أحدهما عدوه، حتى «يُعَسِّب» أي ينسحب متخاذلاً. ولا تسأل عن فرحة صاحب الديك المنتصر، وانكسار صاحب الـديـك المهـزوم. وفي أثناء هذا العراك تجدهم «ينطرون» الطريق، أي يراقبونه، لأنه لو جاء أحد من الكبار، لَضَرَبهم وشرّدهم، وربما أخبر ذويهم بما يفعلونه بهذه «البهائم» العجماء.

وليس هذا فقط ما يفعلونه مما يدخل في جانب الاثم، ولكنهم يعلمونها قتال أي أحد، فيأتي أحد



المدربين الصغار، ويلف على كفه قماشاً أحمر، يوهم الديك فيه أنه ديك آخر، وأن هذا «عُرْفَه»، ويحرك يده بحركة عدائية، تشبه حركة الديك العدائية لديك آخر، فينقض عليها، ويبعد هذا يده ثم يعيدها، ثم تدريجياً يغيّرها بخرقة بيضاء، مع الابقاء على الحركة نفسها، حتى يصبح الديك قابلا للهجوم على أي شيء يتحرك أمامه. ولا يعرف أهل البيت أن أولادهم قد أفسدوا أخلاق الديك إلا عندما يبدأ بمهاجمة عراقيبهم، وأقدامهم، وهم يمشون، مما يضطرهم أحياناً إلى ذبحه، والتخلص منه، فيندم الولد ولات حين مندم.

هذا كله - يا بني - ينطبق على الدّيك البلدي، والدجاج البلدي، أما المجلوب من الخارج فهو لا يؤذّن، وإن أذّن فصوته قصير وقبيح. ويكاد لا يمت إلى أذان الديك البلدي بصلة. وعلى كل حال فالديك الافرنجي كابٍ كالحٌ، ولا يصلح إلا منتوفا مطبوخاً موضوعاً على السفرة. ومما يلاحظ عليه أنه ليس عنده غَيْرة على دجاجاته، فتجد في الحظيرة



الواحدة عدداً من الديوك، لا يهتم أحدها بالآخر، بينما لو وجد ديك آخر مع الديك البلدي في حظيرة واحدة لتخلّص أحدهما من الآخر[1].

وزيادة في الفائدة - يا بني - أحيلك على ديوان الشاعر الأستاذ عبدالمحسن الناصر الصالح[2]، ففيه قصيدة نبطية عن الدّيك وعدوّه القط، فيها صور رائعة، ولولا خشيتي من الاطالة لسردتها لك هنا واكتفي بمطلعها وبعض أبيات منها:

لي ديكٍ زين توقيته   يْوعّى النّايم تصويته
لولا طيبه ماً شريته   بريال وقرش الدّلّالِ

***

يوم الله قدّر ما كاني   صيّف ديكي بَلاِذّاني
قَحَص مَسْبوه وعَجْلاني   قلبه من صيفه يِجتالي

***

(١) يقول أحد الأمثال في الجنوب، وهو مثل صادق حقاً: «سيفين في غمد ما يمكن»، الألمعي، ١٠٧ .

(٢) الديوان، ص ٦٤ .



يومِ اطلع راسه وحنوكه   وإلى أنّ الكيسه مفكوكه
عَلَى اثْمَ الفِرجه متكوكه   بَاثْـم الـبزّون الحَبّـالي

***

حدا زوجاته حسّت به   لكن موته مادَرْيَت به
قالت لاخْتَه رَجْلك وشْ به   يرقص كِنّه فيِه هْبالي
قالت يلعبْ لِعبَ العَرْضه   أو ينفض بشته فيهَ أُرْضه
والاّ الريّس يقضي فرضه   لا والله طاحَ الرجّالي
جَت لَه قالت لا باس   وراك نْيـيم بالسّـاس
يا خَـواتي مالُـه راس   وين رْوَيسه وَاعزّالي
صاحن مِن ذافنّه فنّـه   واعْقَلْهنْ قالـت غطنّـه
وِادْعَن للميّـت بالجَنّـه   عمره شمس فَيّه زالي

***

قالِ سْلَيّم يا باباه   شِـبْ البنـدق في علباه
دام السِّرقـة في مخبـاه   تشهـد عن لـوم العذّالي

***

بَالثَّرَا يـا ديـك سْـليّم   تسـرق وتْقابل يادغـيم
طخِّيتـة وِالاَهُ مخـيّم   شروى شَنّ الدلو البالي



ويكفي الديك فخراً ـ يا بني ـ ما ورد عنه من حديث. قال الرسول ﷺ: «ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى: «صوت الديك، وصوت الذي يقرأ القرآن، وصوت المستغفرين بالأسحار». فإذا لم ترد أن يكون الديك خيراً منك فاقرأ القرآن، واستغفر بالأسحار[1].

والدّيك كما رأيت ـ يا بني ـ هو القيّم على الدّجاج، ولهذا ـ رغم أن المثل عن الدّجاجة إلا أننا لم نر من اللائق أن نهمله، وهو القيّم، وأعطيناه بعض الاعتبار، بذكر شيء عن «ترجمة حياته». ولعلّه من المناسب أن نعطي بعض الأمثلة المصاغة عنه، وسوف نوجز بقدر الامكان، فلا نكون أهملنا، ولا نكون صرفنا أنوار المسرح عن الهدف الأصلي، والممثل الرئيسي. يقول أحد الأمثال عن الديك:

« الدّيك الفصيح من البيضة يصيح[2] »

(١) راجع «أيها الولد» للغزالي، ص ١١٤، وتعليق الأستاذ علي محي الدين علي القره داغي، محقق الكتاب، ومخرج الحديث.

(٢) ديـاب ٣٤.



وهـو مثـل يضرب للأمـر يظهـر نفسـه، رغم احتجاجه عن الأعين.

والمثل الآخر يقول :

« قالـوا للدّيـك صيـح ، قال:
كـل شيء في وقتـه مليـح[1] »

وإليك قصة من التراث نختم بها هذا الحديث :

قال بشر بن حجر: انقطع إلى أبي علقمة غلام يخدمه، فأراد أبو علقمة البكور في حاجة، فقال: يا غلام، «أَصَقعت العتاريف ؟» ، فقال له الغلام: «زقفيلم». قال أبوعلقمـة: وما «زقفيلم ؟» قال: ومـا «العتـاريف ؟» ، قال: «الديوك». قال: وأنا قلت: «لم يصح منها شيء»[2].

---

(٣) ديـاب ٦٦ .

(٢) معجم الأدباء، ١٢/ ٢٠٧ ، أخبار الظراف، ١٤٥ .

[٥٧]

أَي بُـنَيَّ !

مثل جديد نقتطفه من محيط مكة المكرمة، يقترب من حقلِ مَثَلٍ سقناه بعد ذلك عن «أم شوشة والمنقوشة»[(١)] :

«احتـارت المقيّنـه في الوجـه الغلس[(٢)] »

والمقيّنة هي الماشطة، والوجه الغلس هو الوجه القبيـح. والمطلوب من الماشطة أن تبـذل كل جهـدهـا، وتستـدعي كل كفـايتهـا ومقـدرتهـا. وتستحضر جميع تجاربها، فلا تترك حيلة، ولا تغفل أي وسيلة، دون أن تستجمعهـا لتزين من سوف تمشطها، خاصة إذا كانت تعد العروس لزواجها ليلة «الـدخلة» والـوجه السمح الجميل، والبشرة الناعمة الصحية، تساعد الماشطة في عملها. ولكن ماذا تعمل «المقيّنة» إذا كان الله سبحانه وتعالى خلق

(١) انظر المثل رقم (٦٩).

(٢) السباعي : ١١، وديـاب : ٥٦.



العروس، ولم يهبها الجمال، ولم يمنّ عليها بالملاحة والحسن.

« وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ »

هذا المثل جاء دقيقاً فيما عبر عنه، وصادقاً فيما رسمه، ورغم أنه بتعبير مكّاوي، وملاحظة دقيقة ممن صاغه، إلا أنه عالمي يصدق على كل منطقة في المملكة، وفي كل مدينة فيها وقرية، وفي كل ركن من الجزيرة العربية، بل في كل بقعة من العالم. وكثير من معالم الماضي ماتت ودفنت، وغمرها ماجدّ في عصرنا الحديث، فغطاها أو قضى عليها، أو على الأقل حجبها، إلا أمر جمال العروس، والعناية بها، فقد زاد هذا العصر من أهمية تجميلها هي، وغيرها من النساء في مناسباتهن المختلفة، بل حتى في زينتهن اليومية. وقامت دور تجميل عالمية عاشت على المساحيق والمحاليل والزيوت والوصفات المتعددة، وأثْرَت، وامتّصت ثروات من الناس، في مواقعهم المختلفة. وهي مِصيدة ناجحة، لا يكاد يفلت منها امرأة، أو يقف أمامها جيب أو محفظة نقود.



ولكن ـ رغم الاستعدادات الحديثة والتفنن ـ يبقى المثل صادقاً، ومؤداه منطقي، فإذا لم يكن الوجه جميلاً، أو قابلاً للتجميل، فإن المساحيق تزيده قبحاً، ويذهب جهد المجمّلة هباء، وتضيع النقود دون مردود، ولا يبقى إلاّ نفاق اجتماعي يقوله رجل أو امرأة، ذوا مصلحة يرجوان تحقيقها، للقبيحة الجميلة: ما أجملك، وحسن اختيارك للماشطة!

هذا المثل يمكن استعارته لكثير مما نقابله في هذه الحياة، مما يكون ذا طبيعة لم ينفع في تغييرها جهد مبذول. فالناصح إذا لم يجد استعداداً عند من بذلت له النصيحة يمكن لثالث أن يقول هذا المثل للناصح، ليجعله ييأس، ويقلع عن النصح، لأن المنصوح ميؤوس من اصغائه. وقد يقوله مدرس لآخر أخفق في أن يجعل والدَ أحدِ التلاميذ يفهم أسباب تأخر ابنه في الدراسة، خاصة إذا كان الأب جاهلاً أو مكابراً. ولعل للمثل صلة وثيقة بالنصيحة، لأن مجيئه معها مناسب.



وفي جنوب المملكة يجري المثل هكذا:

« **ما ينفع الدعلاك في الوجه الوسخ**[1] »

والدعلاك هو التنظيف، ولعل للكلمة صلة بالدلك، وأن أحدهما تطور للآخر. وهذا المثل أعم من المثل الأول لأنه لم يقصره على أحد، وإنما أطلقه على كل وجه غير نظيف. ولكن المثل الأول أصدق صورة، فالتنظيف عادة للوسخ! ولكن نظرات الناس تختلف، فهناك ممن يصنعون الأمثال من يرى غير هذا الرأي، ويخالفه تماماً، ويعتقد أن بذل الجهد يأتي بنتيجة، وينجح في تغيير شيء من طبيعته الأصلية إلى مظهر آخر تماماً. يقول أحد الأمثال التي تسير على هذا النسق:

« **لَبّس الخشبة تسير عجبه** » أي «تصير»[2]

في الغالب أريد بالخشبة أن تحوّل إلى لعبة لطفلة تُمَثّل لها عروسة جميلة، فالخشبة التي ليس لها معالم

---

(١) الألمعي: ٢٢٢.

(٢) السباعي: ٧٥.



أصبحت شيئاً آخر له معنى بعيد في نظر هذه الطفلة ومحول الخشبة، بل إن الخشبة قد تتحول إلى دولاب عجيب، أو منضدة مفيدة، أو صندوق مدهش، أو إناء ثمين.

ويقول مثل آخر:

« لَبِّس البوصة تصبح عروسة[1] »

والغريب أن الأمثلة الثلاثة كلها حول العروس، واحدة تعني العروس من بني آدم، والثنتان الأخريتان تعني عرائس الدمى.

ومن الأمثلة التي لا تبعد في مرماها عن مثلنا الأصلي في هذا الباب، وإن كان تفرعها مختلف بعض الشيء، المثل الآتي:

« المليح مليح ولو قام من النوم،
والقبيح قبيح ولو غسل وجهو كل يوم[2] »

وهذا مثل صادق، فالصحة في الشباب،

(١) السباعي: ٧٩.
(٢) دياب: ٢٥.



والملاحة فيه، تقاوم آثار النوم التي تظهر على بعض من تقدم به السن، أو من اعترته الأمراض. فهو يحتاج إلى وقت حتى تأخذ عيونه شكلها الطبيعي، فتذهب منها دموع النوم، وانكسار الجفون، وتغضن الوجه، والعبوسة التي تصاحب المستيقظ من نومه، والحقيقة أن الشباب والصحة إحدى ركائز الجمال في الإنسان رجلاً كان أو امرأة. وإذا كان هناك في بعض سمات الوجه مالا يعتبر من موازين الجمال ومقوماته فإن الصحة تغطيه.

ويجرى على هذا النسق، وإن كان يرمي إلى مرمى آخر، ولكنه يدخل في حدود عدم تغيير الأصل، مهما بذل من مجهود قول القائل:

« دلع الكبار زي الشقدف على الحمار[1] »

الشقدف[2] للجمال، وضُع ليتناسب مع ظهرها إن كان مفرداً، أو على جنْبيها إنَ كان مجوزا، أما أن

(١) دياب : ٣٣.

(٢) الهودج أو المحفة تستعمل لحمل النساء أو المرضى في السفر أو الحج.

يوضع على الحمار، فهذا خروج عن العرف، ويوجب الضحك، بل قد يجلب الأذى، فلا الحمار يتحمل، ولا ظهره مهيأ، ولا جسمه معد للحبال التي تحتاج إلى تثبيت الشقدف، وهو مركب مغطى من خشب تركب فيه السيدات للحج، أو كبار السن والأطفال. ولو وضع منه اثنان للمس الأرض.

ويجري مِثله تماماً المَثَل الذي يقول:

« الكبير لمّا يدّلع زي الخشب لمّا يتْخَلّع »[1]

لنقترب من مثلنا الأصلي ونتصور امرأة عجوزاً تحاول أن تتدلع على زوجها وتتدلل، كما تتدلل فتاة صغيرة، مسموح لها بذلك، ومحبب منها أن تأتي بأنواع الدلال، بل هو إحدى مظاهر القبول فيها. حيئنذ تتبين لنا الصورة المقصودة.

وتحضرني - يا بني - بهذه المناسبة قصة قرأتها وأنا صغير في أحد كتب الأطفال، ولعله الكتاب المسمى

---

(١) دياب: ٣٢.



«بخرافات أيسوب» . والقصة تصف منظراً حدث في أحد البيوت . فالحمار كان يرى وهو خارج البيت القرد يقفز من رفّ إلى رفّ ، ومن مكان إلى مكان ، ومن مقعد إلى مقعد ، ومن خوان إلى خوان ، وصاحب البيت يضحك ، ويعجب بهذه الحركات ، ويشجع القرد على هذا ، والتّمادي فيه . ويثيبه عليه . والقرد في خفته ، وحذره ، لم يوقع شيئاً من الأثاث ، أو يكسر شيئاً من الأواني والأوعية ، لمقدرته الطبيعية في هذا ، وتدرّبه عليه ، وداخل البيت يمكن أن يكون أحد المحيطات التي تقبله .

رأى الحمار هذا ، وهو خارج البيت ، فانتهز أول فرصة فُتح فيها باب البيت ، فدخل راكضاً ، وقفز على أقرب مقعد فكسره ، وثان فقلبه ، وثالث ركله بقدميه فحطمه ، فأخذ صاحب البيت عصا ، ونزل عليه ضرباً فأخرجه . فاحتج على هذه المعاملة المتحيزه . هذا يضحك له ، وهذا يجلد ، ولم يدر عما بينهما من الفرق!



وهكذا يتوفر لكل متمثل المثل الذي يريده، مهيأً لكل حالة، ولكل أمر ونقيضه. ومنبع المثل من المؤكد أنه حالات خاصة بعينها أوجبت صياغته في ضوء التجربة. وهكذا جميع الأمثال تقريباً، لو استقرأتها لوجدت الشيء وخلافه، إلا بعض ما تكون الحكمة فيه مانعة.



[٥٨]

أي بُـنيَّ !

وننتقل إلى مثل آخر :

هذا المثـل ـ يا بني ـ يصـور الحـيرة، والقلق، وشدة الضيق.

يقول هذا المثل :

« بـرد وحكـة وقـل ظفـور[1] »

الـبرد يقلق ويضـايق، والحكة تقلق وتضايق، فإذا اجتمـع هذان العنصران، وفقدت الآلة التي تخفف من تأثـير أذى أحـدهما، وهي الأظافر التي ينـزلها صاحبها على الموضع المزعج، «ويجرف» بها المكان المؤلم، أصبح المرء في وضع لا يحسد عليه، وسـأعـطيـك صورة كانت مألـوفـة في المـاضي في الشتاء. كانت حال أغلب الناس ـ قبل حكم الملك عبدالعزيز، وتوفر الامكانات، ووجود الوظائف، وازدهار التجارة والزراعة ـ رقيقة. وكان كثير منهم

(١) العبودي ١/ ٢٥٦.

يحمـل هم مجيء فصل الشتاء، لأنه يحتاج فيه إلى مؤونة للأكل وللباس ولوسائل التدفئة، وبعضهم يلجأ إذا داهمه برد الشتاء إلى تجميع ما لديه من ثياب أيـاً كان نوعهـا، فيلبسهـا كلهـا، يجعـل أسـوأها أسـفلهـا، حتى لا يطّلع النّـاس على تمزقـه أو انكـماشـه، أو تساقط «أزاريره» «ازرّته»، ويجعل أقربها إلى القبول أعلاها. ومع ذلك فالأعلى سرعان ما يتسخ، لأنه الأعلى، ولأن صاحبه يجلس فيه على التراب، وعلى عتب الأبواب، وعلى الصفا، وعلى الخشب، فلا يلبث أن يتمزق أيضاً من البلى، أو من عارض يحدث له.

وقليـل من النـاس يتهيـأ له أن يلبس صوفـاً، وبعضهم يتخـذ العباءة طوال الليل والنهار مدفأة له، يتقي بها الـبرد، ينـام فيهـا، ويمشي بها بين الناس. وعباءات الناس ألوانها ونوعياتها مختلفة. وكان المسيطر بين عامة الناس العباءة البرقاء، وفيها خطان عريضان أبيض وأسود، ومن يقتنيها أو مثيلاً لها يعتبر حظيظاً، ويحافظ عليها كما يحافظ غيره على كيس دراهمه.



فتصور ـ يا بني ـ شخصاً قد راكم فوق جسده كل هذه الملابس، ووضع فوقها هذه العباءة، وله أسابيع أو أشهر لم يغتسل، وأصابت ظهره حِكّة بسبب ما تراكم عليه من الأوساخ، أو بسبب القمل الراتع المتنامي في ثيابه وجسمه، وأراد أن يطفىء صولة نار هذه الحكة بأظافر حدّتها تتساوى مع شدتها. فإنه سوف يجد الوصول إلى الظهر صعباً جداً، والبرد له بالمرصاد لو كشف جسمه، أو خفف ثيابه ليحك. وفوق هذا إذا كانت أظافره من القصر بحيث لا تساعده على بلوغ مناه. إنها حالة مزرية ينطبق عليها المثل، معبّراً خير تعبير.

وتستطيع أن تتصور الحرقة المماثلة لامرأة زوجها اسمه قبلان، وتزوج في ليلة صيف متوهّجه، جوها يسبح في سمائه أرتال من «الناموس» البعوض، والمرأة في سطح ليس فيه كلة «ناموسية». وسئلت عما ضايقها، وأقضّ مضجعها، فاختصرت الجواب بقولها:

« حرّ وبقّ وقبلان معرس »



هل هناك ـ يا بني ـ حالة من البؤس يمكن أن تمنع الغمض عن عين امرأة إلا إذا تجمعت عليها هذه الأمور: حر يلهب الجسم، وبعوض يشن حرباً شعواء لا هوادة فيها، وزوج عند زوجة عروس صغيرة. إنه مثل دقيق في وصف حالها وأمثالها.



[٥٩]

أما المثل التالي ـ يا بني ـ فهو يلمس جانباً مهمّاً، وإليك بعض ما يمكن أن يقال فيه:

المجتمعات في كل مكان ـ يا بني ـ ملأى بالذين يرون عيوب الناس، ولا يرون عيوبهم، يعميهم الهوى عن أن يروا عيوبهم مهما كبرت، ويلحظون عيوب الآخرين مهما صغرت، يرون عيوب الآخرين رغم بعدهم عنهم، وجهلهم بأسباب هذه العيوب، مما قد يكونون معذورين عليه، على حد قول الشاعر: «لعل له عذراً وأنت تلوم». ولا يرون عيوب أنفسهم رغم قربها منهم، ومعرفة أسبابها لو تدبروها، وهم الملومون في وجودها، وعدم بذلهم الجهد لتلافيها، ومحوها. وإن كانوا مرغمين عليها، فلا أقل من أن يعذروا الآخرين على ما قد يكونون مرغمين عليه.

والمجتمعات تعاني ـ يا بني ـ من هؤلاء العمي المبصرين، فجاء من طفح به الكيل، وبلغ السيل عنده الزّبى منهم، فتلّمس مثلاً ينطبق عليهم،

ويتماشى مع حالتهم، فلم يذهب بعيداً، ووجد المثل عنده حاضراً، وجده في الجمل الذي يراه في بيئته ليل نهار، ويرى أن هذا الجمل يتفق معهم في بعض صفاتهم فقال:

« **الجمل ما يشوف سنامه**[1] »

فالجمل رغم أن سنامه منه، وفوق ظهره، فهو لا يلتفت ليراه، مثله مثل هؤلاء الناس لا يرون عيوبهم، ولا يقفون ليتدبروها، قبل أن يشذِبوا الناس، ويسلقوهم بألسنة حداد.

ومن بيئة أخرى، جاءت ملاحظة نتج عنها مثل آخر يسير على الطريق نفسه، فيعظ أولئك الذين يبتلون الناس، وخير لهم أن يلتفتوا لأنفسهم ليعدلوا الميل الذي يلومون الناس عليه، ويقيموا معوّجهم قبل معوّج الآخرين، ويكملوا نقصهم قبل طلبهم من الآخرين أن يكملوا نقصهم.

ويقول المثل، ولعله جاء من بيئة صيادين:

« **الشبكة تعير (أو تعايب على) المنخل** »

(١) السباعي : ٢٦ ، دياب : ١٢ ، الألمعي : ٦١ .



أنها صورة فائقة، تصور - يا بني - شبكة خرج منها رِجْلان ويدان، ووقفت على قدميها - في صورة تحدٍّ - وقالت بلسان سليط، لمنخل يقف أمامها منخذلا: إنك لا تمسك الماء إذا وضع فيك. وتنتقصه لذلك، وتحط من قدره، وتكسر نفسه؛ ناسية أنها أسوأ منه فيما تنقّصته به، فقد يمسك المنخل بعض ما يوضع فيه مما لا تستطيع أن تمسكه هي، فإن كان عنده مسامُ فهي عندها شقوق. ولكنها الوقاحة التي تسيطر - يا بني - على بعض المتحدثين، أو المتصرفين.

ومثل آخر يتفق، مع المثلين اللذين مرّا، في الهدف:

« اللي بيته من قزاز ما يرمي النّاس بالحجر »

أجل كان على الرامي الناسَ بالحجر أن يتذكر ويتدبر أنه سوف يكون الخاسر، إذا التفت إليه الناس، وردّوا أذاه بمثله، ورموا بيته بالحجارة، وبيته من زجاج. ماذا تكون النتيجة، سوف يتكسر



البيت، وسيتعـرض هو لما التجأ للبيت عنه، وهو البعد عن التشرد، فيخسر نفسه، ويخسر بيته، ألم يكن أسلم له أن يعـرف مواقـع ضعفـه، فيراعي الناس فيما هم فيه من ضعف حتى يراعوا مواطن ضعفه.

[٦٠]

وننتقل إلى مثل آخر :

الحج - يا بني - يجمع المسلمين من كل فج، يؤدون فيه شعائرهم في هدي السنة المحمدية. والمتوقع أن ينصرف الانسان فيه إلى ربه، وينقطع إلى ذلك، خاصة إذا كانت حجته ذلك العام حجة الفرض. ولكن يبدو أن هناك من يقوم بشيء آخر من أمور الدنيا أوحى لأحد المشاهدين أن يسجله في مثل، يمكن أن يستفيد منه الناس في بعض ما يعرض لهم في هذه الحياة. يقول المثل :

« حج وبيع سبح[١] »

أو :

« حاج وبياع سبح[٢] »

وهذا في الحجاز. أما أهل نجد فيقولون :

« حج بقضيان حاجة »

---

(١) دياب : ٦٠ .

(٢) الألمعي : ٦٥ .

ولا يختلف المثل هذا عن سابقيه إلا في أنه لم يحدد العمل المشترك مع الحج، وهو بهذا أوسع، يدخل فيه لو أن أحداً من أهل نجد، ذهب وأدى فريضة الحج، وخطب لابنه زوجة في مكة، فهو بهذا قد قضى حاجتين، وأنجز غرضين، وقد يكون باع بعيره بثمن غال بعد أن وصل إلى مكة، ثم انتظر فيها إلى ما بعد الحج، ورخصت الجمال، فاشترى آخر، وصفا له حجه دون خسارة.

على أني أود منك ـ يا بني ـ أن تتأنى، فلا تستعجل فتتّهم بائع السبح أنه أفسد حجه بالتجارة، فقد لا يكون باعها أثناء أدائه حجّه في المشاعر، ولكن قبل أن يدخل في الإحرام أو بعد أن انتهى الحج كلية، لأن بيع السبح مستمر طوال الموسم، بل لعل من حج لا يسارع في شراء السبح منذ وصوله، وإذا اشترى شيئاً منها حينئذ، فإنه يشتري واحدة يسبح بها، ويشتري هدايا السبح لمن يعزّ عليه في بلاده. عندما لا يبقى على سفره إلا القليل. ولا تظن أنه سوف يخاف من نفادها، فهي لا تنفد لكثرة المخزون، وكثرة أنواعه.



وهناك مثل في هذا الجانب لا يبعد عن المثل السابق، ومؤدّاه في النهاية هو مؤدّى الأول. يقول المثل:

« على طريقك شل خشبة »

فالمطلوب ممن هو ذاهب لعمل رئيسي أوجب ذهابه، أن يقوم بعمل فرعي، لا يكلفه ولا يجهده، فمجهوده وتعبه داخل ضمن المجهود الرئيسي المبذول.

وهذا المثل ـ يا بني ـ دقيق في تصوير حياة الناس، وحرصهم على وقتهم، والانتفاع بجهدهم، وما يبذلون منه، والاستفادة من كل مجال يمكن الاستفادة منه. فإذا كان هناك شخص مسافر على جمال، وأحماله غير مكتملة، أو ليس على جماله أحمال، وإنما هو ذاهب لبلد آخر ليجلب منها جلباً، فيمكنه دون مشقة أو عناء أن يساعد، فيحمل شيئاً قليلاً مفيداً لآخر، وهو غير ضارٍّ به أو بإبله.

وهـذا مثل يردّده الناس كثيراً، لأن ما يقتضيه شائع في حياتهم، خاصة داخل البيوت، أو حولها، فهذا شخص يريد أن يذهب إلى المطبخ تقول له: على طريقك إحْمِل الصينية والفناجين المنتهىَ منها إلى المطبخ، أو ذاهب للصلاة تقول له: على طريقك اعط الجيران صحنهم الذي أطعمونا فيه أمس تمراً. أو وأنت ذاهب إلى عملك خذ هذا الخطاب إلقه على طريقك في صندوق البريد. أو أن رأيت فلانا على طريقـك (أي في طريقـك) فقـل له كذا، أو اجعله يتّصل بي، أو يمرّ بي.

أما أنت ـ يا بنيّ ـ ففي زمنك يمكنك أن تقول لزميل ذهب ليستعير له كتاباً من المكتبة استعر لي معك هذا الكتاب، أو رد هذا الكتاب إلى المكتبة. أو: وأنت ذاهب لتصوير بعض أوراق المحاضرات احسب حســابي في نسخــة مماثلة، وسـأدفـع لك حقّها. وقد تطلب منه، وهو مسافر إلى بلد آخر، أن يبحث لك عن شيء، فيــأتي لك بالمعلومـات المطلوبة، أو بالحاجة التي سبق أن طلبتها.



وهكذا ـ يا بني ـ كل أمر تُكلف به شخصاً دون أن يقتضيه الأمر الخروج عن الهدف الرئيسي الذي ذهب من أجله، فأنت تردفه بقولك: «على طريقك شل خشبة». وهذا القول فيه تلطيف للازعاج الذي قد تسببه له، وأنت تدري بأن فيه إزعاجًا وتعاميت، أو لا تدري.

وقد تجد أنت نفسك ـ يا بني ـ تستفيد من الذهاب لأمر، ثم تجد أنك يمكن أن تستفيد من ذهابك لغرض آخر، فقد تكون ذهبت إلى أحد المستشفيات لتكشف على صحتك، ولم يكن في حسابك أن تعمل شيئاً لأسنانك، ولكنّك بعد أن وصلت هناك عالجت أسنانك، فتقول لأهلك إِنك عملت هذا، وتقول: قلت لنفسي: على طريقك شل خشبة. وهكذا.

[٦١]

ومثل آخر ـ يا بني ـ :

من الأمثلة التي تدل على استحالة وقوع شيء رغم ادعاء من يدّعي أن ذلك ممكن، وهو مثل قديم، وعلى هذا فهو مأخوذ من بيئة ماضية، وإن كانت اجزاؤه لا تزال توجد في حياتنا الحاضرة يقول المثل :

« **السما صرقوها قال : فين ودوها**[1] »

هذا مثل جميل، وخفيف ظل، ويطفح بالسخرية، ويقتسر الابتسامة منك ـ يا بني ـ قسرا. وهو مثل يدحض بأدب قولاً كاذباً، لأنه يلمز إلى استحالة أن تُسرق السماء، فهي أكبر من أن يقدر أحد على سرقتها. وبدلاً من التكذيب المباشر الجارح جاء المثل مجاريا للمدّعي، ونبّهه إلى كذبته، مؤكدا أنه عجز عن الجواب على السؤال الموجه إليه، ومستفسراً عن إكمال ما حدث للسماء المسروقة.

(١) السباعي : ٤٢، دياب : ١٠٤.



وعادة الشيء المسروق يكون أصغر من المكان الذي سوف يخبأ فيه، دع عنك أن المكان يجب أن يكون خفيّاً، تتعداه الأنظار، وتتخطاه العيون، ولا تدور حوله الشكوك، أو تحدسه الظنون.

فهـذا مثل يقول إنه من المستحيل أن يقع أمر ادّعى مدع وقـوعـه. والبرهان على استحالته جاء ضمن الادعاء نفسه.

ولهـذا المثـل شقيق يسير على نمطه، ويأتي من محيطه يقول:

« شـفت االبغـل في الابـريق. قال لـه شـفت أنـا ودانـه[1] »

وهذا مثل آخر رائع وظريف، اتخذ أيضاً صيغة المتابعة للمدعى، ومسايرته في دعواه. فالسامع لم يجْبَهِ المدّعي، ولم يُبكِّته أو يؤنبه، أو يكذبه صراحة، بطريق مباشر قاس، وإنما جاراه وسايره، فإذا كان المتكلم الأول قد قال ما هو مستحيل، وهو دخول

(١) السباعي : ٤٥ .

البغـل، بحجمه الضخم الكبير، في الابريق على صغـره، وضيق فوهتـه، وضيق المـدخـل إليـه، والخروج منه، فإن السامع ماشَى القائل، وادّعى مثله أنـه رأى منـه أذنيـه المنتصبتـين خارج فتحة الابريق، وهذا يعني متابعة المدعي في أن البغل في الابريق، ولكن طي هذا استهزاء ما بعده استهزاء.

ألا يذكرك ـ يا بني ـ هذا بالرجل الذي سأل عمر ابن قيس عن الحصاة يجدها في ثوبهِ، أو في خفّه، أو في جبهته من حصى المسجد. فقال: إرم بها. قال السـائـل: زعمـوا أنها تصيـح حتى تردّ إلى المسجـد. فقـال عمـر: دعها تصيح حتى ينشقّ حلقها. فقال الرجل: سبحان الله! ولها حلق! قال عمر: فمن أين تصيح؟[1].

أرأيت ـ يا بني ـ كيف سايـر عمـر بن قيس السـائل، وجاراه حتى أوصله إلى طريق مسدود، وبصّره بقيمة سؤاله من عدمها، دون أن يجبهه من

(١) العقد الفريد: ٢/ ٢٢٥.



أول الأمــر بالحقيقـة، التي توصّـل إليهـا بطريق طويل، ولكن ليس فيه جرح، وإن كان لا يخلو من تخجيل في نهاية الأمر، وروح تهكّم.

وادعاء المستحيل - يا بني - من أناس لا يزنون الأمـر بميـزان العقل، ويستهينون بعقول الناس الذين يخاطبونهم، كثير، ويأخذ اتجاهات مختلفة، وإذا كان المثـلان السابقان قد رسما صورة في هذا الجانب، فهناك جوانب أخرى، فيها من الادعاء ما قد يثـير العجب والسخـرية، ويصلح للرواية في المجـالس على سبيل التسلية، وسوف أضرب لك مثلاً لهذا:

اتفق شخصان على أن يعضّد أحدهما الآخر في أي خبر يرويه، ويؤمن على كلامه، ويؤكد حدوث ما يقصه. وسار الأمر بينهما على هذا، حتى جاء يوم روى أحدهما رواية، لم يستطع الآخر أن يعضده فيهـا مبـاشرة، لما فيهـا من خروج عن المعقول، ودخول في حيز المستحيل، ومع هذا فقد اجتهد ألا يخذله، أو يتخلى عنه، وهو في هذا الموقف العجيب



أحوج إلى المساعدة، لأن ما قاله قمين أن يبعد عنه كل مستمع.

أتـدري ـ يا بني ـ ماذا قال هذا الصديق الأخرق. قال في مجمع من القوم: لقد سمعت كلاباً تنبح في السماء، الليلة البارحة. فدهش السامعون، وأسقط في يد زميله، لأن الشق أكبر من الرقعة، ولو صدقه من بين جميع الحاضرين لسقط من أعينهم، وأنزلوه من مجالسهم، فاحتال للخروج من المأزق، وقال: أحياناً الرياح تحمل الصوت من الأرض إلى السماء، فيكاد يحلف السامع أن الصوت آت من السماء، وغمز بعينيه لصاحبه أن أمّن على كلامي، وفاء بالعهد، فأمن المفترى للكذبة على هذا التعليل. وأسرع زميله بفض الجلسة وانهائها. وخرجا. فقال له: كان اتفاقنا على ما يجرى في الأرض، وما يقص عما يجرى فيها، ولا يصل إلى السماء، فلنبقه في حدودها، ولا نتعداه إلى أعلى.

قد يمر بذهنك ـ يا بني ـ خاطر، فتقول لماذا لم يحل الاتفاق مادام اكتشف أن زميله «فشّار» «نتّاش»



لم يحل الاتفاق لأنّه قد يكون مضطراً إلى الابقاء على هذا الاتفـاق، لأن له فيـه فائدة، فقد يكون من الـذين يدعـون لأنفسهم دعـاوى تبنيهم، لنقص فيـهـم، فلا يسـتغني عن تصـــديق هذا له أمـــام الاشهاد. وقد يكون له عليه سلطة من مال أو جاه، لا يستغني عن خطب ودّه، وإبقاء عطفه.

[٦٢]

ومثل آخـر :

ولتعرف ـ يا بني ـ مدى تأثير البيئة على صياغة المثل، أذكرك بالمثل الذي يقول:

« تبحث عن حتفها بظلفها »

هذا مثل قديم جداً، وقد يكون مأخوذاً من البادية، أو من الحاضرة من بيئة تقتني الأغنام، وتحفظها في حوش البيت المترب. ويقال إن وراءه قصة طريفة، وهي أن رجلاً أراد أن يذكّي عنزا عنده، فلم يجد مُديةً يذبحها بها، والأرض كما نعرف في الصحراء، وفي أفنية البيوت القديمة، ترابية. ومن طبيعة العنز ـ قبل أن تربض ـ أن تحرث الأرض، وتنبشها بيدها عدة مرات. ولعل هذا غريزة فيها، تواسي بها الأرض، أو تبعد عن مضجعها النواتىء أو الهوام. وقد فعلت عنز الرجل هذا الفعل، وبحثت الأرض بظلفها، فخرجت من الأرض من قوة النبش، سكين مدفونة، فَحُلّ



الاشكال الذي كان وقع فيه الرجل، وانفرجت الأزمة التي واجهته. وكان في نبش العنز الأرض حتفها، ودنوّ أجلها. فقد ذكاها بالسكين.

ولاحظ - يا بني - أن المثل - في الغالب - يأتي مسجوعاً، أو به حلية لفظية من نوع أو آخر، كأن يكون في الجملة اختصار بطريقة معينة، أو تقديم أو تأخير، أو لعب على بعض الألفاظ وهكذا جاء هذا المثل مسجوعاً.

وهذا المثل - يا بني - يضرب أيضاً للانسان يكون في منجى، فيقول قولاً يسيء إليه، أو يفعل فعلاً يضرُّ بهِ، فيضيع عليه كسب كان سيأتيه، أو يبقي ضرراً كان سوف يتعداه، فلا يفلت من هذا أو ذاك بسبب من الأسباب التي هيأها بقوله أو فعله. أرأيت لو أن طالباً أجاب سؤالاً في الامتحان فأجاد الاجابه، وأعجبته نفسه فزاد شيئاً ظناً أن إجابته الأولى لم تكن هي المطلوبة، فأفسدت عليه الزيادة ما كان صالحاً في الاجابة الأولى.



وهب أن بائعــاً أراد أن يروج لبضاعته، وكان المشتري على وشك أن ينهي الصفقة ويشتريها، فقال التاجر، قاصداً مدح بضاعته، كلمة أنذرت المشتري، فعدل عن الشراء. وهب أن شخصاً أراد أن يشتري بيتاً، فسمع من البائع ما رغّبه فيه، وسرّه عنه، ثم زاد البائع قولاً كان سبباً في نفور المشتري بدلاً من ترغيبه وجذبه. ولن تعدم حوادث تمر بك - يا بني - يمكن أن تطبق عليها المثل. ما عليك إلا أن تراقب الناس حولك، وسوف تجد هذا كثيراً.

قلنــا إن هذا المثــل مثــل صحــراوي، أو من المدينة، يعني أن هناك احتمالا؛ ولكن دعنا ندخل مدينــة حقــا، لنرى ماذا يقول أهلها في مثل هذا الموقف. لندخل مكة المكرمة - شرّفها الله - فهي أعز مدينة علينا، وأقربها لنا، ونحن أقرب إلى معرفة ما بها، وما يأتي منها. ونستمع إلى مثل منها - شرّفها الله - أو من مدينة مثلها، عندما كان البعوض فيها في الماضي جوقات موسيقية في الصباح وفي المساء. ينقضضن فرادى أو جماعــات على ضحــايــاهن،



انقضـــاض السهم من الــرميـة، أو الصقـر على الضحيـة، يمتصصن الـدمـاء طربـات، ويغنـين بهجـات. هذا الطرب، وهذا التغريد هو موحي المثل الذي يقول:

« **زي الناموس يـزنّ عـلى قتلـه**[1] »

ولك أن تتصور - يا بني - ما كان يحدث، يأتي الانســان من عمله متعبـا، يتطلع إلى نوم هادىء مريح، وأحلام مبهجة، تبني له قصوراً في الأحلام يعوض بها عن فقد بيوت اليقظة. فيطفىء السراج، وقـد رأى البعـوضـة متحفـزة عن بعـد، حائمـة متـطلعة، فلا يلبث إلا دقائق، فتبدأ الغارة منها، ويسمـع صوتهـا؛ فتأتي البعوضة، ولها طنين مثل طنـين صاروخ «سكود»، ويستمع المضطجع إلى صوتهـا مقبلة أو حائمة أو منقضة، وأذنه راداره، فيهيء يده، وكـأنها صاروخ «باتريوت»، لتكون مضربا لا يخطىء. وهو في الظلام لا يراها، وهي في

---

(١) السباعي: ٣٩.



الظلام تعرف مكانه، وتعرف العضو الذي سوف تختاره منه، والعرق الذي سوف تمص الدم منه، وتسحب خيره من مجراه. فتقع على هذا العضو المسكين، وتثبت أقدامها، لتساعدها على غرس زلومتها، ووضع الشحم اللازم لتسهيل دخولها في الجلد «المُتَمَسِّس» المتصلب من توقع الألم. وقد تكون رفيقة فلا يحس بها إلا بعد أن تبدأ المَصَّ، فيبدأ الألم ثم يزيد ويزيد، وهي راتعة غارقة في بحر من اللذة، حتى إذا اطمأن أن النشوة قد خدرتها، وأنها ذهلت عن موقع الخطر حولها، والموت المحدق بها، أرسل عليها يده، وكأنها مرزبة، فتلصقها بالجلد، وتساويها به، ولا تحتاج إلى ضربة غيرها، ويتنفس المسكين الصعداء، ولكنّه إذا لم يدخل في الناموسية «الكِلّة» فستبقى الحرب بينه وبين البعوض طوال الليل، فلا «الناموس» ينتهي، ولا النوم يقترب، ولا السلام يخيم، ويستمر الانقضاض، والتحري والتوقي، والمصّ والضرب والموت. تربّصٌ وختلٌ، ودماء تسيل، وفرقعات



متتالية. إذاً كما رأيت - يا بني - فصوتها، وزنينها، هما سبب قتلها، لأنهما دلا عليها. وعلى مكانها قُربا وبُعدا، وانعدام صوتها دليل على أنها وقعت واستقرت، يبدأ الألم ليتحدد مكانها، فتنقض الجيوش: اليد والأصابع، للاحاطة بها، ثم الاطاحة بها. فهي بصوتها تدق مسماراً في نعشها، كما يقولون.

والمثل صورة صادقة لمن يدني حتفه بظلفه، أو موته بزلومته وصوته.

وهناك مثل آخر يكاد يكون مرادفاً في المعنى لمثلنا هذا، يقول هذا المثل:

« **دبّور زنّ على خرابه**[1] »

والدبور، وهو شبيه بذكر النحل، ولعله أكبر قليلاً، وسبق أن تحدثنا عن الذبّه، وهو ذكرها. والانسان إذا دخل الدبور منزله، أو جاء قريباً من منزله، قتله، لأنّ لسعته مؤلمة، ومؤذية. وصوته هو الذي دلّ عليه.

(١) دياب: ٣٣. وقد يكون القصد خراب بيته أو عشه.

[٦٣]

ومثل آخـر :

ألم تسمع ـ يا بني ـ بالمثل الذي يقول :

« **خيّال الخيل قال حاضر بحاضر** »

يريدون بذلك أن يُتبع المدّعي القول بالعمل، ففيه اختبار لمن يفاخر بشجاعته ومقدرته إذا كان هناك شك في هذه الشجاعة والمقدرة. فإذا ادّعى شخص بأنه خيّال ماهر. وراكب خيل جيّد، فهذه الخيل حاضرة، فليركبها، وليثبت قوله إنه فارس! وبذلك يُقطع الشّكّ باليقين، وتظهر الحقيقة، فإما أن تكون له، أو تكون عليه.

فهذا مثل يضرب للمدّعي أمراً يحتاج لتصديقه إلى إثبات، وله أمثلة مرادفة، تؤدي المعنى نفسه، وتنادي بمثل هذا الاختبار، فهناك مثل يقول:

« **الماء يكذب الغطاس** »

والماء قد يصدّقه إذا كان فعلاً يجيد السباحة



والغطس، إجادة تامة، تبرهن على ما ادّعاه، وقد يُغرقه إذا لم يكن كذلك.

وإذا كان المثل الأول مأخوذاً من بيئة حرب وقتال، فإن بيئة هذا المثل قد تكون منطقة ساحلية، أو فيها من المياه ما يجعل أخذ المثل من الماء، وما يجري فيه سهلاً.

وهناك مثل آخر يجري على مثل مجرى المثل الأول، وبيئته بيئة حرب وقتال أيضاً، وهو واضح في هذا ـ يقول المثل:

« الجبان في الحرب يبان[1] »

وهذا اختبار متقن، سوف يجلو الحقيقة ويظهرها، ويقضي على ادعاء مدعي الشجاعة وهو جبان. وقد حدث ـ يا بني ـ موقف اختبار مثل هذا لأبي دلامة عندما ادّعى الشجاعة طمعاً، وهو جبان، وجاءه الاختبار، وهو لم يتهيأ له، أو يدرس أو يذاكر.

---

(١) الألمعي: ٦٢.



وإليـك قصتـه :

غضب المنصور أو المهدي على أبي دلامة لذنب ارتكبـه، فحلف ليخـرجنّـه إلى الحـرب، فاسمع روايته لما حدث:

حلف الخـليـفـة ليخــرجنّي في بعث حرب، فأخــرجـني مع روح ابن حاتـم المهلبي، لقتــال الشراة، فلما التقى الجمعان، قلت لروح: «أما والله لو أن تحتي فرسـك، ومعي سلاحـك، لأثّرت في عدوّك اليوم أثراً ترتضيه». فضحك، وقال: «والله العـظيم لأدفعن ذلـك إليـك، ولآخـذنك بالوفاء بشرطـك». ونـزل عن فرسـه، ونزع سلاحـه، ودفعهما إليّ. ودعا بغيرهما، فاستبدل بهما.

فلما حصـل ذلك في يدي، وزالت عني حلاوة الـطمـع، قلت له: «أيها الأمير، هذا مقام العائذ بك، وقد قلت بيتين، فاسمعهما». قال: هات. فأنشدته:

إني استجـرتك أن أُقدّم في الوغى
لتــطاعـن وتـنـازل وضــراب



فهب السيوف رأيتها مشهورة
فتركتها ومضيت في الهرّاب
ماذا تقول لما يجيء وما يرى
من ورادات الموت في النّشاب

فقال: «دع عنك هذا، وستعلم».

وبرز رجل من الخوارج، يدعو للمبارزة، فقال: «أخرج إليه ياأبا دلامة!» «فقلت: «أنشدك الله أيها الأمير في دمي». قال: «والله لتخرجنّ». فقلت: «أيها الأمير، فإنه أول يوم من الآخرة، وآخر يوم من الدنيا، وأنا والله جائع، ما شبعَتْ مني جارحة من الجوع، فمر لي بشيء آكله، ثم أخرج». فأمر لي برغيفين ودجاجة. فأخذت ذلك، وبرزت عن الصف.

فلما رآني الشاري أقبل نحوي، عليه فرو، وقد أصابه المطر فابتلّ. وأصابته الشمس فاقفعلّ (تقبّص)، وعيناه تَقِدان. فأسرع إليّ. فقلت له: «على رسلك يا هذا، كما أنت». فوقف. فقلت: «أتقتل من لا يقاتلك؟ قال: «لا». قلت: «أتقتل

رجلاً على دينك؟» قال: «لا». قلت: «أفتستحل ذلـك قبـل أن تدعو من تقاتله إلى دينك؟» قال: «لا . فاذهب عني إلى لعنة الله». قلت: «لا أفعل، أو تسمـع مني». قال: «قل»: قلت: «هل كانت بيننا قط عداوة أو تِرَة، وتعرفني بحال تُحفِظُك عليّ، أو تعلم بين أهلي وأهلك وترا؟ «قال: «لا والله». قلت: «ولا أنـا والله لك إلا جميـل الـرأى. وإني لأهـواك، وأنتحل مذهبك، وأدين دينك، وأريد السـوء لمن أراد لك». قال: «يـا هذا، جزاك الله خيراً، فانصرف». قلت: «إن معي زاداً أحبّ أن آكله معك، وأحب مواكلتك؛ لتتوكد المودة بيننا، ويرى أهل العسكر هوانهم علينا». قال: «فأفعل».

فتقدمتُ إليه حتى اختلفت أعناق دوابنا، وجمعنا أرجلنا على معارفها، والناس قد غلبوا ضحكاً، فلما استوفينا ودّعني. ثم قلت له: «إن هذا الجاهل إن أقمتَ على طلب المبـارزة ندبني إليـك، فتتعبني وتتعب، فإن رأيت ألا تبرز اليوم، فافعل». قال: «قـد فعـلت». ثم انصرف وانصرفت. فقـلت



لروح: «أما أنا فقد كفيتك قرني، فقل لغيري أن يكفيك قرنه كما كفيتك». فأمسك.

وخرج آخر يدعو إلى البراز. فقال لي: «أخرج إليه». فقلت:

إني أعـوذ بروح أن يقـدّمـني
إلى الـبراز فتخـزى بي بنو أسد
إن الـبراز إلى الاقـران أعلمـه
مما يفـرق بين الـروح والجسـد
قد حالفتك المنايا إذ صمدت لها
وأصبحت لجميع الخلق بالرصد
إن المهلب حب الموت أورثكم
ومـا ورثت اختيار الموت من أحد
لو أن لي مهجـة أخرى لجدت بها
لكـنهـا خلقت فرداً فلم أجـد

وقـد صدق المثل - يا بني - كما رأيت - مع أبي دلامة، فأظهر الاختبار أنه جبان. وأقر هو أنّ ما

(١) الأغاني: ١٠/ ٢٥٥.



أظهـره من شجـاعـة كان بسبب الـطمـع، الذي سرعـان ما أدخله في مشكلة كبرى، كادت تقضي على حياته.

هذا ولا تنسى ـ يا بني ـ ما سبق أن تحدثنا عنه[1] عن مظهـر شجـاعة غير سليم، رواه ابن قتيبه[2] يدور حول أبي حيّـة النميري، وسيفه الذي ليس بينه وبين الخشب فرق. ومحاصرته لعدو وهمي تبين فيما بعد أنه كلب، فقال دون أن يقرّ بأنه كان واهما: «الحمد لله الذي مسخك كلباً، وكفاني حرباً».

---

(١) «أي بني» ٢/ ٣٠٢، ط ١.

(٢) الحمقى والمغفلين: ١٨٩.



[٦٤]

وإلى مثل آخـر :

دعنا ـ يا بني ـ ندخل من ميدان الحروب، وأمور الشجاعة والجبن، إلى داخل البيوت والقصور والقلاع، فهي أكثر حصانة، وأدفأ حضناً. ولكن قبل أن ندخلها يجب أن نوجدها، وقبل أن نوجدها يجب أن نوجد وسائل بنائها، وقبل أن نوجد الوسائل علينا أن نعرف كيف تصنع. وإحدى هذه الوسائل في نجد في زمن أجدادك لصنع «اللّبن» من الطين، أنهم يخلطونه بقليل من التبن؛ ليزيد في قوته، ويسهل تماسكه، ثم يلبنونه في قوالب، ذات حجم معين قد حدّدوه، ثم يضعون ما لبنوه في الشمس، مدة معينة، حسب فصول السنة، حتى يجف. ثم يبدؤون البناء به.

وتراهم ـ يا بني ـ وقد تهيؤا للبناء، يقف أحدهم يبني، والثاني يناوله اللبن، و «الشباعة»: «اللياصة»، يقول الباني للمناول «لِبنة» فيناوله الآخر، الذي في مكان أدنى «اللَّبنة، فيضعها طالبها

في مكانها من الجدار، ثم يقولَ مرة أخرى «طِيْنَة» فيناوله طينة رطبة نيّئة، يلحم بها اللَّبنة مع أخرى سابقة، إما بجانبها أو فوقها. ويستمر البناء هكذا: «لبنة» «طينة» حتى يكمل الجدار.

وعندما يرتفع البناء عن الأرض، يربطون أخشاباً تساعدهم على البناء الأعلى، يشبه ما يسمى اليوم «بالسقالة». يأخذ البانون مكانهم منها، حسب ارتفاع البناء. وحسب ارتفاعه يتعدد المناولون من الأرض إلى السطح مثلاً. والسقالة هذه وسيلة لنقل اللبن من مشمسه في الأرض إلى أعلا. ولابد - يا بني - أن نقل اللبن والطين من أسفل البناء إلى أعلاه يكوّن لهم مشكلة، ويمثّل معضلة، من جراء المشقّة التي يتعرض لها الناقل. هذه المعضلة أوحت لهم بمثل أخذوه من البيئة التي عاشوا فيها، وعملوا فيها. يقول المثل:

« **ما لبنت فارقه**[1] (أي فاصعد به)

(١) الجهيمان: ٧/ ١٣٩.



أي تحمل ما كنت سبباً في وجوده وتشكيله وتكوينه، فما دمت قد قمت بالتلبين، فقم بنقله إلى أعلى، حيث هو مطلوب. وهو مثل يقال ليعبرّ عن كثير مما يتعرض له الانسان في الحياة، مما يوجب تحمل المسؤولية بجميع مراحلها. فأنت إذا تسبّبت في إحراج شخص فعليك أن تخرجه من المأزق. وأنت إذا بدأت أمراً لا يستطيعه قبيلك طلب منك اتمامه. وأنت إذا أعملت آلة فيها عطب، ونهاك صاحبها من العبث بها، حتى لا يزيد الخلل فيها، فلم تصغ لقوله، ونصحك بتركها فلم تستمع لنصحه، ووقع المحذور من جراء فعلك، قال لك: «ما لبنت فارقة». وهو قول في هذه الحالة لا يخلو من تأنيب، في حين أن ما سبق هو عبارة عن استعانة، وما سبقه هو تعديل ميل[1].

وهناك مثل يسير على نمط هذا، ويرمي إلى ما رمى إليه، وقد يوضح ما قد لا يكون سابقه قد وضحه. وعلى كلّ فهو ينزح من بئر أخرى،

(١) راجع «أي بني»، ١/ ٢٩٦.



ويغرف من معين مغاير، ويأتي من مكان مختلف عن المكان الأول. وإذا كان الأول عناصره كلهم رجال، فالثاني فيه عنصر نسائي يقوم عليه المثل أصلاً.

يقول المثل:

« خبزك يا الرفلا كوليه »

أي أنت يا هذه المرأة غير المتقنة لعملها، كلي هذا الخبز الذي لم تحسني خبزه. وهذا فيه عقاب، وقد يكون هذا العقاب شديداً، فقد يكون الخبز لم يندح اندياحاً كافياً، مما جعل النار لا تمضي فيه، فبقي عجيناً نيئاً يؤلم البطن، مع طعم غير مساغ.

وهذا مثل وراءه صور من الماضي. منها أن المرأة يفاخر أهلها قبل زواجها بأنها تجيد الطبخ، وتتقن خبز التنور، والاتقان درجات - يا بني - فبعضهن سُمعتهن تطبّق الآفاق، ويشتهرن بهذه القدرة. ففي هذا العمل مجال لإظهار الاستعداد الفطري، والعمل المكتسب بحسن التوجيه من الوالدة أو



المـربيـة، وبـالتمـرين الجاد. ففي عجن العجينة كفاءة، وفي فترة التخمر حدّ معين ودقيق، وفي فرد العجينة وانديـاحها تميّز، وهذا من أصعب الخطوات في مجمل هذا العمل. ثم يأتي لصقها في التنور الذي يتلظى، تكفي رؤيته ليذكر بجهنم، ولا تصبر على القرب منه، والبقاء حوله إلا من عندها عزم متميز. ثم تأتي المدّة اللازمة لبقائه في التنور (الفرن) وهذه أيضاً خطوة تحتاج إلى خبرة ومران.

وقـد اشتهـرت نساء معينات، في كل بلد من بلدان نجد، وكان اتقانهن للخبز سبباً في الاقبال على الزواج منهن. ولا غرو - يا بني - فالخبز كان من الأمور المتميزة في طعام الأغنياء. وفي نجد لم يكن الخبـز يبـاع في الأسـواق، لأن هذا عمل معيب. وخَبْزُ الخبز في البيت دليل الغنى، لأن الخبز تتبعه الزبدة، والزبدة تعني وجود بقرة في البيت، ووجود بقـرة بالبيت يعني وجـود مكـان لها: فناءً وصفّةً، ويعني هذا أن البيت كبـير، ويعني أيضـاً مقـدرة مقتنيهـا على إطعـامهـا، وهي غير مقتصـدة في



طعامها، ولا قنوع بالشيء اليسير، وهذا كلّه يعني أنّ البيت بيت غني. ولعلك تذكـــر - يا بني - ما ذكرناه سابقاً في هذا المجال وهو مكمّل لما في هذا[1].

لهذا كله تجد أن «الرّفالة» أو النقص في الكفاءة، أمر منتقد أشد الانتقاد في هذا المجال، واستحق أن يؤخذ من طينته مثل صادق، وصورة معبرة مثل هذا المثل. وهو معزز للمثل الذي سبقه.

---

(١) «أي بني»، ١/ ١٦٧.



[٦٥]

وإليك مثل آخر :

« ما عقب العود قعود[1] »

في هذا المثل صورة من صور البيئة، تبلور عن عادة معروفة في بعض المجتمعات السعودية. وعود البخور من الأمور التي تكّمل الضيافة، فبها يستقبل الضيوف، وبها يودعون، وبين الاستقبال والتوديع تسبح في جو المكان سحب الدّخان، العابق برائحة زكيّة تملأ المكان. فتزيل ما قد يكون في المكان من أثر رائحة رطوبة، أو هواء راكد، بسبب طول قفل المكان، أو خلوّه من المستعملين له.

والعود، لأهميته، تختار له وسائل الحرق التي تتناسب مع قيمته المادية المرتفعة، والمعنوية المعتبرة. فالمباخر أنواع مختلفة، وألوان متعددة. تختار لها مواد المعادن اللامعة، أو المزخرفة، فتساهم بمنظرها في

---

(١) انظر الجهيمان: ٧/ ٨٨ حيث ورد «ما بعد العود قعود»، وانظر المثل السابق رقم (٣٦).



رفع مستوى الضيافة، وتتناسب مع مقام الضيوف، أو المناسبة التي استعمل البخور لها.

ولأن البخـور يأتي في آخر وقت الضيافة اعتبر كأنه إيذان للضيوف بالانصراف، فبعد أن يدار على الجالسين قد يقول أحدهم بصفة مداعبة: «ما بعد العود قعود»، أو ينهضون دون أن يقولوا ذلك.

وسبق لك ـ يا بني ـ أن قرأت كيف اتخـذ كل حاكم من الحكام المعتبرين شيئاً يدل به على أنه آن الأوان للزائرين أن ينصرفوا، وعرفت ما تهدي إليه السنة في هذا[1].

أمـا في حفلات الزواج، ومآدب العرس، فلا تعدم من ينادي في آخر الوقت قائلاً:

« **بارك الله بمن زار وخفـف** »

وفي الغالب لا يكون القائل صاحب الدعوة، وإنما أحد الذين على الأطراف في الدعوة.

(١) راجع: «محاضرات الإدباء»: ٨٣.



والعود ـ يا بني ـ واحراقه، لإضفاء البهجة على الجالسين، لا يزال عادة متّبعة، وهو في بعض المجتمعات يأتي على نطاق أضيق، ويقتصر على أعواد النّدّ الرفيعة، تغرز في مكان عال في الغرفة. وتأخذ وقتاً طويلاً وهي تحترق ببطء، وبدخان قليل، وبرائحة زكية.

وعود البخور أنواع: بعضه يباع بثمن عال فلا يقدر على شرائه إلا الموسرون. وبعضه يباع بثمن متوسط، ومنه ما يباع بثمن بخس. ولا يخلو العود من وجود من يدخل عليه الغش بطرق ذكية، ولكنها لا تخفى على العارفين. فبعض الذين يغشونه يسقّونه ببعض المواد التي تجعله لامعاً، دليل صلابته، وبعضهم يدهنه بأصباغ تقرّبه من الأنواع المطلوبة، وبعضهم يدهنه ببعض العطور.

ولعله من المناسب هنا ـ يا بني ـ أن تذكر أن البخور يكثر احراقه في رمضان، خاصة وقت التراويح والقيام أو التهجد. يتقرب الناس به إلى الله في جعل رائحة المسجد جميلة. وهو عمل مقدر

لأنّ المصلين في رمضان يكثرون، ويطول بقاؤهم في المساجد، مما يجعل الأنفاس تكثر، فهذا يساعد على إزالة أي روائح قد تؤثر على راحة المصلين. ويغالي بعض الناس في كثرة ما يحرق، حتى أنه أحياناً يخشى الضرر على رئات الناس. ولا تستغرب من هذا - يا بني - فهناك قصة تروى تؤكد هذا. يقال أن أحد الملازمين للمسجد، تأثر صدره بما أوجب عرضه على أحد الأطباء في أحد المستشفيات، وكان هذا الطبيب غير سعودي، ولا يعرف هذا المريض، ولا مقامه الديني، فلما كشف عما بصدره، التفت إليه، وقال له: «بعد اليوم عليك أن توقف التدخين»، فضحك المريض ومن حوله، لأنه أبعد الناس عن التدخين، أو إقراره. وتبيّن بعد المفاهمة أن الصدر تأثر من دخان عود البخور. ويبدو أن الصدر لا يفرق بين نوعين من الدخان إذا زادا عن الحد.

وطبعاً - يا بني - البخور هو من بقايا عادات الماضي الجميلة، والمجتمع لا يزال محتفظاً بها،



ولكنهـا أحيـانـاً تنبّـه النـاس إلى اعتراض العصر الحـديث عليها، والاعـتراض أحيـانـاً يأتي بطريقة صارخـة مزعجـة: في أحـد الاحتفـالات الكبرى - يا بني - بافتتـاح إحدى المؤسسات المهمّة، والتي تعتبر مفخرة من مفاخر انجازات الدّولة في بلادنا، تقـدم ضيف الشرف عنـد المـدخـل مجمـوعـة من المـوكلين بالمبـاخـر، فلما دخلوا، وتوغلوا قليلاً في ردهة المبنى، لجت أجراس الانذارات معلنة وجود حريق وكان صوتها مفزعاً[1].

(١) راجع المثل السابق: (٣٦) «ما يعاف العود إلا المقرود».

[٦٦]

ومثـل آخـر :

مادمنـا قد لمسنـا أمر الزواج في المثل السابق، فهناك مثل يتصل أيضاً بالزواج، ويعطي - يا بني - صورة مما كان يتم فيه من بعض المظاهر التي لم تعد عامة، وقد توجد في بعض المجتمعات، التي لم تتأثر بما تأثّرت به المدن الآن.

يقـول المثـل :

« تلهْ بأم شوشة إلى أن تجيـك المنقوشـة[1] »

هناك امرأة اسمها البيّاعة أو الربعية، وهي هنا «أم شوشة» وهي التي تهيء العروس لزوجها، وهي الصلة بين الـزوج والـزوجـة ليلة العرس، وبين الـزّوج والأهـل في أول الأمر. وكلمة «بيّاعة» في بعض المناطق تعطي صورة عن العمل الذي تقوم به، فكأنها، وهي تزف العروس إلى عريسها، تبيعها عليه. فهي تمشي معه حتى تدخله الغرفة التي فيها

(١) الجهيمان : ٨/ ٢٨١ .



العـروس. والأحـرى أن تعتـبر زافة العريس إلى عروسـهِ، وتبقى غير بعيـد طوال الليـل، «تحت الطلب»، وعندما تذهب العروس مؤقتاً في الصباح المبكـر، وتجلس مع أهلهـا بعض الـوقت، تجلس البيـاعـة (الربعيّة) هذه تسلي العريس، وتؤنسه، وتسقيـه القهوة، وقد تقدِّم له الفطور إلى أن تعود العـــروس. ودورهـا تفصيله يختلف من منـطقـة لأخرى، إلا أنه في العموم لا يخرج عما ذكرنا.

أما «أم شوشة» وهي الربعية (البياعة)، فغالباً هي امرأة كبيرة السن، ومن غير المتوقع أن يكون شعرها مهندماً، وإن كان لا يرى، ولهذا سميت: «أم شوشة»، ولعل للسجع - يا بني - دخل في تحميل المعنى مالا يطيق. أمـا «المنقوشة» فهي العروس، والنّقش حقيقي، لأن العروس تحلّي يديها ورجليها بأنـواع النقوش، بوسيلة الحنا، وتتفنن المحنّية في الأشكـال والتعـرجـات والتـزويقات. فهي بحق تصبح بعد هذا منقوشة. أما أن الزوج يتلهى بأم شوشة فصحيح، لأنها تسليه بأحاديثها، وبعضهن وهبن المقدرة على تسلية الجليس.

والمثل مفيد فهو يقال عند طلب الاكتفاء مؤقتاً بأمـر حتى ينجز أو يحضر الشيء الرئيسي المنتظر. فأنت إذا دعـوت ضيفـاً، وقـدمت له شيئاً بسيطاً خفيفـاً حتى يتهيـأ الأكل ويعد ويمد، تقول له: لنتلهى بأم شوشة إلى أن تجي المنقوشة، وكل أمر على هذا المقياس يصلح له هذا المثل.

والمثـل مقبول عند الناس، لأنه يذكر بليلة لا تنسى عند الرجال وعند النساء، فهي ليلة العمر كما يقول بعض الناس، وهي ليلة بهجة وسرور لكل المشـاركين، ولهذا فالمثل قد يعيد ذكريات بعيدة، ويقرب حوادث طال عليها النسيان من الكبار، إلا ما قرب من زواج أبنائهم وأحفادهم.

على كل المثل قصير وصغير، ولكنه يكشف عن صورة كبـيرة، ورسم واسع، ويكشف عن خفايا إحدى العادات القديمة في مجتمعنا وما كانت تسير عليـه. ويمكن مقـارنة زواج اليوم بالأمس عندما ترى كثيراً ممن يتزوجون يذهبون من صالة الحفل إلى الطائرة، ليتمتعوا بما أصبح معروفاً بأنه شهر العسل.



[٦٧]

وإلى مثل آخر :

ودعنا الآن - يا بني - نأتي لمرحلة تعتبر في أول وقتنا الحاضر - بعد أن بدأت الوسائل الحديثة تدخل مجتمعنا، ولم يكن هناك بد من أن يكون للأمثال نصيب منها - صورة اجتماعية تؤثر على حياة الناس. وسنضرب مثلاً واحداً على الأقل أو اثنين نبين كيف استفاد قائل المثل من الداخل الجديد إلى مجتمعه، وهو الموتر أو السيارة.

« الموتر قرنبع والسواق عليمي[1] »

مثل يضرب لتردي الأمر من جميع جوانبه، فالموتر هو السيارة في تعبير بعض الناس في بلادنا، وقرنبع يعني قديماً وبالياً ومتدهوراً، والسوّاق لا يزال في أول عهده بتعلم القيادة، فاجتمع النقص في الوسيلة، وفي العامل الفعال لها. وقد لبس المثل روح قائلي الأمثال، فأحسن قائله الصياغة، وجاء

(١) الجهيمان : ٨/ ٢٦٣ .

بما سيجد فيه المجتمع تعبيراً يمثل مظهراً من مظاهر حياتهم اليومية. وهذا سوف يحل محل الجمل، وراكب الجمل في المستقبل.

فهو يعبّر عن عدم الثقة في الأمر، ويشير إلى عدم كفاءته، وما يحسن من اتخاذ الحذر في الاعتماد عليه. فجانب من المثل جاء نقصه في أن السيارة مستهلكة، ومعروف سرعة خذلان المستهلك، وجاء أيضاً من أن السائق ليس في المستوى الذي يطمأن إلى مهارته. تُرى - والناس حديثوا عهد بالجمال في تلك الأيام - هل يأتي في ذهن السامع الحنين إلى الجمل ومدى الاعتماد عليه؟

وسنورد هنا مثلاً آخر حديثاً، يمكنك معه معرفة مجرى المثل، وأنه مستقى من مواد البيئة الحديثة، وهو أيضاً عن السائق، يقول المثل:

« **السّوّاق رجل في القبر، ورجل في الحبس**[1] »

وهو مثل يرُي خطورة هذه المهنة، فالسائق مع

(١) دياب : ٥٤ .



السرعـــة معـرّض للمـوت صدمـاً، أو انقـلابـاً. ومعرّض للسجن والدية إذا دهس شخصاً. ولعل هذا المثـل قيـل قبـل أربعـين عاماً، عندما كانت الشوارع ضيقة، والناس كثيرين، وهي بهم مزدحمة.



[٦٨]

أي بُـنَيّ !

قد توضع الجملة، لسبب من الأسباب، بين قوسين حاصرين، فتفرد بذلك عما قبلها وما بعدها، أو تبرز، وإذا كان هذا متبعاً - يا بني - في الجمل، فنحن سوف نستعيره لحديثنا، وما قد دوّناه منه، فنجعله بين قوسين لإنه إذا صح استعارة الكلمات للمعنى في المجاز، فالقياس عليه مقبول. والقوسان هذان واردان في كثير من الأمور، تجدهما في الحقول الزراعية، ليبيّنا الفاصل بين ملكين، وتراهما في الجسور، ليريا البدء والانتهاء، وربما ليضيفا قوّة للتّحمل. وتراهما في المباني لهذا السبب نفسه، وفي واجهاتها أحياناً لمتطلبات الجمال والحسن، وأحياناً لأن العرف يقتضيها، والذوق السائد في المجتمع يتطلبها.

وعلى هذا - يا بني - فهذا منهج مرتضى، وعمل مقبول، كما رأيت من بعض أمور الحياة. ولن نشذّ نحن، بل سوف نقتدي، فنضع حديثنا عن



الأمثال، وما جاء في ثناياه، بين قوسين حاصرين. وأرجـو أنك لا تزال تذكر أن أول مَثَل وضعناه، وتحدثنا عنه، وجرّنا إلى ما جرّنا إليه، من انتقال من مَثَل إلى مَثَل هو المَثَل القائل:

« مِحَشِّ مجـردة »

وهـذا جرنـا إلى مثـل آخـر، يرمي إلى الهدف نفسه، وتذكر أن بعض ما جذبنا إلى هذا المثل هو حب الناس استيفاء وظيفة كلّ مادة، وحرصهم على استنفاد كل ما يمكن أن تأتي به، أو تجود به. ولم يكن هذا في الأدوات الخـاصـة بالجماد، بل كانوا يطبقـون المبدأ على أنفسهم، فيستعيرون من هذه المـواد ما يشرحون به حرصهم على الوقت والجهد والطاقة في أنفسهم. وجئنا على أثر ذلك بالمثل القائل:

« ما حَـشّ المَحَـشّ وجـابَـت المِجْـردة »

ثم أتبعناهما بثالث لنكمّل قواعد التعادل:

« حِـقِّ قِـرقـوشٍ مِنظـِره »



وفيه من تأكيد عدم إضاعة الاستفادة من أي جانب يمكن الاستفادة منه. وفي أداة واحدة جمع القائل ثلاث وظائف، كل منها لها من الأهمية ما يعطيها حق أداة واحدة تستقل بها.

والآن نأتي بمثل يغلق قوس الحاصرة الذي فتحناه، وأرجو أن يكون ما بين الحاصرتين أو القوسين صيداً ثميناً لك، تستفيد مما جاء به علماً وعظة، ويعطيك صورة مما كان عليه مجتمع آبائك، فتقتدي بما يستحق أن يُقتدى به، وتبتعد عما لم يكن فيه قدوة حسنة، وتحمد الله على أن أعطاك وسيلة الابتعاد عن القبيح، والارادة القوية لذلك. وتحمد الله على ما وجدته مهيأ في زمنك من وسائل حديثة، أغنتك وأغنت أبناء جيلك عن الركض لاهثين خلف الرزق، مع قلة المردود، ومواجهة الصعوبات والعراقيل.

والمثل القافل للقوس هو:

« يدٍ تسفّ ويدٍ تلفّ ويدٍ تعلّف الرحُول »



وهــذا المثـل يعـطي صورة بديعـة إذا عرفت مراميه، وما يؤدي الناس فيه من غرض. وهو أمر استوجبته حياتهم، ووسيلة معيشتهم. فالرحول، وهي الناقة، هي وسيلة النقل المعتادة، وهي مبجّلة ومقدّرة، من اقتناها فخر على من لم يكن له حظ في اقتنـائهـا، أو كان أقصى قدرته حمار يكدّ ظهره. وصـاحب البعير يحمل على ناقته الحمل، ويسافر عليهـا، ويحـج عليهـا، ويبادل بها، ويتاجر بها، وينجبها، ويحلبها، ويذبحها فيستفيد من لحمها. فهي بهذا رأس مال يعتمد عليه في أن يسند عليها ظهره، فتشدّ منه أمام صعوبات الزمن.

لهذا كان اعتناء الرجل بناقته حفيا، يعالجها إن مرضت، ويطليها بالزفت إن جربت، ويسقيها إن عطشت، ويعلفها إن جاعت. يخشى على ظهرها عضة الشّداد، وضغط البطان واللّبَبْ. يوسع لها في المكان ما وسعه ذلك، ويبسط لها في المراح ما قدر على ذلـك. إن ساعـدته الأيام، وساعفته نقوده، «دندشها»، وزيّنها وزوقها وجملها، وجلاها كأنها عروس تزف لعريس.

والمثـل يحكي إحـدى دقائق عنايته بها، وحدبه عليها. تصور ـ يا بني ـ أعرابياً، أو حضرياً فلاحاً، أو غيرهما، جالساً على الأرض، أمام ناقته الباركة، وخلفه، عند متناول يده، عنصران من عناصر غذاء الابـل برسيم وعـرفـج، كوّم كل واحد منهما على حده، يأخذ من العرفج خصلة، ويغلفها بشيء من البرسيم، ثم يلقمها ذلك، وينتظر حتى تبتلعها، ثم يلحق الأولى بالثانية، ثم ثالثة ورابعة. وهكذا حتى تنتهي من الأكل، وتكتفي من الغذاء، وهو صابـر على أَنَـاتهـا في مضغهـا، وبطئها في تناول غذائهـا. ينـظر إلى هدوئهـا، واللقمـة في فمهـا «تُعَلْوجُها» يتلذّذ بما يراه من تلذذها. ويجد في هذا فرصةً له في التفكير في أمور الحياة، والتبصر فيها، على أنغام مضغ الأضراس، ورؤية «شدوق» ناقته، وخـدودهـا، تنتفـخ تارة، ممتلئـةً، وتضمـر تارة أخرى، مفرغةً. وقد ابتلعت ما هرست أضراسها. ثم يذهب بعد ذلك ويتركها تجتر ما أكلت. وهذا أمر تأخذ فيه وقتاً طويلاً، إذا ما تركت وشأنها فيه.



هذه الجلسة أمام الناقة، وهذا العمل الذي أداه لها صاحبها، يوجد صلة قوية بينه وبينها؛ يشعر هو أنه أدى تجاهها ما يقوم ببعض ما تعطيه، وما تقوم به هي نحوه من عمل فيه من العناء والتعب ما فيه. وتشعر هي بأن هناك من يعرف المعروف، ويقر بالفضل، ويحفظ الجميل، وأن راعيها مخلوق شكور. ويصبح بين الاثنين ألفة وود، حتى إن أحدهما ليناغي الثاني بلغة تصبح معروفة بين الاثنين: هذا بحدائه وندائه وغنائه، وهي برغائها وحنينها، والتفاتها ذي المعنى المعبر المفهوم له. ينام أحياناً وقد توسد ذراعها، ويرتاح وقد استظل عن وهج الشمس بظل جسمها الفاره، ويتدفأ شتاءً بوبرها ينسجه فراشاً وغطاء، وبحليبها غذاءً كاملاً.

مخلوق - يا بني - مع مخلوق، بينهما لمسة حنان، وإضاءة حب تصل بين قلبين من خميرتين مختلفتين. أما إذا انتقلنا بنظرتنا إلى زمنك الحديث، ووسائل مواصلاته المصنوعة من حديد فالأمر مختلف. تجد

هناك منفعة بحته لا قلب لها، فالسيارة حديد قلبها لا يبعث حناناً، ولا يستقبل حناناً، ومع هذا فالسيارة تحتاج إلى غذاء، وزيتها ووقودها غذاء، وتحتاج إلى تمريض وتطبيب، وصيانتها وما يوضع فيها من «قطع غيار» هو دواؤها وجراحها. أما القلوب فلا تلتقي، والارواح لا تتناغى بينها وبين صاحبها، ولكن هناك ذهن يشحذ عنده، وعقل يعمل لديه، وتكنولوجيا تتطور فيها. ولا يبقى من العوامل المشتركة إلا عامل واحد، هو عامل: خذ واعط. وهذا قائم في حياة البعير والسيارة.

هذا ما يخص نهاية المثل، أو آخره، ولكن المثل لم يقتصر على هذه الصورة المعبرة، ولم تكن هي وحدها هدفه، أو الغرض من سبكه وتأليفه، ولكن الهدف الأساسي أمر أهم: أمر يكوّن مبدأً أساسياً في مجتمعهم، وهو الحرص على الوقت، وعدم إضاعة أي جزء منه دون استفادة كاملة، وعدم اهدار الجهد فيما لا ينفعٍ. فهذا الجالس أمام الناقة يعلفها لم يجلس واضعاً يده على خده في انتظار أن



تنهي مضغها للعلف، وبلعها له، وإنما شغل نفسه بعمل لازم ومهم، وهو «سفّ» الحصير أي نسجه، و «لفّ» الحبال. والحصر والحبال أدوات مهمة جداً له. وعلى هذا فهو في جلسته هذه يقوم بها لا يقل عن ثلاثة أعمال رئيسية، وينهي بهذا واجبات لا يني ولا يتأوّه ولا يشكو ولا يضيق من القيام بها، بل لعله سعيد أن يكون حائزاً للمواد والأمور اللازمة لهذا العمل؛ فالناقة ثروة، وتوفر العلف لها نعمة من الله سابغة، ووجود الخوص لعمل الحصر، والليف لعمل الحبال منّة منه كبرى، ومقدرته، في ضوء صحته وعافيته وارادته فضل من الله عميم.

نجعل هذا مسك الختام، ولا أجمل من أن يختم الشيء بالاقرار لله بالفضل، وشكره على نعمه التي لا تحصى، تغمر الانسان وهي تحيط به، يسهو عنها وينساها إلى أن يفقد واحدة منها، فيسهر الليل، ويقطع النهار يتأسف عليها، ويندبها، ويتمنّى عودتها. وأحد هذه النعم العافية في البدن، لو أصيب المرء بصداع مفاجىء تنبّه إلى ما فقد من



نعمة الصحة والعافية، ولو التهبت أذنه، وأصيب بصمم مؤقت لعرف طعم العافية والصحة. ولو التهبت عينه، وحجب عن القراءة والكتابة، لاستيقظ للنعمة التي كان فيها، وافتقدها واتجه إلى الله ضارعاً مخلصاً بأن يرفع عنه هذا المرض النازل. فالحمد لله - يا بني - على نعمه، والشكر على فضله ومننه.



[١]

فهرس الموضوعات حسب ورودها







أبجي





[٢]

فهرس الموضوعات حسب حروف الهجاء

الصفحة

- أ -



أبجدي





• م •







أبجدي

[٣]

فهـرس الاعـلام

ما بين القوسين ( ) ورد في المتن، وما أُغفل منه القوسان فهو في الهامش.

- أ -

- ب -



- ث -

- ج -

- خ -

- د -

- ر -

- ز -

أعلام

- س -

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

- غ -



ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ م ـ

ـ هـ ـ

[٤]

فهرس المراجع والمصادر

١ - *أساطير شعبية من قلب جزيرة العرب*
عبدالكريم الجهيمان
الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، دار أشبال العرب، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٢ - *كتاب الأغـاني*
أبو الفرج الاصفهاني (علي بن الحسين بن محمد القرشي)
الطبعة السادسة : ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، دار الثقافة، بيروت، لبنان.

٣ - *الآمثال الشعبية في قلب جزيرة العرب*
عبدالكريم الجهيمان
الطبعة الأولى : ١٣٨٣هـ.

٤ - *الآمثال الشعبية في المنطقة الجنوبية*
يحيى إبراهيم الألمعي
الطبعة الأولى.

٥ - *الآمثال الشعبية في مدن الحجاز*
أحمد السباعي ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.



٦ - *الآمثال العامية*

محمد صادق دياب

الطبعة الأولى : ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٧ - *الآمثال العاميّة في نجد*

محمد بن ناصر العبودي

١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

٨ - *أخبار الظراف والمتماجنين*

أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي

شرح وتقديم : عبدالامير مهنّا

الطبعة الأولى : ١٩٩٠م، دار الفكر اللبناني.

٩ - *أيها الولد*

محمد بن محمد أبو محمد الغزالي

تحقيق : علي محي الدين علي القره داغي

دار الاعتصام، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٠- *أخبار الحمقى والمغفلين*

أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي

الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، دار الآفاق الجديدة، بيروت.



١١- *جريدة «الجزيرة»*
عدد ٦٨٩٦، الجمعة، ٦ صفر، ١٩١٢م، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١٢- *ديوان (شعر عامي)*
عبدالمحسن الناصر الصالح
الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ.

١٣- *روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين*
محمد بن عثمان بن صالح بن عثمان القاضي
الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٤- *كتاب العقد الفريد*
أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
تحقيق: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الابياري
الطبعة الثانية، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.

١٥- *عقلاء المجانين*
أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري



تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول
الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م
دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٦- *علماء نجد خلال ستة قرون*
عبدالله بن عبدالرحمن بن صالح البسام
الطبعة الأولى: ١٣٩٨هـ.

١٧- *مجالس ثعلب*
أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب
تحقيق: عبدالسلام محمد هارون
الطبعة السادسة: ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، دار المعارف.

١٨- *محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء البلغاء*
الراغب الاصبهاني
هذّبه واختصره: إبراهيم زيدان
دار الآثار، بيروت.

١٩- *معجم الأدباء*
أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي
دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.



٢٠- مـن حطـب الليل
عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر
الـطبـعـة الأولى : ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م،
الرياض، المملكة العربية السعودية.

« تـم بحمـد الله »



